

عبد القادر زبادية

دراسة عن إفريقيا جنوب الصّحراء

في مآثر ومؤلّفات العرب والمسلمين



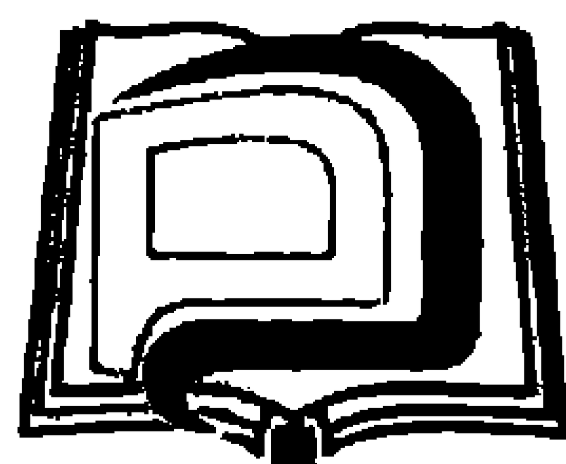


ديوان المطبوعات الجامعية

عبد القادر زبادية

أستاذ التاريخ في جامعة الجزائر

دراسة
عن إفريقيا جنوب الصّحراء
في مآثر ومؤلّفات العرب والمسلمين



ديوان المطبوعات الجامعية

المقـدمـة

إنّ المتتبّعين لما تحتوي عليه المكتبة العربية من كنوز في مختلف المواضيع، على اتّساعها قد يلاحظون دون شك، أنّ الجوانب المتصلة بالقارة الإفريقية إلى الجنوب من الصحراء الكبرى، لا تزال على أيامنا هذه في حاجة إلى المزيد من الإغناء، لا محالة. وبما أنّ مؤلّفات العرب والمسلمين خلال فترة ما يعرف بالعصر الوسيط كلّه ظلّت وستظلّ، لا محالة كذلك، هي المصدر الوثائقي الوحيد عن شعوب القـارة الإفريقية إلى الجنوب من الصحراء، وذلك إلى جانب بعض الوثائق التي تؤمّنها الحفريات الأثرية طبعا، وإنّ إلقاء الأضواء عن ما سجّله المؤلّفون من أفارقة وعرب عن تاريخ تلك الشعوب وثقافتها وتقاليدها، هو إثراء للمكتبة العربية من جهـة، وهو مساهمة من جهة أخرى، لإعطاء صورة عن ذلك، تمكّن القارئ المعاصر من توسيع المجال المعرفي لديه في هذا الجانب، كما تمكّن الباحث الذي هـو بـصدد العمل أو أنه يسعى إلى التعمق أو التخصص في هذا الموضوع من أن يجد بين يديه مصادر ونقاطا كثيرة للإنطلاق في أبحاثه أو تعميقها، وكلّ ذلك كان هو الهدف من تأليف هذا المختصر.

وقد تم تخصيص القسم الأول من الكتاب لنبذة مختصرة عن آخر ما توصّل إليه حتّى يومنا هذا علماء الآثار عن الإنسان الإفريقي وتطوّره في الأزمنة القديمة، أمّا القسم الثاني فقد احتوى على التواجد العربي في القـارة الافريقيـة جنـوب الصحراء وطبيعته، واحتوى القسم الثالث عن ما سجّله لنـا المؤلفـون العـرب والمسلمون من رحالة ومثقفين وجغرافيين ومؤرخين، ثمّ أُتبع كلّ ذلـك بخاتمـة لتغطية جوانب أخرى لها علاقة بالموضوع، مثل رجال الطرق الصوفية ودورهم، وذلك لتمكين القارئ من الإحاطة بالموضوع من جميع جوانبه بقدر الإمكان.

وأخيرا فإنّه للتّيسير على القارئ الكريم فيما يتعلـق بالأمـاكن والـدّول والقبائل والمواقع الأثرية والتاريخية بصورة خاصّة، فقد تمّ وضع الخرائط التوضيحية وإدراجها ضمن صفحات الكتاب كلّما كان ذلك لزاما – والله الموفق للصواب.

الفصل الأول

القارة الإفريقية في العصور القديمة

(توطئة عامة)

1- عامل المناخ
2- مراحل تطور الإنسان الأول في إفريقيا
3- الإنسان القائم بذاته.
4- السلالات اللغوية
5- إنتاج الغذاء ونتائجه
6- التعدين واكتشاف النار
7- التشكيلات السياسية وتقاليدها

1- عامل المناخ

يميل الكثير من المؤرخين إلى أنّ افريقيا كانت المهد الأول للانسانية، ويذهب الذين يقولون بنظرية التطور إلى أن الإنسان الأول قد مرّ بمراحل عديدة من التطور قبل أن يصل إلى المرحلة الحالية، وأنّ كلّ ذلك يكون قد تمّ على أرض القارة الإفريقية.

وبالنظر إلى أنّ القارة الافريقية من الناحية الجيومورفيجية ضاربة في القدم، وهذا اذا ما قورنت بالقارّات الأخرى، فقد أثّر هذا العامل الزمني على أديمها فقلّت بها المناطق الجبلية العالية باستثناء [كليمانجارو] وكذلك قمّة الأطلس الغربي في الشّمال، كما أدى هذا العامل الزمني المتقادم أيضا إلى نشوء الصحراء و"السّافانا" بفعل التآكل والتقلبات المناخية المتتالية على مرّ العصور، ونتج عن ذلك أنّ أديم القارة الافريقية أصبح قليل الخصوبة بشكل عامّ، وأنّ جوفها غنيّ بالمعادن بفعل الترسّبات المتتالية.

ويذهب علماء المناخ بصورة خاصّة إلى أنّ الصحراء الافريقية الكبرى كانت في الأزمنة ما قبل التاريخ وبعد الحقب المتجمّدة القديمة تتمتع بالاعتدال المناخي وبالخصوبة الكبيرة وكانت مربعا ومجالا لحياة الانسان وللكثير من أنواع الحيوانات الأخرى.

وبعد انقشاع الجليد وانحصاره التدريجي باتجاه القطبين الشمالي والجنوبي للكرة الأرضية تحوّلت الصحراء إلى ما هي عليه الآن من قحولة، وهذا بفعل الجفاف الذي انتابها، فدفع بالمخلوقات التي كانت تعيش فيها إلى الهجرة باتجاه الشمال والجنوب، وبقي من بينها فقط في الصحراء سكان الواحات حيثما وجدت وفي أماكن متفرقة.

انّ خصوبة الصحراء في الأزمنة القديمة اثبتت صحّتها حفريات البحث عن النّفط حديثا، حيث وجدت آبار ثرية من الغاز والنفط في الطّبقات التّحتيّة،

هي عبارة عن احتقان لبقايا الحيوانات والنّباتات في جوف الصّحراء، وذلك بفعل الحرارة المتأتّية من باطن الأرض بصورة خاصّة.

أمّا اتّساع المناطق شبه الجافة (السافانا) ابتداء من أطراف الصحراء شمالا وجنوبا فمردّه أيضا إلى الجفاف وقلّة نزول الأمطار على هذه المناطق، وبقيت فقط المناطق الاستوائية كثيفة الغابات بفعل الرّطوبة الاستوائيّة وغزارة الأمطار المنتظمة.

2- مراحل التطوّر الإنساني الأوّل في إفريقيا

يذهب مؤرّخو ما قبل التاريخ إلى أنّ الإنسان مرّ بمراحل في التطوّر قبل وصوله إلى المرحلة المتقدّمة جدًا، وهي وضعيته الحالية، وربما تكون كلّ مراحل تطوّره هذه بدأت وانطلقت من على أديم القارة الافريقية، حيث أنّ كلّ أقدم مراحل التطوّر هذه قد اكتُشفت آثارها في مناطق افريقية حتى الآن ويستند المؤرّخون على شيئين أساسيين في الاستفادة أو اكتشاف المعرفة حول التطوّر الانساني في افريقيا، وهما بقايا الجماجم ومقارنتها بالترتكيبات الجينية لدى الانسان الحالي، امّا تحديد الزمن أو تحديد مدى الأقدمية لكلّ جمجمة فإنّ استعمال وسيلة الفحم 14 هي التي لا تزال شائعة، وعن طريقة استعمال هذه الوسيلة يتمّ تحديد مدى القدم لكلّ بقايا الجماجم المكتشفة.

إنّ أولى مراحل التطور الإنساني المعروفة حتى الآن، قد وجدت في شرق وجنوب القارة الافريقية، ويصطلح علماء التاريخ القديم على تسمية الإنسان قبل تحوّله إلى صورته الحالية والتصاق وضعه القديم بالحيوانات القريبة منه شكلا وتكوينا بالإنسان المصغّر «HUMINIDS» ففي هذه المرحلة كان هذا النوع من المخلوقات في طريقه إلى التطوّر نحو الوضع الانساني الحالي، وكأنه أقرب إلى قردة "الشامبانزي"، وكان في تحركاته مثلها بحيث يقف على قدميه الخلفيّتين إذ أنّ يديه الأماميتين يعمل ويصعّدهما للأعلى كما يشاء أو أنّه يحبو على الأرض ويتسلق أغصان الشجر، كما تفعل قردة الشامبانزي تماما، ومعلوم

أنّ وجه الشامبانزي لا يزال لحدّ الآن في تشابه ما مع صورة الانسان إلى حدّ بعيد.

يحدّد المؤرّخون فترة الانسان المصغّر (هومينيس) هذه بحوالي ستّة ملايين سنة خلت، وفي تلك الفترة كانت القارة الافريقية تمرّ بمرحلة تطوّر مناخي يمتاز[1] بتحوّل الارض نحو التبرّد التدريجي وكذلك التّجفّف، ممّا كان ينتج عنه تكون المناطق شبه الجافة (سافانا) التي كان يمكن لهذا الانسان المصغّر القيام بالمشي عليها أو بالحبو أو بالصّعود وتسلّق الأغصان والأماكن المرتفعة.

إنّ أولى الأنواع المعروفة للإنسان المصغّر هذا يصطلح المؤرخون على تسميته بإنسان (أوستر الوبيثيسين AUSTRALOPITHECINES) الذي وجدت آثاره في المنطقة الجافّة بوادي (أواش) الواقعة في شمال اثيوبيا الحالية وقد حدّد تاريخ بقايا هذا الانسان بأربعة فاصل أربعة مليون سنة خلت حتى الآن، وحدّدت خلقته بأنّ فكّيه كبيرتان وواسعتان، كما أنّ حجم جمجمته يمتاز بالكبر كذلك، لكنّ حجم مخّه صغير ولا يزيد عن مخّ الانسان الحالي. وكان هذا المخلوق يتغذّى أساسا من النباتات المتاحة، وقد دلّت آثار بقايا لقَدَم هذا الانسان المصغّر اكتشفت ضمن رماد بركاني في منطقة "لا يتولى" في تنزانيا الحالية، يعود تاريخها إلى ثلاثة فاصل ستّة ملايين سنة، على أن هذا الإنسان المصغّر ربّما كان يتسلّق أكثر ويحبو أكثر ممّا يمشي ولكنه في الوقت ذاته يستطيع الوقوف والمشي كذلك إذا شاء.

---

(1) يقسّم المؤرّخون حياة الانسان على وجه الأرض إلى فترة ما قبل التاريخ، والفترة التاريخية.

أ- أمّا الفترة التاريخية فهي تبدأ باكتشاف الكتابة حيث بدأ الانسان يسجّل الحوادث ويترك لمن بعده صورة عن الحوادث وعن الحياة التي مارسها، وقد بدأت منذ حوالي أربعة آلاف سنة قبل ميلاد المسيح * عليه السلام.

ب- أمّا الفترة ما التاريخية فهي تمتدّ إلى ما قبل اكتشاف الكتابة، وهي طويلة جدّا، ويرتّبها المؤرّخون على فترات تسمّى غالبا بالعصور الحجرية أو عصور ما قبل التاريخ بصورة عامّة.

ويتفق المؤرخون على أنّ مخلوق "أسترالو بيثيسين" هذا الذي يتجمّع فيه التشابه بين الانسان ـالقردة أو الحيوانات الأخرى المشابهة قد استمرّت فتـــرة تواجده لمدّة حوالي ثلاثة ملايين سنة، ثمّ تطوّر عنه الانسان الأوّل الذي تتباعد أكثر صفاته الانسانية عن صفاته القردية أو الحيوانية الأخرى، وقد تمثّل ذلـــك فيما اصطلح على تسميته بالإنسان المهذّب HOMO-HABIBLIS.

أن الإنسان الأول هذا أو المهذّب أو المتكامل نسبيا نتيجـــة للتطـــور في المرحلة التي جاءت بعد مرحلة الهومينديس مباشرة، قد اتّفق المؤرّخون على أنّ تاريخ تواجده ربما يعود إلى حوايل مليون سنة خلت، وقد وجدت بقايا آثـــاره حول البحيرات الافريقية الكبرى (مضيق أولدوفاي) في تترانيـــا الحاليـــة، وفي منطقة كوبي فورا شرق توركانا في كينيا الحالية. وكذلك في الشاطئ الغربي من بحيرة نيازا.

إن الآثار المعروفة حتى الآن لإنسان "هوموها بيليس" هذا دلّت على أن، حجم مخّه يبلغ حوالي ثلثي حجم الإنسان الحالي، فهو بذلك يفوق حجم مـــخّ سابقه إنسان أوسترابيثيسين بحوالي النصف تقريبا، وهو يتغذّى خاصّـــة مـــن اللّحوم، ويسير باستقامة كاملة، كما أنّه يتوفّر على أصابع في انتظـــام أصـــابع الإنسان الحالي تقريبا، ولذلك فقد استطاع ان يمتلك ويستعمل المقابض الحجرية والفؤوس الحجرية وينحت من الحجر فؤوسا ومقابض حـــادّة يـــستعملها في أعراضه المختلفة وخاصّة في القطع والتّكسير، وقد وجدت عيّنات كثيرة مـــن أدوات له بهذه الصورة خاصة في أولدوفاي بكينيا، وفي جهـــات أخـــرى في المناطق الإفريقية شبه الجافّة.

3 – الإنسان القائم بذاته

يذهب العلماء إلى أنه في نطاق حلقات التطور هذه، ظهر منذ حوالي واحد فاصل ثمانمائة مليون سنة خلت ما أطلقوا على تسميته الإنسان القائم الذات (هومواراكتوس: HOMOERECTUS) وقد استمرّ تواجد هذا الإنسان

المتطوّر عن من سبقه إلى حدّ كبير، حوالي أكثر من مليون سنة، وقد تمتّع بمخ حجمه أكثر من سابقيه كما أنّه كثير التّجوّف والتّعقيد، وكان هذا الانسان كذلك أكثر استقامة وتكاملا في مشيته وخلقته وتحركاته، وربما يكون قد عرف استعمال النار وعرف بدايات الاستعمال اللّغوي، ومن المؤكّد أنّه استعمل أدوات متقدّمة جدًا عن سابقيه، كما تدلّ على ذلك بقايا الآثار التي اكتشفها الباحثون حوله في مناطق عديدة بالقارّة الإفريقية مثل الأدوات اليدوية الحادّة للقطع والتي بقيت أكثر وأصلب الأدوات المستعملة لدى الإنسانية الأولى منذ حوالي مائتي ألف سنة خلت حتى الآن.

إنّ هذه البقايا الأثرية لإنسان (هومواراكتوس) قد وجدت بصورة خاصة في مناطق البحيرات بشرق افريقيا، وحول منابع المياه ومجاريها النهرية في بقاع عديدة بالشرق الإفريقي بشكل خاصّ، وبدرجة أقلّ في مناطق أخرى بالقارة الإفريقية، ويذهب كثير من المؤرخين، بناء على أدلّة عديدة إلى أنّ إنسان (هوموإيراكتوس) هذا قد انطلق من القارة الإفريقية إلى آسيا ومنها إلى أوروبّا ثمّ إلى بقيّة القارات الأخرى، ومن ابرز الأدلة التي اعتمدها الباحثون في هذا المجال هي تحاليل الجينات وبدايات تواجدها على مراحل متباعدة أثبتت لهم أن ظواهر إنسان (هومواراكتوس) قد انطلقت من إفريقيا ثم تلي ذلك أوروبا، وهذا يعني أنّ إنسان NEANDERTHAL الذي وجدت آثاره في أوروبا شبه الجليدية يكون، ليس كما كان شائعا في السابق، هو الإنسان الأوّل في حلقات هذه التّطورات لظهور الإنسانية على وجه الأرض، وبهذا المنظور أيضا فإنّ إنسان سابيانس HOMO SAPIENS الذي وجدت آثاره الأولى في آسيا الجنوبية، لم يكن أيضا هو الإنسان الأول كما كان يعتقد سابقا، بل أنّه إنسان فرعيّ متأخّر في التّواجد على سطح الأرض مثله مثل إنسان نياندرثال الأوروبي تماما، فقد أثبتت التحاليل المتطوّرة حول هذين المخلوقين، أنّ تاريخ تواجدهما يتراوح فقط بين مائة ألف وإلى مائة وعشرة آلاف سنة خلت، أي أنهما يمثلان فقط الإنسان المتطور الذي يتوفّر على كلّ المقومات الإنسانية الحالية.

4- السلالات:

لقد وجد الباحثون أنّ الأجناس واللغات في القارة الإفريقية قديما، قد ارتبطت من حيث التنوع أو الامتياز والاختلاف عن بعضها البعض، بتأثير المناخ بين منطقة وأخرى إلى حدّ كبير، و لم يجد العلماء وسيلة لتثبيت هذه النّظرية سوى تحليل الجينات ومقارنة بقايا الجماجم القديمة والعظام التي أمكن الحصول عليها بواسطة الحفريات، بمثيلتها الحديثة، فوجدوا أنّ هناك ارتباطا متّصلا من حيث انتسابها، إلى جنس واحد في كلّ منطقة بحيث يختلف سكّانها في أصولهم الطّبيعية واللّغويّة عن الآخرين في مناطق أخرى، وهذا حسب المناخ الذي عاشه جنس ما، و رتبطت حياته بمحيطه الطبيعي باستمرار.

إنّ مثل هذه التحليل الجينية أوصلت غالبية الباحثين إلى القول بأنّ أجداد شعوب (سان SAN) في جنوب افريقيا كانت حياتهم معزولة إلى حدّ ما عن العالم الخارجي في العهود الضاربة في القدم وهذا اعتبارا من منطقة الزّامبيزي إلى الجنوب، كما وجد العلماء أنّ أقرب الشعوب اليهم من حيث التّكوين الجيني كذلك ربّما هم شعوب منطقة البحر الابيض المتوسّط الافريقية الذين كانوا يمتازون بقامة متوسّطة الحجم، ويختلف كليّا عن (سان) وشعوب المنطقة المتوسّطة الافريقية كذلك شعوب الزّنج الذين كانوا يشغلون كلّ الغرب الافريقي تقريبا، وقد وجدت آثار خاصّة في (أيوو إيليرو IWO ELERU) في غرب نيجيريا، يعود تاريخها الى الألفية الثالثة قبل الميلاد، كما وجدت لهم آثار أخرى في لصّحراء يعود تاريخها الى الألفية الثالثة قبل الميلاد كذلك، كما وجدت لهم آثار أخرى في الصّحراء يعود تاريخها الى الألفية السادسة والى الألفية الثالثة قبل الميلاد.

ويعتقد كثير من العلماء أن شعوب الاقزام التي سكنت ولا تزال تسكن منطقة الغابات الاستوائية، هم متفرّعون عن الشّعوب الزنجية.

ولقد وجد العلماء أنّ التنوعات الجينية الفرديّة كثيرة جدًا داخل كلّ مجموعة عرقية في محيطها المناخي البيئي، وانّ هناك روابط عامّة متوفّرة لدى جميع الافراد داخل المجموعة الواحدة وهذا الى جانب امتياز كلّ فرد بجيناته الخاصة بجانب الجينات العامة التي يلتقي فيها مع كلّ افراد جنسه الآخرين، كما وجد الباحثون انّ منطقة الشرق الافريقي ربّما اختلطت فيها الاجناس أكثر من غيرها في العصور الحجريّة القديمة، وهذا لأسباب غير معروفة حتى الآن.

ويصنف العلماء اللّغات تبعا للسّلالات المتواجدة حتى الآن في عموم القارة الافريقية كما يلي:

فهناك شعوب (سان) في الجنوب والجنوب الشرقي الافريقي، ولغتها ذات أصول واحدة، غير أنّ هناك عديد اللّهجات داخلها وتتنوّع تلك اللهجات بين منطقة وأخرى ويطلق على لغة (سان) هذه اسم (خويسان أوخويزان KHOIZAN)، وهناك عائلة اللّغات الأفرو آسيوية وهي ذات أصول واحدة أيضا، غير أنّها كانت تشمل لغات عديدة داخلها، وتندرج ضمن هذه المجموعة من اللهجات التي تمتدّ حتى شمال تترانيا الحالية كذلك اللغات العربية والعبرية واللغة المصرية القديمة.

أمّا الصنف الثالث فهو لغة مجموعة منطقتي النيجر والكونغو، التي تتكلّم بها الشعوب الزنجية في الغرب الافريقي بصورة عامّة، أمّا الصنف الرابع فهو لغة منطقتي حوض النيل الجنوبي والصحراء.

5- انتاج الغذاء ونتائجه:

تعتبر مرحلة وصول الانسان في القارة الافريقية الى انتاج الغذاء من أهمّ المراحل التي احدثت تطوّرا كبيرا في حياة الانسان الافريقي ذلك ان الانسان في هذه المرحلة أصبح في امكانه أن يستقرّ، و لم يعد هائما بصورة دائمة للبحث عن قوته اليومي في البراري، ولا شكّ أنّ الانسان الافريقي في المراحل السابقة كان يحصل على غذائه من الصيد والالتقاط سواء على ضفاف البحيرات أو في

البراري والغابات، وفي هذه المرحلة كان يتعرّض للكثير من المصاعب، من بينها صراعه مع الحيوانات المفترسة ومع السّوئم بمختلف انواعها، كما انّ الإجهاد كان يؤدّي به الى التّعب، بالاضافة الى صراعه مع العوامل المناخية وتعرّضه للامراض المختلفة، ويذهب العلماء الى انّ الانسان في هذه المرحلة كان قلّما يتجاوز الثلاثين عاما في حياته الجملية على سطح الارض.

أنّ دخول مرحلة إنتاج الغذاء في حياة الانسان الافريقي يرجعها العلماء الى حوالي عشرة آلاف سنة خلت[1]، وقد اتّفق على تواجدها في عدة مناطق أبرزها منخفض الفيوم في مصر الحالية وكذلك عدّة مناطق حول النّيل الاعلى[2]، ولا يزال هناك عدم اتّفاق بين علماء الآثار فيما كان اكتشاف الزّراعة وممارستها قد سبق مرحلة تدجين الحيوانات لدى الانسان الأوّل أو العكس من ذلك، ولكن الاتفاق حاصل بين هؤلاء العلماء حول اهمّيّة هاتين المرحلتين معا في حياة الانسانية الأولى، كما أن هناك اتفاقا بين العلماء حول انّ أولى المنتوجات الزراعية لدى الانسان الافريقي الأوّل كانت على الأكثر هي القمح والشّعير ثمّ السرغوم (الدرع) وكذلك اليقطان (البشنة)، امّا أولى الحيوانات التي رعاها الانسان القديم في حياته فقد كانت الماعز والنّعاج، وكلّ من المزروعات والحيوانات الدّاجنة هذه، كان تواردها الأوّل الى افريقيا قد جاء من مناطق جنوب وجنوب غرب آسيا على الأكثر.

وبعد أن تهيأت للانسان الافريقي القديم ظروف الاستقرار بفضل اكتشافه للزراعة بالدرجة الاولى، أصبح في امكانه العيش الى الاربعين عاما بالتّقريب.

(1) بين ثمانية آلاف وعشرة آلاف سنة، حسب مختلف التقديرات.
(2) في المناطق الحدودية الحالية بين مصر و السودان بصفة خاصة.

6- التعدين واكتشاف النار

كانت أولى المعادن التي استعملها الانسان الافري القديم، هي البرونز الذي هو خليط من النحاس ومعادن أخرى خفيفة مثل الالمنيوم وفلزات الحديد، ثمّ تحسّن انتاج التّعدين لديه فتوصّل الى انتاج النحاس، امّا انتاج الحديد فقد جاء بعد ذلك بمراحل.

ويذهب كثير من علماء الآثار الى انّ وصول الانسان الى معرفة التّعدين قد جاء قبل الوصول الى مرحلة الزراعة وتدجين الحيوانات، وبمثل ما كانت أهميّة اكتشاف الزراعة والتّدجين، كانت اهميّة كتشاف التعدين ذات اهميّة كبرى في حياة الانسان الافريقي القديم، ذلك انّ اكتشاف التّعدين قد مكّنه من استعمال أدوات هي أصلب من تلك الأدوات الحجرية التي كان يستعملها قبل ذلك، وفي هذه المرحلة أصبح تغلّبه على الحيوانات المفترسة وتلك التي يصطادها أكثر فاعلية، كما انّ الحفر في الارض لسبب أو لآخر وكذلك القطع لمختلف الأغراض، وقد أصبح كلّ ذلك أكثر يسرا باستعمال الآلات المعدنية منه باستعمال الآلات الحجريّة، كما كان الأمر في المراحل السّابقة.

انّ اكتشاف النّار قد سبق مرحلة التّعدين دون شكّ، ذلك انّ استعمال النّار أساسي للتّعدين، وكان اكتشاف النّار ذي اهمّيّة كبرى قد يفوق مفعولها كثيرا من الاكتشافات الأخرى في حياة الانسان على الارض، فبفضل استعمال النّار للطبخ أو الشّوي تمكّن الانسان من التّخلص من الميكروبات المضرّة في طعامه الى حدود الأربعين في المائة على الأقّل، وبذلك أصبح أمله في الحياة قد يناهز الأربعين سنة على اكثر تقدير.

7- التشكيلات السياسية وتقاليدها:

تمتاز المناطق الشاسعة في افريقيا إلى الجنوب من خط الإستواء بكونها عبارة عن وهاد Steps هي أميل إلى الجفاف، ومناخها معتدل من حيث الحرارة، وهي أكثر ملاءمة للرعي منها إلى الزراعة بصورة عامة، أما المناطق

الباقية إلى الشمال والقريبة من خط الاستواء والتي تملؤها الغابات الإستوائية الكثيفة، فهي مناطق رطبة وصالحة للزراعة والإستقرار أكثر من مناطق الوهاد التي هي أميل إلى الجفاف.

وقد سكنت منذ القديم في هذين الإقليمين شعوب "لبانتو"، وتكاثف وجودها أكثر في المناطق الرطبة المحاذية لخط الإستواء وكذلك على سواحل المحيط الهادي، ويعتقد أن تواجدها في هاتين المنطقتين معا قد يعود الى ما قبل سنة 3500 قبل الميلاد.

ويعتقد أن التشكيلات الأولى الملكية قد قامت حول التعدين في المناطق الزراعية، وحول تدجين الحيوانات من غنم وبقر على الخصوص في المناطق الرعوية، وقامت تلك التشكيلات الملكية حول عائلات غنية استطاعت أن تجلب الآخرين للإنخراط تحت نفوذها وكانت تتوسع في سلطاتها كلما ازدادت غنى فيتكاثر رعاياها، وكانت تلك العائلات تتلقى المساهمات المالية من الأقاليم التي تخضع بدورها لعائلات غنية في مناطقها، ولكن أقل غنى من العائلات الكبرى التي يخضع الجميع لسلطتها، وهذه الصورة تكونت الملكيات الأولى وكونت لها تقاليد خاصة أبرزها الأبّهة في السكن وتكوين سلوكيات رسمية تكسبها الهيبة وتمكنها من النفوذ والسلطة على الآخرين، ولم يتأت كل ذلك عن طريق الحروب إلا في النادر اليسير على ما يبدو، وكثير من هذه التنظيمات تكون أولى بداياتها في شكل رئاسة قبيلة، ثم قد تبقى في حدود "القبيلة" وهنا يمكن أن يطلق عليها (رئاسة مشيخة أو قبيلة) فإذا امتدت لتشمل أكثر من مجرد قبيلة فتسمى حينئذ مملكة أو إمارة.

ونجد نفس التنظيمات المشابهة لذلك في بقية المناطق الإفريقية إلى الشمال من خط الإستواء، غير أنّ الشعوب الإفريقية في ا لغرب ربما تكون قد مارست الحروب القبلية فيما بينها أكثر، وتشكلت تنظيماتها السياسية في كثير من الأحيان كنتيجة لتغلب إحدى القبائل الكبرى أو تغلب تحالف قبيلتين أو أكثر على عدد من القبائل في منطقة معينة وبذلك تتكون إمارة كبيرة ويدفع

الخاضعون لنفوذها ضرائب في شكل هدايا تقدم سنويا أو فصليا للأمير الكبير، فإذا أرضته فَبِهَا وإن لم ترضه كان على رئيس القبيلة الأصغر والخاضعة لنفوذه أن يطلب من قبيلته الرحيل إلى مكان آخر، إن لم يستطيعوا تقديم المزيد الـــذي يرضى به (الأمير).

وقد كان من العادات التي عرف بها الأمراء والملوك الأفارقة أنهم يعيّنون يوما للخروج في أبهة وفخامة يحيط بهم الجنود والفرسان والعبيد فيمرون أمـــام الناس في عاصمتهم، وعلى هؤلاء أن يظهروا الخضوع أو الطاعـــة بأســـاليب عديدة من بينها الإنحناء أو الركوع ومن بينها كذلك رمي التراب على الرؤوس والأجسام بعد ملامسة الأرض خضوعا وإجلالا للأمير وحاشيته.

وبما أنّ التدين كان مرتبطا بعوامل الطبيعة وعلاماتها مثل الشمس والنار والريح والأفاعي والمطر والرعد والبرق فإنّ تعاطي السحر والإعتقـــاد بـــالخير والشر المتأتيين من الأرواح الشريرة وغير المرئية كان كل ذل شائعا بشكل كبير لدى العامة والخاصة وكان للأمراء بصورة خاصة سحرتهم الذين يأتون بكـــل الأعمال السحرية لجلب الخير أو للوصول إلى الانتصار في المعارك، وكذا لـــردّ الأضرار والأمراض، وكان كثير من الأمراء تتضمن مواكبهم عند الخروج أمام العامة فعاليات يؤديها السحرة والمشعوذون أمامهم كي ترهبهم العامة وتـــزداد لهم خضوعا وطاعة، وفي كل يوم يستقبل الأمراء في قصورهم أفرادا كثيرين من مساعدين ورؤساء قبائل ونواحي وغيرهم مثل السّحرة فكان على كلّ منـــهم ملامسة الأرض برأسه ورمي التراب عليه إجلالا للأمير أو الملك.

وقد عرف عن الأمراء والملوك الأفارقة العناية إلى حد كبير بقـــصورهم بحيث تكون أكثر حجما وبهاء من غيرها من المساكن في كامل المملكة كما أنّ مداخليها كانت دائما يقف حولها العبيد برماحهم.

وكان من تقاليد الأفارقة إكرام الضيف إلى حدّ كبير فابن بطوطة تلقى الهدايا من أمير مالي كما أنّ الرحالة الأوروبيين اللذين سبقوا الاحتلال الأوروبي

كثيرا ما كانوا ينــزلون ضيوفا على الأمراء الأفارقة فيكرمون وفادهم ويبعثون معهم بمرافقين حتى حدود بلادهم.

وكان من تقاليد الأمراء الأفارقة أيضا تبادل الهدايا مع ضيوفهم فــابن بطوطة تلقى الهدايا من أمير مالي كما أنّ الرحالة الأوروبــيين الــذين ســبقوا الاحتلال الأوروبي كثيرا ما كانوا ينــزلون ضيوفا علــى الأمــراء الأفارقــة ويقدمون الهدايا الرّمزية كلّما كان أي موقف يتطلب منهم ذلك.

*** بعض المصادر المختارة لمزيد الاطلاع حول محتويات هذا الفصل:**

1- Philipson, D.W, Africain archeology, Cambridge, 1993.

2- Martin et AL, the cambridge Encyclopaedia of human evolution, Cambridge, 1992.

3- CLEIN. G, the human career, Chicago 1989.

4- ILIFFE.J, Africa, the history of a continent, Cambridge, 1995.

5- Wertime et al, the coming of the age of iron, newyork 1980.

6- HALL, M, the changing paste FARMERS Kings and traders in southern Africa (200 – 1860) , CAPE Town 1987.

الفصل الثاني

التواجد العربي في أفريقيا جنوب الصحراء قبل التّوغّل الأوروبي في داخل القارة

1- الهجرات العربية إلى الشرق الإفريقي

2- العرب في شرق افريقيا قبل أيام السيد سعيد، وبعده

3- إمارة طانقانيكا ومحمد بن خلفان المدعو روماليزا "

4- سياسة محمد بن خلفان وشخصيته

5- محمد بن خلفان، تيبوتيب والبلجيكيون

6- العلاقات المتواصلة بين العرب وشعوب الغرب والوسط الإفريقيين إلى الجنوب من الصحراء الكبرى

1- الهجرات العربية إلى الشرق الإفريقي ووسطه خلال العصر الوسيط وقبله:

في مقدمات كتب المؤرخين العرب المشهورين من أمثال الطبري والمسعودي وحتى ابن خلدون أيضا نجدهم دائما يذكرون عن (سيف بن ذي يزن) الحميري وهجرته إلى افريقيا ويفهم من حديث هؤلاء المؤرخين أن ذلك قد تم قبل ظهور الإسلام بالطبع، غير أن ما يمكن أن نفهمه من ذلك أيضا هو أن الاتصال بين العرب والأفارقة الى الجنوب من الصحراء الكبرى كان موجودا بشكل أو بآخر قبل بداية الفترة الإسلامية وذلك للموقع الجغرافي الذي جعل من الطرفين الأفريقي والعربي جارين على طرفي الصحراء، العرب في شمالها والأفارقة في الجنوب.

أما خلال العصر الوسيط فقد سجل لنا المؤرخون عدة هجرات عربية إلى أفريقيا جنوب الصحراء من صغيرة إلى كبيرة وقد استقرت كلها في الشرق الأفريقي باستثناء هجرة عرب "الشوا" التي كانت هجرة كبيرة نسبيا واستقرت في منطقة (الكانم – بورنو) حيث امتزجت بالسكان الأصليين وأصبحت جزء منهم، أما الهجرات الأخرى المعروفة والتي استقرت بالشرق الإفريقي فأهمها ما يلي:

1) يبدو أنه لتأمين التجارة مع الشرق الإفريقي أرسل الخليفة عبد الملك ابن مروان مفرزة من العساكر استقرت في جزيرة (لامو) الواقعة في مياه المحيط الهندي بين الساحل الصومالي وكينيا الحاليتين، وبقيت هناك وكان ذلك في عام 75هـ / 695 م.

2) وقبل ذلك في عام 685 هـ / 705 م. قام شعب عمان الحالية بثورة تزعمها كلّ من سليمان وسعيد فلما تغلبت عليهم جيوش الخليفة بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفي فروا بأعداد كبيرة إلى الشرق الإفريقي واستقروا به.

3) ونتيجة لبعض الاضطرابات في الجزيرة العربية فهناك صراع قد نشب بين جماعتين من الشيعة نتج عنه ما يعرف بهجرة اليزيديين حوالي سنة 750 م نسبة إلى زيد أكبر أحفاد الإمام علي (ض) وقد إنهزم في هذه المعارك زيد وأتباعه مما دفع به إلى الهجرة مع جماعته إلى الشرق الإفريقي حيث استقروا عند ساحل (بندار) بالصومال الشرقي على مقربة من مدينة (مقديشو) الحالية.

4) بقي أتباع زيد في منطقتهم هذه على الساحل الصومالي وبعد مدة طويلة التحق بهم جماعة كبيرة نسبيا من منطقة الأحساء تعرف بهجرة (الاخوة السبعة) فتضايق أتباع زيد من مجيء هذه الحملة واضطروا إلى الانتقال إلى مناطق أخرى في لداخل أو على الساحل الافريقي حيث اختلطوا بالسكان وأصبحوا جزء منهم، أما جماعة (الاخوة السبعة) فقد حلّوا محلهم وأنشأوا مدينة (مقديشو) و تذكر المصادر أن جماعة (الإخوة السبعة) كانوا قد وفدوا في ثلاث سفن وأنهم تغلبوا على أتباع زيد اللذين كانوا قد سبقوهم بالسكن في المنطقة مما اضطر هؤلاء إلى الهجرة من جديد إلى قلب البلاد وترك أماكنهم الأولى.

5) في عام 975م انتقل حسن بن علي (سلطان شيراز) في جماعة كبيرة يصحبه فيها عديد من أتباعه من عرب وفرس يقال أنهم وصلوا ساحل الشرق الافريقي في سبع سفن ويقال كذلك أنهم نزلوا في أماكن متفرقة على ذلك الساحل فهناك مفرزة منهم استقرت في ممبسة وأخرى نزلت في (بِمْبا) وأخرى استقر بها المقام في (كِلْوة) والرابعة في (جوهانة).

ولا تعرف الأسباب الحقيقية لهجرة الحسن واتباعه هذه غير أن المؤرخين ينسبون لهذه الهجرة ذلك التأثير الكبير في اعتناق الأفارقة في الشرق الإفريقي الدين الإسلامي بكثرة وقد توزعوا في البداية بين شيعة كأغلبية نسبيا وسنّة كأكثرية على المذهب الشافعي.

6) هجرة النبهانيين: في بداية القرن الثالث عشر الميلادي (حوالي 1203م) ترأس ابن عثمان سليمان بن مظفر النبهاني هجرة عربية أخرى نزلت

في جزيرة (باتا) في البداية وقد تزوج بعد ذلك ابنة حاكم هذه الجزيرة على الأرجح واسمه (إسحاق) مما مكنه من تولي السلطنة بعده وبذلك تكونت امارة آل نبهان التي تولت الحكم في جزء من الساحل الإفريقي حتى القرن التاسع عشر ولا تعرف الأسباب الحقيقية لهجرة النبهانيين هذه غير أن هناك ما يشير ضمنيا وباستمرار إلى ذلك الإختلاط الذي ضل يحدث بين العرب والأفارقة في الشرق الإفريقي وحتى في الوسط (منطقة دارفور على الخصوص) وكذلك التواجد الكبير لعرب الشوا في منطقتي البورنو وتشاد على مرّ العصور.

2- العرب في شرق إفريقيا قبل أيام السيد سعيد وبعده

للعرب في شرق أفريقيا تواجدهم القديم فهناك الرياح التجارية التي كان لها الدور الهام في تسهيل توارد السفن بين جنوب الجزيرة العربية وخاصة عبر مضيق باب المندب وبين الشرق الأفريقي وخاصة زنجبار ذلك أن الطريق البحري من والي الهند عبر المحيط الهندي وبحر العرب مرورا بسقطرة كان قد جعل شبه الجزيرة العربية محطة اتصال باتجاه الشرق الافريقي منذ القديم وبهذه الصورة اختلط العرب بالافارقة الزنوج وتشكلت لغة سكان الشرق الافريقي المعروفة بالسّواحلية عن طريق الإمتزاج بين لغة العرب ولغة الزنوج الافارقة حيث أن هناك حوالي (60 % كلمات عربية في اللغة السواحلية حتى اليوم).

وقد شكل العرب منذ القديم مستقرات أو مستوطنات لهم في جهات عديدة بالشرق الإفريقي، معظمها كانت قرب السواحل وقرب ضفاف البحيرات الكبرى غير أن أكبر المستوطنات التي تكاثروا بها إلى جانب سكانها القدامى من الزنوج كانت جزيرة زنجبار (أي بلاد الزنج)، التي خضعت بصورة سلمية الى سلطنة عمان ذلك أن السكان العرب بها كانوا في معظمهم من عمان أصلا إلى جانب جالية إيرانية صغيرة.

وفي عهد سلطان مسقط (سيد سعيد 1806 – 1856م) تم نقل عاصمة السلطنة من مسقط إلى زنجبار، فقد عرف عنه بعد النظر ونظرا للفوائد

الاقتصادية الكبيرة التي كانت تدرها على خزينة سلطنته موارد مزارع الطيب (القرنفل) المتأتية من زنجبار وكذلك تجارة العاج المتأتية من صيد الفيلة وقطع انيابها في أفريقيا والتي كان أتباع مملكته وغيرهم يقومون به على امتداد السواحل الإفريقية وفي داخلها إلى الجنوب من منطقة الغابات الاستوائية.

لقد عرفت مملكة السيد سعيد ازدهارا كبيرا في عهد هذا السلطان المميز باللباقة السياسية وحسن التصرف فقد كوّن جيشا قويا بحساب ذلك الوقت وظف أفراده من البلش سكان الجنوب الإيراني وشرقي الهند أما السفن فقد اقتناها من بريطانيا بموجب اتفاقية خاصة مع حكومتها وبهذا الجيش المدرب احتل زنجبار ونقل عاصمة ملكه إليها وباحتلاله لزنجبار خضعت له مناطق الساحل القاري اسميا وبصورة آلية تقريبا والممتدة من وارشيك WARSHLIK حتى ليندي LINDI في الجنوب وكانت كل تلك النواحي قبل ذلك حرة لوحدها في شكل مستقرات قبلية وغير خاضعة لأحد باستثناء بعض التجار وبعض رؤساء القبائل المحليين.

لقد حول السيد سعيد عاصمته إلى زنجبار بعد أن زار الشرق الإفريقي وعلى رأسه جزيرتا زنجبار وبيمبا PEMBA عدة مرات، أما القرنفل فقد تم جلب زراعته من الهند وأصبحت زنجبار في عهد السيد سعيد أكبر منتج له في العالم، ومزارعه الكبرى كانت من عمل العبيد الذين كان معظمهم من داخل القارة وكان يتم جلبهم على أيدي التجار وصيادي العبيد.

عند وفاة السيد سعيد في عام 1856 انقسمت مملكته بين ولديه الكبيرين، فأخذ مجيد سلطنته على زنجبار، وفي عهد هذين الرجلين (سعيد وابنه مجيد) تم تشجيع العرب على الإقامة في زنجبار كمزرا عين كبار وهم بدورهم شجعوا الأفارقة الزنوج على توسيع التجارة باتجاه الداخل (في القارة) وتشاركوا معهم في الأعمال التجارية المختلفة وفي هذه الأثناء أصبحت زنجبار محطة تجارية هامة بين الهند والقارة الإفريقية في جانبها الشرقي على الخصوص،

فقد توافد التجار الهنود إلى المنطقة أيضا ووفرت حكومة سعيد وابنه مجيد بعده وسائل الأمن للجميع مما جعل التجارة مع الخارج انطلاقا من زنجبار على الخصوص ومدن الساحل الإفريقي الشرقي تشهد فترة ذهبية من حيث النشاط الإقتصادي باتجاه الخارج والتوسع التجاري مع داخل القارة أيضا وخاصة فيما يتعلق بتجارة العبيد وأنياب الفيلة (لصنع العاج) ، وخلال النصف الأول من القرن التاسع عشر أصبح للعرب مستقرات في شكل إمارات صغيرة داخل القارة الإفريقية انطلاقا من زنجبار والساحل الشرقي وقد امتدت هذه المستقرات في مناطق البحيرات الكبرى وخاصة طانجانيكا وإلى الكونغو وخاصة منطقة CATANGA ولهذا السبب عرفت بمناطق البايكي تلك التي تمتد بين كلوا وميناء ايجيجي UJIJI على بحيرة طانجانيكا أي للجميع "، أما بقية المناطق حتى مصب نهر الكونجو على المحيط فقد تشكلت بها ممالك على الطريقة الإفريقية أهمها إمارات افمبودوا ولوندا ونياموزي وهي إمارات تعود للأفارقة الأصليين وشكل العرب إمارتين كبيرتين هما إمارة تيبوتب وإمارة مصيري وقد بقيتا قائمتين حتى قضى عليهما البلجيكيون أثناء غزوهم للكونغو في عام 1893.

وقد وصف SIDNEY HINDE وهو طبيب كان ضمن الحملة البلجيكية التي احتلت مملكة TIPPO – TIP وعاصمتها KASONGO في عام 1893 هذه المدينة ومساكن العرب فيها بقوله: (لقد كانت كاسنقو كمدينة أحسن بكثير حتّى من (نيانقويه) تلك العاصمة الكبيرة والمعروفة منذ القدم بتجارة العبيد وخلال محاصرتنا لنيانقويه كان هناك وقت كاف لسكانها كي يأخذوا أمتعتهم معهم وكلّ ما هو ثمين لديهم، لكنّ الأمر في كاسونقو كان يختلف وذلك لأننا أسرعنا بالدّخول إلى وسط المدينة فجأة ممّا جعل كل شيء يبقى في مكانه فأستحوذت وحدتنا العسكرية على كلّ ما هو ثمين وجديد، فحتّى الجنود العاديون لدينا جدّا تسنّى لهم ان يرقدوا على أسرّة من الحرير

والقماش الرفيع، كما ان أغطيتها ضدّ الناموس والذباب كانت من الحرير كذلك، وحتّى النوافذ كان كساؤها حريرا أيضا.

إنّ الغرفة التي كانت من نصيبي بلغ طولها ثمانين قدما وعرضها خمسة عشرة قدما وينفتح بابها على حديقة من البرتقال يمتد النّظر من ورائها على مسافة تزيد عن خمسة أميال. لقد وجدنا كثيرا من المصنوعات الاوربية الرفيعة والتي فقدنا رؤيتها منذ مدّة فهناك مزاهر للشمع وهناك السكريات وهناك علب الوقيد – (الكبريت) وهناك الاواني الفضيّة وهناك انواع من الكؤوس البلورية وكلّ أنواع الموادّ المنـزلية الاخرى وتابعاتها الصغيرة بالكثرة المعتبرة والمشهودة، ولقد وجدنا المخازن في كلّ البيوت وفي جميع الاحياء مملوءة بكميّات كبيرة من الرز والقهوة والمابيس (القطانيا) والأنواع الأخرى من الأطعمة كذلك، ولقد وجدنا الحدائق في غاية الإمتاع ومغروسة كذلك غراسة جيّدة وبذوق رفيع، وهي مملوءة بأشجار البرتقال بين حلو المذاق ومرّه وبأشجار السفرجل والتفاح والرمّان والموز، وكلّها بكميّات كبيرة أينما اتّجهت، كما أن أنواع الماشية التي وجدناها في كاسونقو كانت كلّها من النّوع الرفيع، وباختصار شديد يمكنني القول انّني اندهشت وتملّكني الإعجاب على الفور بالعمل الفاخر الذي أنجزه العرب في كامل المنطقة. لقد بنيت مدينة كاسنقو في مكان يقع في منطقة عذراء، وتم تنظيف أميال من الأشجار، مما مكن من زرع أحسن أنواع الثمار، فهنالك قصب السكر وهناك الرز والقطانيا وهناك أنواع من فواكه كثيرة ومتنوعة، ولقد ركبت الحصان متتبعا امتداد أحد حقول الرز، فأخذ ذلك مني مدة ساعة ونصف بالتمام والكمال).(1)

– من الامارات العربية في الكونقو (في منطقتي كاتنقا وتانقانيكا على الخصوص) ثلاث امارات هي:

---

(1) Hinde, S.L., The Fall of The Congo arabs, London 1897.

1) إمارة محمد بن حامد (المعروف لدى الأوروبيين بـــ TIPPO –TIP) وهو عربي من زنجبار، ولد في عام 1830 وأبوه عربي ينتـــسب إلى الأســـرة الحاكمة في زنجبار، أما أمه فهي سواحلية من سكان الشرق الإفريقي، وكـــان من أوائل من أسس أمارة بحجم كبير في داخل القارة الإفريقية، ولما لاحـــظ أن الأوروبيين يريدون احتلال منطقة الكونقو بأكملها عمل ما امكنه لربط امارته بسلطنة زنجبار كما حاول الاتفاق مع الامارات العربية الاخرى في المنطقة كي تنضم لإمارة زنجبار، وكان همه أن يعترف الأوربيون بذلك ولكنهم في مـــؤتمر برلين اقتسموا افريقيا كلها بينهم و لم يعترفوا لسلطان زنجبار بسيادته على تلك المنطقة، وكانت جدة محمد بن حامد هي أخت رئيس منطقة NYAMWEZI الافريقي إلى الشرق من كاتنقا وكان له صداقة مع تلك الامارة الافريقية على الخصوص كما كان لتجارها نشاط كبير في المعاملات مع التجار العرب وقـــد تم احتلال الامارتين معا في وقت واحد من طرف البلجيك وبوحشية اثبتتـــها كل وثائق تلك الفترة، أما محمد بن حامد فقد اغتاله بالرصاص أحد الـــضباط البلجكيين في عام 1892 وعند وفاته كان لا يزال يتمتع بسمعة طيبة في المنطقة وكان تحت امرته ما يقارب الـــ 50000 بندقية مما يدل على قدراته العسكرية في المنطقة، وبعد طرد العرب من الكونقو الشرقية استعمر البلجيكيون أيـــضا أولئك السواحليين الذين كانوا في خدمة الأمراء العرب وحلفاء لهم ولا تـــزال حتى الآن اللغة السواحلية هي السائدة في شرق الكونغو، أما المـــساجد الـــتي كانت موجودة بكثرة في تلك المنطقة فقد اختفت وتم القضاء عليها بالتدريج، حيث تم تمسيح السكان بعد ذلك بكلّ إصرار.

2) امارة مصيري MSIRI وهي امارة كانت تـــشمل معظـــم وســـط وجنوب CATANGA وكان مصيري مثل محمد بن حامد يديرها بتـــساعدة عائلات عربية وسواحلية تواردت على المنطقة واكتسبت بها نفوذا وشهرة وغنى بين قبائل تلك المنطقة، ولا نعرف عن مصيري سوى أنه عربي وحاول المحافظة

على امارته كما فعل محمد بن حامد ولكن البلجيكيين عاجلوه بالغزو وقـــضوا على الوجود العربي في امارته.

3- إمارة محمد بن خلفان المدعو (روماليزا) ونفوذه الكبير في طانجانيكا

كان الإشراف الكلي على طانجنيكا ومناطقها حتى نهايات القرن التاسع عشر بيد العرب من أصل عماني، ومن أكبر الشخصيات التي تولت النفوذ في تلك المنطقة الشاسعة هو محمد بن خلفان، المدعو "روماليزا" وهي عبارة تعـــني (صاحب التنفيذ) ، وقد اكتسب الرجل هذا اللقب لما عرف عنه من أســـلوب عملي في التسيير، ذلك أن اهتمامه بالتجارة لم يكن كاهتمامه باكتساب النفوذ وإشاعة الطمأنينة والأمن لدى المتساكنين في جميع الجهات الواقعة تحت نفوذه.

وقد شكل لهذا الغرض جيشا قوامه العبيـــد الـــذين تحـــرروا كنتيجـــة لإسلامهم وكان يطلق عليهم اسم (ونقوانا WANGAWANA بالإضـــافة إلى بعض السواحلين) وكان هذا الجيش يخوض المعارك للقضاء على مثيري الشغب ولتأمين الطرق التجارية بين المراكز التجارية بالقارة في الـــداخل وصـــولا إلى الموانئ على شاطئ المحيط الهندي.

وبذلك استطاع أن يكون أمير الأمراء في منطقته الشاسعة تلـــك "دون جدال"

كتب عنه ألفرد سوان ALFRED SWAN (الـــذي كـــان في زيـــارة للمنطقة في عام 1890) ما يلي: (أن البلاد التي كـــان علـــيَّ أن أزورهـــا إلى الشمال من طانقانيكا كانت كلها تقريبا تحت نفوذ (روماليزا) وكان علي أن أحصل على موافقته وعلى رسالة تقديم منه إلى رؤساء النـــواحي، وقـــد تم لي الحصول على ذلك من طرفه، وهذا ما جعل مهمتي تتكلّل بالنجاح) "[1]

(1) Swan, ALFRED, J., Fighting the slave hunters in central Africa, London 1869

كان السلطان برقش بن سعيد هو الذي كلف محمد بن خلفان Khalfan (روماليزا) كي يكون واليا على طانجانيكا الشمالية باسمه، فقام بهذه المهمة بكل حنكة وإقدام، ووسع نفوذه ليشمل كل المناطق المحيطة بالبحيرة، واتخذ من مدينة "أوجيجي" مقرا لسكناه.

كانت هناك أعداد من المبشرين الأوروبيين قد وصلوا إلى المنطقة، وذلك قبل فرض الاستعمار الأوروبي المباشر عليها، وقد عمل محمد بن خلفان على حمايتهم وتأمين حيلتهم وإقامتهم، ولم يكن يرى في وجودهم ضررا، حيث أن فلسفته كانت تتمثل في تأمين الأمن لكل من لا يضر بالاستقرار ولا يساهم في تعكيره، ولكن البلجيك ما لبثوا أن أسسوا مستعمرهم في الكونغو بالقوة ودخلوا في معارك دون رحمة ضد العرب والسواحليين المتواجدين هناك، كما أن الألمان بدأو في التحرك العسكري باتجاه طانجانيكا، لمنافسة الإنكليز الذين كانوا قد تواجدوا قبل ذلك في الموزمبيق، فقد كانوا يعملون أيضا باتجاه التوسع في المنطقة، ويريدون استغلال الفرض المناسبة. للحصول على النصيب من ذلك، وأمام هذه الأخطار جميعا عمل محمد بن خلفان على انتهاج أسلوب سياسي باتجاه الجميع، ووصل به الحد إلى الاستجابة لطلب الألمان برفع علم بلادهم في عدد من المناطق التابعة لنفوذه، كما أنه قام بإفهام البلجيك بأنه ليس ضدهم، وفي الوقت ذاته كان يشتري ما استطاع من أنواع البنادق والبارود الذي كان التجار الأوروبيون وخاصة الإنكليز بينهم، يبيعونها مقابل الحصول على أثمانها من الأهالي ورؤساء القبائل المحليين والأمراء، الذين كانت تتوفر لديهم الأموال التي يحصلون عليها من تجارتهم المربحة في العبيد وأنياب الفيلة والبهارات.

وفي عام 1892 رأى محمد بن خلفان أن أسلوبه المسالم تجاه الأوروبيين أصبح غير مجد تماما، وأدرك أن هدفهم كان يتمثل في (القضاء نهائيا على "الحكم العربي والحكم الإفريقي"واستبدالهما بالاستعمار الأوروبي الماشر) مما جعله يدخل أحيانا في تحالفات مع بعض الولاة العرب والأمراء الافارقة في

المنطقة، ويوجه كل جهوده لمجابهة الأوروبيين بالقوة، مستعملا في ذلك كل عناصر جيشه المعروفين بـ (الونتقاوانا) والاحتياطيين لديه أيضا والذين كانوا يعرفون بـ (روقاروقا – RUGA RUGA) ودخل في معارك ضد الأوروبيين وخاصة مع البلجيك، استمرت بين عامين 1892 – 1894 ولما أعياه الأمر عاد في ذلك العام إلى الساحل، ولعله يكون قد استقر نهائيا في زنجبار حتى وفاته.

ولد محمد بن خلفان المدعو (روماليزا) أو "الجسور المنفذ" في زنجبار حوالي سنة 1850 وهو ينحدر من عائلة البرواني التي تعود أصولها إلى مدينة مسقط، عاصمة عمان الحالية، أما مولده فقد كان بمدينة مينيقو Minguio التي كانت قد انتقلت إليها عائلته قبل ولادته بعدة أجيال، وفي عام 1856 كان الأخوان برقش ومجيد ابنا سعيد سلطان زنجبار قد دخلا في خلاف على السلطة تمثل في شكل انقلاب قام به برقش ضد مجيد، ولما فشل ذلك الانقلاب قام عدد من العائلات التي ناصرت برقش بالهجرة إلى الخارج من زنجبار وكان من بينها بعض الفروع من عائلة البرواني، التي كان محمد بن خلفان أحد أولادها، ولما كبر عاد إلى زنجبار ليتم دراسته بها وذلك على أيام السلطان مجيد بالذات، الذي حكم بين عامي 1856 – 1870م ثم توظف في سلك الجمارك بزنجبار بعد أن أتم دراسته، ثم ما لبث أن عاد إلى منطقة تانقانيكا في الداخل واكتسب نفوذا كبيرا فيها.

4– سياسة محمد بن خَلْفَان وشخصيته

كان (روماليزا) يحسن للأوروبيين، الذين كانو يجيئون إليه كرحالة، أو كرجال دين، ويعاملهم معاملة حسنة، فيكرم وفادتهم، باعتبارهم مسافرين غرباء، فيستضيفهم ويزودهم برسائل إلى الأمراء وذوي النفوذ في المنطقة كي يوفروا لهم الحماية ويحيطوهم بالعناية اللازمة، وهذا في الوقت الذي كان السكان الأهالي ورؤساؤهم يكرهون الأوروبيين ولولا الحماية العربية التي كان

هؤلاء يتمتعون بها لتم الانقضاض على كل واحد منهم تطأ قدماه المنطقة في الحال، وقد قبل (روماليزا) من البعثة البلجيكية أن يكون ممثلا لها في المنطقة، حيث رأى في البداية أن ذلك مجرد وضعية شكلية لا تضر، ما دام يتمتع كما كان دائما بمكانته وأملاكه دون أي تغيير، وكذلك فعل مع الألمان فلما عرف أن كلا من الطرفين يريد احتلال البلاد واستبعاد العباد دخل في معارك طاحنة مع الألمان من جهة ومع البلجيك من جهة أخرى، وقد قام إلى جانبه الأهالي الإفريقيون والعرب ولمّا تم للأوروبيين الانتصار عليه في النهاية غادر المنطقة نهائيا إلى زنجبار.

1- في عام 1889 زاره الرحالة الفرنسي تريفييه trivier فكتب عنه ما يلي:

(بمجرد وصولي، ذهبت للسلام على روماليزا، وبعد ذلك مباشرة عبّرت له عن قلقي من شعور ومواقف الأهالي تجاهنا، لقد كان هذا السلطان إلى جانبنا، وذلك يشكل نقطة هامة جدا، ولكنه باستثناء هذا العربي، فإن معظم السكان كانوا ضد البيض بصورة عامة. إن الظروف كانت دون شك باتجاه التمييز بين الفرنسيين وبقية الأوروربيين...

...ولقد اقتنعت بأنه لو كنا ألمانا بدل أن نكون فرنسيين لتم القضاء علينا بمجرد وصولنا إلى أوجيجي، وهذا على الأقل ما فهمته من حديث روماليزا معنا... ان روماليزا هو صاحب السيادة الحقيقة والوحيدة على أوجيجي والمناطق التابعة لها... لقد كان هذا (الروماليزا) في حوالي 43 سنة من العمر، وهو رجل معتدل القامة وليس طويلا، ووجهه عليه علامات لإصابة قديمة بالجدري، ذلك المرض الشائع بين سكان المنطقة الاستوائية، وهو ينتسب إلى الجنس الذي يقال عن نسبتهم بأنهم (العرب البيض) إلا أن هذا يجب أن يفهم أنه بياض نسبي)، ويستطرد تريفييه في حديثه عن محمد بن خلفان (روماليزا) قائلا:

(لقد كان في حديثه منبسطا معي وأحيانا كان يبتسم، ولكنه مع المحيطين به كان متشددا بدرجة كبيرة ولا يتلقون منه إلا الأوامر مثـــل (اذهب أنت إلى مكان كذا، وأذهب أنت إلى عمل كـــذا) ، وكـــل واحد كان يذهب بعد ذلك مباشرة إلى تنفيذ الأوامر التي تعطـــى لـــه دون نقاش ولا تأخير، وهو لا يفتأيتنقل من مكان لآخر متفقدا ومعاينا لما يكون يلزم الأماكن من أعمال يكون قد أمـــر بإنجازها، وهذا مـــا أعطاه بصدق ذلك المعنى الكامن في تلقيبه بـــ ((رومـــاليزا))، ورغـــم تشدده في الأوامر وقساواته، فإن كل واحـــد في منطقـــة أوجيجـــي وكذلك في المناطق المجاورة لها متفـــق علـــى أن (رومـــاليزا) عـــادل ومنصف).

2- وفي عام 1892 قابل ليونال ديكل LIONEL DECLE رومـــاليزا فكتب ما يلي:

(... جاء روماليزا لابسا ثيابا بيضاء من الـــرأس إلى القـــدمين وطولـــه يتجاوز المتوسط، ورغم أن شعر لحيته كان غير منتظم، ووجهه يحمل علامات إصابة خفيفة بالجدري فإن قوامه العام كان جيدا).

3- وفي عام 1890 كتب الرحالة الفرد ســـوان ALFORD SWAN عن تيبويب وروماليزا ما يلي

(ان العرب هم السادة الحقيقيون لمدينة أوجيجي، وذلك بالرغم مـــن أن هناك رئيسا من الأهالي له السيادة الاسمية فقط. ان الأكثرية من العرب هنـــاك هم الأكثر غنى والأكثر قوة، وهم يشرفون على تنظيم وتسيير ونقل البـــضائع التي هي العاج والعبيد القادمة من جهة الغـــرب، إن تيبوتيـــب TIPO – TIP الشهير وشريكه روماليزا لهما مساكنهما في المدينة، ويأتي نفوذ روماليزا مباشرة بعد تيبوتيب وليست هاتان التسميتان هما تسمياتهما الحقيقيتـــان، ولكنـــهما التسميتان اللتان يعرفان بهما في الداخل، وهي بمثابة أسمـــاء حربيـــة، فكلمـــة

روماليزا تعني (ذلك الذي ينجز)، وطبيعة هذا الرجل تختلف تماما عن طبيعة تيبوتيب، فهو عربي صميم، له شخصية هادئة، وهو مثقف وأريحي، وقد أظهر مرارا حسن اللياقة فيما يتصل بعلاقاته معنا...

ان البلاد التي كان علي أن أزورها إلى الشمال من تانكانيكا كانت بصورة عامة تحت نفوذ روماليزا، وكان علي أن أحصل منه على موافقته وأن أحمل رسالة تقديم منه إلى رؤسائها المحليين، وقد كان لي الحظ أن أحصل على ذلك منه).

4- وفي عام 1879 كان إدوارد هور ADWARD HORE وهو راهب ومبشر انكليزي، عاش أحد عشرة سنة ضمن أفراد البعثة التبشيرية الإنكليزية في إقليم تانجانيكا الواقعة تحت نفوذ روماليزا، وكان هذا الأخير يعامل المبشرين بالحسنة وقد وصف (هور) فترة لقائه مع روماليزا حينما كان في استضافته بما يلي:

(جاءنا خُدّام محمد بن خلفان على الساعة التاسعة فقادونا إلى منزله..، حيث أنه كان قد دعانا بصورة خاصة لتناول فطور الصباح ومعاينة القارب الذي كان يريد صنعه، فوجدنا وجبة ممتازة في انتظارنا، وكل ذلك على منضدة وكراسي تم تنظيمها للمناسبة، وبعد ذلك جُلب التصميم وتمت مناقشته، وفي الأخير ذهبنا لمعاينة ذلك القارب بالذات، الذي كان بناؤه قد وصل إلى وضعية متقدمة من حيث التطور، وهذا قياسا إلى نوعية القوارب التي كانت تصنع هنا (وفي السابق) ، ويستطرد (هور) في الحديث عن شخصية محمد بن خَلْفَان كما يلي:

(إن هذا العربي محمد بن خلفان، كان من أول اتصالاتنا به هو الأكثر لياقة وكرما بالنسبة لنا، ذلك أنه كان رجلا مثقفا ومتفتحا، كما أنه كان متحررا كثيرا عن تلك النقائص التي نجدها عادة لدى الهجناء METRS ولدى الناس الآخرين الذين لم يتسن لهم أبدا رؤية العالم الخارجي من قبل، فهو يعطي

أهمية خاصة لبعض الخصائص المتعلقة بالْبِنْيَات البحرية وكذلك الأشغال الصناعية، والتي يبدو عليه من خلالها توفّره على روح المبادرة والتصنيع الخلاق... ويذكر هنا أنه في إحدى المناسبات التي تعرضنا فيها للخطر في أوجيجي، قام هذا الرجل بتقديم أجَلّ المساعدة لإنقاذنا، وأظهر لنا صداقته الكبيرة برد الأذى عنا الذي قام به ضدنا نحن الأوروبيين، أهالي أوجيجي)

5- الأوروبيون جاءوا إلى المنطقة في أول الأمر مسالمين، سواء كانوا رحالة مكتشفين أو رجال دين مبشرين، فأكرمهم العرب وساعدوهم في مهماتهم، ولكنهم في الأخير تحولوا إلى مستعمرين بالقوة، لقد عبّر فعبر محمد بن خليفان عن خيبة الأمل وصرح لألفرد سوان عن المرارة التي يشعر بها من ذلك التصرف الفظيع للأروبيين تجاه العرب والأفارقة عموما، وقد كان ذلك في عام 1892 وهو يخوض المعارك ضد البلجيكيين، تلك المعارك التي استمرت حتى عام 1894، ومما نقله عنه سوان في هذا الصدد ما يلي:

(بما أنه كان لي بعض العمل لأنجزه في أوجيجي، فقد أديت زيارة إلى روماليزا، فأخبرني في الحال بأن المعارك قد ابتدأت على الضفة الغربية من البحيرة (تانقانيكا) وأوضح لي الوضعية كما يلي إنكم وكذلك الأوروبيون الآخرون قد قدمتم كلكم إلى هنا وبأيديكم رسائل تقديم وتوصية، وقد قدمتم عن طريق الشاطئ (زنجبار) فاحترمنا حاملي تلك الرسائل ولم نصبهم بأي آذى، والآن فإن المواطنين البلجيك جاءوا، وأول ما آثار استغرابنا أن أول شيء قاموا به هو القيام بمهاجمة مراكزنا الحدودية، وإعلانهم امتلاك هذه البلاد كلها)، ويضيف محمد بن خلفان في حديثه هذا لـ (أسوان): (وبالأمس، تناهى إلينا أن هناك معركة انتصر فيها رجالنا، وإنا لنأسف أنه حصل هناك قتل احد الأوروبيين وأن رجال مانييما MANIEMA الذين كما تعرف عنهم أنت شخصيا هم متوحشون يكونون قد قاموا باقتطاع جزء من جسم ذلك الأوروبي، فشَوَوْهُ... وأكلوه).

6- وعن نتائج تلك المعارك التي خاضها محمد بن خلفان وأنصاره من عرب وأهالي ضد الاحتلال الأوروبي في منطقة الكونغو والبحيرات، كتب الألماني فون قوتزن VON GOTZEN في عام 1895 ما يلي:

(... كانت مختلف القطاعات التابعة لقوات دولة الكونغو (البلجيكية) متوزعة في هذا الإقليم الشاسع، تعمل متضامنة للهدف الواحد بذكاء وسعادة، ثم إنها ركزت في النهاية على النقاط الأكثر أهمية والمتمثلة حتى ذلك الوقت في الجهات التي كانت تحت مراقبة العرب، أي كاسونقو CASONGO ونيانقوي NYANGWE وهنا ظهر أمامها من جديد معارض شديد المراس تمثل في شخصية محمد بن خلفان المعروف باسم (رومااليزا) والذي كان نفوذه في تلك المناطق الواقعة إلى الجنوب الشرقي من الكونقو وعلى شواطئ تانقانيكا، وقد تمت الإشارة في السابق إلى هذا العربي الذي كان قد قام أيضا ومعه قوات هائلة بمحاولة وضع ساقه في رواندا، وذكرنا كيف أقدم على ذلك التوسع بواسطة المعارك وغيرها من المحاولات، وما هو ثابت لدينا أنه وصل إلى بحيرة كيفو KIVO وأن ملك رواندا المدعو روابوجيري RWABUGIRI يكون قد تلقى منه هدايا قيمة، ولكنه قد استطاع في الأخير التخلص من هذا الضيف الثقيل... وفيما يخص مشاريعه للاستلاء على مناطق مانييما MANIEMA أي البلاد الممتدة بين الكونغو الأعلى وبحيرة تنقانيكا، فإنه قد تلقى مساعدة ذات فاعلية من طرف الرؤساء العرب الهامين والقادرين على المقاومة مثل سشيفو، وبانا نزيجي، ورشيد وموسوبحيلا وغيرهم، وهم أولئك الذين كان يرى فيهم رجالا ذوي أهمية، ويرون فيه ذلك الرجل القادر على اقتحام المصاعب والنجاح فيها)، ويستطرد فون فوتزن متحدثا عن سلوك وسياسة رُومَالِيزَا بما يلي:

(ولمحمد بن خلفان، هذا سياسته الخاصة التي يستعملها وتسبب الكثير من القلق لرجال البعثة الثانية لحكومة الكونغو (البلجيكية)، ونتيجة لذلك فإنه في المعارك التي دارت في 13 أكتوبر 1893 ونهاية شهر مارس من العام الموالي،

منذ رحيل الوحدات التي كان يقودهـــا كـــل مـــن داني DANIS وبونتييـــه PONTHIER حتّى حين وصولهم إلى مشارف تانقانيكا، فقد كان عليهم أن يستولوا على مواقع محصنة، ذلك أن العرب كانوا يتوفرون في كل مكان على قلاع شديدة التحصين والحماية، تسمى كل واحدة منها بوما BOMA وتدل إقامة تلك الحصون على عبقريتهم التي لا يمكن إنكارها في خصوص ذلك النوع الذي لديهم من التحصين.. ولكنه في مستهل سنة 1894 تمكن الكابتن لـــوثير LOUTHAIRE من محاصرة واحتلال الحصن الذي كان فيـــه رومـــاليزا، ثم استولى بعد ذلك تباعا علـــى حـــصون كـــل مـــن كينومبـــا KITUMBA وبوانا BWANA وكبامبر KABAMBER فسقطت جميعا لـــصالح حكومـــة الكونغو (البلجيكية) ويرجع الفضل في ذلك إلى مدافع كروب KRUPP الـــتي تستعملها الوحدات البلجيكية، أما روماليزا وبوانا نزيجي، فقـــد تمكنـــا مـــن الهروب).

5– محمد بن خلفان وتيبونيب والبلجيكيون

جوبه البلجيكيون أثناء إحتلالهم للكونغو وطردهم العرب منها وكذلك حلفاء العرب وأنصارهم في تلك البلاد، بمقاومة قوية كان أبرز الزعماء فيها هو محمد بن خلفان المدعو روماليزا، (ففي عام 1869 كان رئيس الزنجباريين مـــن عرب وسواحيليين في أوجيجي هـــو موينيوكايـــا MWENYEMOKAAIA الملقب بـــ (كاتُمبا KATOMBA، وقد خلفه بعد ذلك بعدد من السنين في هذا المنصب أخوه (موينيهيري MWENYEHERI والملقـــب بـــ الغـــشاني EL GSHANI وفي عام 1881 قبل هذا الأخير من سيد بـــرقش ســـلطان زنجبار تعيينه واليا على أوجيجي، ومن خلال هذا المركز الهام لـــ (أوجيجي) لدى السلطان انتقلت تلك الرئاسة إلى (روماليزا) محمد بن خلفان.

ويبدوا أنه في عام 1881 يكون روماليزا قد التقـــى ولأول مـــرة بـــــ (تيبوتيبTIPO— TIP) الرئيس القوي لمنطقة مانييما MANIEMA حينما كان

آنذاك في طريقه إلى زنجبار مدعوا من السلطان سيد برقش، وأثناء ذلك اللقاء علم تبوتيب من روماليزا أن إحدى زوجاته، وهي (بنت سليم بن عبد الله البروانية) من أقربائه ومن ذلك الحين توطدت العلاقة بين الرجلين وتعاونا معا في مهمات ومعارك عديدة.

استضاف روماليزا تيبوتيب، وعند مغادرته أوجيجي استودع لديه نصف ما يملكه من العاج وهو مائة فرازيلا (أكثر من 1500 كغ) لأن طريق TABORA غير آمن، حيث أن قافلة (سلّوم بن عبد الله المرجبي) كانت لتوها قد هوجمت في المنطقة المسماة رواندا عند آخر حدود أوجيجي، ورافق ذلك إحراق خمس عشرة قرية أثناء تلك المعارك.

وقبل مغادرة تيبوتيب طلب منه محمد بن خلفان مساعدته كي يذهب لمقاتلة سكان UVINZA أوفنزا وَ MASANZA ماسنزا فوضع تحت تصرفه عشرين ونقوانا WANGWANA تم تجنيدهم من ناحية مريما MARIMA وأكثر من مائة وأربعين بندقية، وبعد معركة (روماليزا) ضد ماسنزا التحق بتيبوتيب في تابورا، وهجما معا على أوفيزا وحصلا على غنيمة هامة بعد أن قتلا رئيس البلاد KASNURA كازنورا، ثم عادا معا إلى أوجيجي، وبعد وصول تيبوتيب إلى زنجبار لاحظ أنه لا يوجد هناك بها من التجار من له ثقة في روماليزا وبصورة أساسية شريكهً علي بن عيسى الذي صرح له بقوله (لن أعطي بعد اليوم البضائع إلى محمد لأنه ليس له رأس في الأعمال التّجارية)، وعند عودة تيبوتيب إلى أوجيجي في بداية عام 1884. أصبح روماليزا ذلك الرجل الذي يحسب له حساب، ذلك أنه ادعى أن السيّد برقش يكون قد أعطاه كل المنطقة الغربية لتانقانيكا، ويبدو أن ذلك كان صحيحا.

ونعرف أنه أثناء إقامة تيبوتيب في زنجبار عام 1882 طلب منه السلطان برقش أن يكون واليا له على UNYANYAMBE أونيانيمبي وأعطاه في الوقت

ذاته ممثل الجمعية الدولية الإفريقية في زنجبار الكـــابتن كاميـــه CAMBIER أن يصبح نائبا لليوبولد الثاني في منطقة نفوذه في أعَالي الكونغو، وقد قبل تيبوتيب ما أعطاه برقش، وبمجر دعوته إلى كاسو نقو KASONGO شرع في العمل باســـم السلطان برقش، على توسيع مجالات نفوذه في منطقة الكونغو وتدعيم حكمه بها.

لقد كان أيضا على روماليزا، التابع لتيبوتيب أن يقترح خدماتـــه علـــى برقش، وأعطاه هذا الأخير مهمة فتح كل الشمال من تنقانيكا، وبدون شـــك فإن برقش هو الذي زوده بكل الأدوات الضرورية لذلك من بنادق وذخـــائر وكذلك النقود التي استطاع بواسطتها أن يجند في تابورا خمسين محاربا إضـــافيا (RUGA RUGO روقا روقا) وبمجرد العودة إلى أوجيجي شرع رومـــاليزا في العمل، ومنذ عام 1884 أصبح الرئيس الحقيقي لـــــ UBWARI أوبـــواري وMASANZA ماسنـــزا، كما ذكر الأب DROMAUX درومو الذي كان آنذاك مبشرا في ماسنـــزا، قائلا: (ان محمد بن خلفان هو رئيس المنقوانا لـــــ CHUNIU شونيو، وقد حمل معه من الشاطئ كثيرا من البنـــادق والـــذخيرة وزيادة على عبيده فقد أدخل وهو في طابورة خمسين روقا روقا، وهو يريد أن يفتح إلى الشمال من البحيرة طريقا جديدا ليتصل من خلاله بما فيما تيبوتيـــب الذي هو من جماعته... وهو يأخذ الضرائب من السكان الأوبواري وماسنـــزا البسطاء والذين أعطاه سيد برقش كما يدعي الحكومة عليهم).

– وفي شهر سبتمبر 1884 أصبح روماليزا سيد كل المنـــاطق المحيطـــة بتانجانيكا ووصل نقوذه إلى رواندا وصار أهم الرؤساء العـــرب في ا لمنطقـــة، وأكثر أهمية حتى بالمقارنة مع تيبوتيب... واعتبارا من عام 1888 عمل روماليزا على حماية رجال البعثات التبشيرية الأوروبيين... وكان همه أن يحـــصل علـــى صداقة الأوروبيين سواء كانوا انكليز أو فرنسيين أو ألمان، وذلك لعله يـــستفيد من تلك العلاقة بهم ضد البلجيك ذوي (دولة الكونغو) الذي كام يعتبرهم ألد الأعداء، وقد استفاد من ذلك فعلا لعدة سنوات، حيث استطاع أن يـــستعمل تلك المفارقات بينهم لصالحه لعدة سنوات، ولكنه أضطر في الأخير أن يدخل في

حرب شاملة مع البلجيك، وكانت معاركه معهم في البداية لصالحه، ولكنها في الأخير انتهت بالخيبة، فقد حارب في جهات عديدة مدافعا عن تيبوتيب وعن أملاك العرب في مانيما وفي طانقانيكا وكان السواحليون إلى جانبه لأنهم زنجباريون أيضا، كما كان العرب أيضا، إلا أن الأسلحة لم تكن متكافئة وقد بدأت المعارك بين الجانبين في عام 1890 وانتهت في عام 1894.

لقد كانت المعارك الأولى لصالح العرب وحلفائهم في المنطقة، وذلك لأن الطرفين كانوا خلالها يستعملون الأسلحة الخفيفة أي البنادق فقط، كما أن العرب كانوا قد أقاموا وهم يواجهون الاحتلال، استحكامات في شكل قلاع صعب على عساكر المهاجمين البلجيك النفاذ إليها، أما في المعارك الأخيرة فقد عمد البلجيكيون إلى استعمال المدافع الثقيلة التي لم يكن العرب وخلفاؤهم يتوفرون على أية عينة منها، وهذا ما أدى إلى انتصار البلجيك فاحتلوا كامل المنطقة بعد أن تمكنوا من نسف تلك التحصينات التي كانت عائقا قويا في طريقهم، وقد رافق الاحتلال البلجيكي للمنطقة ضروب من الوحشية تحدث عنها المؤرخون بكثافة وذلك موضوع آخر، وقد استطاع محمد بن خلفان الإفلات من قبضة الجيش البلجيكي، فغادر إلى زنجبار ولم يتمكن البلجيكيون من اغتياله كما كانوا قد فعلوا بمحمد بن حامد (تيبوتيب) عام 1982.

6- العلاقات المتواصلة بين العرب المسلمين وشعوب الوسط والغرب الإفريقيين جنوب الصحراء:

اثبتت لنا كتب الرحّالة والمؤرخين والجغرافيين العرب خلال العصر الوسيط وما بعده حتى وصول الأوروبيين إلى داخل القارة في القرن التاسع عشر أنّ الغرب والوسط الإفريقيين إلى الشمال من خط الإستواء بصورة خاصة، قد أصبحا امتداد للعالم العربي الإسلامي، وجزء منه فقد وصل الإسلام إلى غرب إفريقيا في وقت متقدم وذلك نتيجة للعلاقات المتواصلة منذ القديم على ما يبدو بين شعوب مصر وبلدان المغرب العربي من ناحية والبلدان الإفريقية إلى الجنوب من الصحراء الكبرى من ناحية أخرى، فقد ذكر ابن عبد الحكم في "فتوح مصر

أن عقبة بن نافع الفهري يكون قد أرسل وهو في منطقة برقة مفرزة استكشافية من جيشه باتّجاه الجنوب وصلت إلى المناطق الجبلية واتصلت بالسكان، وقد حقق الأستاذ برونشويك BRONSCHWICK فأثبت في أبحاثه أن تلك المنطقة هي جبال (الطومو) في جمهورية النيجر الحالية فإذا صحت هذه الرواية يكون الإسلام قد وصل إلى الجنوب من الصحراء مع بدايات وصوله إلى بلدان المغرب العربي، كما ذكر ابن الحكم أيضا أن عبيد الله حبيب الفهري يكون قد وصل إلى المحيط مجتازا بلاد السوس في منطقة شمال الصحراء، غير أن هناك هجرة عربية من المشرق هي هجرة قبائل الشوا التي استقرت في مناطق تشاد – بورنو واختلطت بالسكان ولا نعرف تاريخ انتقال عرب الشوا إلى افريقيا جنوب الصحراء غير أنه من المؤكد أن تكون هجرتهم هذه قد تمّت خلال العصر الوسيط لأنهم كانوا مسلمين، كما لا نعرف الطريق الذي سلكوه في هجرتهم حتى استقر بهم المقام في وسط إفريقيا ولا نعرف كذلك من أي منطقة في بلاد العرب يكونون قد هاجروا منها غير أن المرجح هو أن طريق باب المندب ومن الجزيرة العربية (من شمالها أو من جنوبها) تكون هجرتهم الأولى قد انطلقت.

إنّ شعوب الغرب والوسط الإفريقيين إلى الجنوب من الصحراء أخذت بالإسلام وامتزجت بالعالم العربي الإسلامي إلى حد كبير، وقد تمثل ذلك بصورة خاصة في تلك المراكز الإسلامية الكبرى في المدن والحواضر السودانية مثل تمبكتو وجنّي وسوقوطو وغيرها التي تكاثر طلابها طيلة العصر الوسيط والعصر الحديث حتى مجيئ الفرنسيين والأنقليز مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وفي القرنين الثامن عشر والتاسع عشر قام السودانيون في الغرب والوسط الإفريقيين بحركات جهادية عديدة كانت أهدافها المعلنة دائما هي نشر الإسلام في المناطق الإستوائية والمدارية التي كانت لا تزال تدين بالوثنية من ناحية وإصلاح حال المسلمين والعمل على تمكينهم من الدين الإسلامي بالشكل الصحيح في المناطق المسلمة من ناحية أخرى، وقد تشكلت في الغرب والوسط الإفريقيين دول عديدة بلغت من التوسع حدّا كبيرا في بعض الأحيان

مما دفع ببعض المؤلفين إلى اعتبارها إمبراطوريات، وقد كان أمراؤها ورجالها يعتبرون الطريقة العربية الإسلامية في الحكم هي هدفهم ومبتغاهم، ومن أهمّ تلك الدول مملكة مالي ومملكة سنغاي ومملكة الكانم برونو وكذلك مملكة سوقطو التي أسسها آل فودي بحركتهم الجهادية[1] وهي في هذا المجال تختلف عن تلك الدول الصغيرة التي قامت في الشرق الإفريقي.

كانت قوافل الحج التي كانت تنتظم انطلاقا من بلدان الغرب والوسط الإفريقيين تمثل تقليدا دأب على مُرَاعاته السلاطين والأمراء وكانوا ينفقون أموالا كبيرة جدا حتى إن أحد سلاطين مالي وهو منسي موسى تسبب في سقوط قيمة الذهب أثناء مروره بالقاهرة في طريقه إلى الحج .بمقدار 6% وذلك لكثرة ما كان ينفق هو ومرافقوه الكثيرون من ذهب كثير كانوا قد جلبوه معهم للإنفاق والصدقات.

كانت القوافل التجارية الكبرى تجهز من مصر وبلدان المغرب العربي باتجاه المغرب العربي باتجاه الوسط والغرب الإفريقيين صيفا وشتاء محملة .بمختلف البضائع وكان يرافقها طلاب العلم والعلماء وكذلك الحجاج في كلا الاتجاهين وكانت تنطلق بعد تنظيم محكم من تلك المدن الواقعة على حافة الصحراء في الشمال وهي زاويلة وغدامس في الشرق ثمّ تقرت وورقلة وتمنطيط (توات) وسجلماسة في الوسط والغرب، أما وسائل النقل لهذه القوافل فكانت الجمال التي بلغ عدد جمال تلك القوافل في السنة الواحدة والتي تنطلق من مدينة ورقلة وحدها على أيام العلامــة ابن خلــدون اثني عشر ألف جمل، وكان لهذه القوافل تقاليدها في السير والحراسة وعند وصولهــا إلى بلــدان

---

(1) للتعرف على الممالك الإسلامية الكبيرة في الغرب والوسط الإفريقيين يراجع كتابنا (مملكة سنغاي في عهد الأسقيين)، طبعة الجزائر 1974) فهناك خلاصة مختصرة عنها في بدايات الكتاب..

السوادين كانت تحظى باستقبالات حافلة من طرف الرسميين وغير الرسميين، وقد شاع في أوروبا آنذاك خبر الخيرات الكثيرة المتبادلة بين العرب والأفارقة إلى الجنوب من الصحراء وكان ذلك من جملة العوامل الباعثة لدى الأوروبيين على البداية بالإستكشافات الجغرافية، وقد أخذوا بطريق المحيط نظرا لصعوبة الصحراء و وجود بلاد المسلمين كعائق في الطريق أمامهم ثم للتحسن الحاصل لديهم في السفن الشراعية العريضة والمعروفة بالكرافال، ويذكر هنا بصورة خاصة ما فعلته جمهورية جنوا الإيطالية في تموين رحلة أحد رجالها وهو (مالفانت) الذي تمكن من الوصول إلى مشارف الصحراء في تمنطيط (توات) عام 1493 بقصد الإطلاع في عين المكان على قوافل التجارة من إحدى منطلقاتها الكبرى ومعرفة البضائع المتبادلة ونوعيتها، وما كان يعطيه من الأرباح ذلك التبادل المستمر بين العرب والأفارقة إلى الجنوب من الصحراء، ولقد كان يسبق كل قافلة مخبرون وقت وصولها فيستعد التجار المحليون وكذلك العامة لذلك ويأتي التجار الجنوبيون من مناطق عديدة وخاصة سكان المناطق الغابية ببضائعهم التي يشتريها منهم رجال القوافل التجارية، وبهذه الطريقة فقد كان هناك تواصل كبير لبلدان الغرب والوسط الإفريقيين مع بلدان العالم الإسلامي الأخرى مما جعل الكثيرين من المؤرخين. والجغرافيين والرحالة، حتى أولائك الذين لم يزوروا تلك البلدان، يتحدثون عنها كجزء من مملكة الإسلام، ونجد لذلك مثلا لدى البيروني حوالي سنة 420 هـ والمقدسي في عام 375 هـ وقبلهما ابن خرداذبة المتوفى عام 300 هـ والإدريسي المتوفى عام 560 هـ ومحمد بن سعيد الأندلسي المتوفى عام 610 هـ والقزويني المتوفى عام 610 هـ والقزويني الأخر المتوفى عام 682 هـ وكذلك فعل اليعقوبي (توفى عام 897 هـ). وياقوت الحموي (توفي عام 1128م) وأبو فداء (توفي عام 1331م) وأحمد بن فضل العمري (توفي عام 1398 م) والمقريزي تقي الدين (توفي عام 1442 م) والقلقشندي أحمد (توفي في عام 1418 م) ، وغيرهم.

إن ما كتبه هؤلاء الإعلام وغيرهم في هذا الصدد كثيرًا ما جاء متشابها إلى حد كبير، غير أن هناك مجموعة استطاع كل واحد منهم أن تكون له إضافته الخاصة به، وفي الفصل الموالي متابعة متأنية لمساهمة كل واحد منهم في هذا الصدد مع ترجمة مختصرة لحياته وإعطاء فكرة عن تراثه خاصة فيما يتعلق بإفريقيا جنوب الصحراء.

بعض المراجع المختارة للمزيد من الإطلاع حول محتوى هذا الفصل

- إبراهيم حسن، انتشار الاسلام في القارة الإفريقية، (ط2) القاهرة 1964.
- عبد القادر زبادية، الحضارة العربية والتأثير الأوروبي في أفريقيا الغربية جنوب الصحراء – الجزائر 1989.
- الألوري آدم – موجز تاريخ نيجيريا – بيروت 1965.

1- HISHKETT, M., the development of islam in west africa, london 1984.

2- NURSE, D. ET al. THE swahili, philadelphia, 1985.

3- ADAMS, W.Y., Nubia : corridor to Africa, London 1997.

4- FREEMAN – GRENCILLE (ed) , the east Africa coast, selected documents, oxford 1962.

5- CHAMI., the TANZIAN coast in the millennium, AD UPPSALA, 1994.

6- CHEIKH ANTA DIOP, l'afrique pré-coloniale, paris 1960 HINDE, S.L, the FALL of the congo arabs, london 1897.

7- ROBINSON, D., “ the islamic revolution of futa toro ” :

Internationa Journal of African historial studies, 1975.

8- MUNGO PARK, voyage dans l'intérieur de l'afrique, 1995 – 1997. Paris, 1800, vol. II.

9- الشيخ موسى كامارا – زهور البساتين. (Fon camera, Ifan, 275 ff

الفصل الثالث

المؤلّفون وآثارهم

قائمة بالمترجم لهم ولآثارهم
– طبقا للترتيب الموالي–

1- محمد صامبا مُومْـــبـِـيَا - 1765 – 1852
2- أبو بكر الصديق – 1790 – 1860
3- (الأمَامِي) عبد القادر – 1807 (نهاية دولته)
4- ساموري توري – 1830 – 1900
5- محمد اليفرني (أبو عبد الله) – 1669 – 1744
6- عثمان بن فودي – 1754 – 1817
7- عبد الله بن فودي – ت. حوالي 1830
8- بيلو محمد بن عثمان. ت. 1838
9- أحمدو لوبو الماسيني – 1775 – 1844
10- الحاج عمر الفوتي التيجاني – 1794 – 1864
11- أحمد البكاي الكنتي – ت – 1866
12- الكانمي محمد الأمين – ت 1846
13- السّلاوي الناصري – 1835 – 1897
14- ابن بطوطة شمس الدين – 1304 – 1377
15- السّعدي عبد الرحمان 1004 – 1655

16- ابن ماجد شهاب الدين أحمد – ت 1498

17- كعت القاضي محمد بن محمود – ت 1593

18- أحمد بابا التّمبكتي – 1556 – 1627

19- محمد بن عبد الكريم المغيلي – ت 909 هـ

20- الحسن الوزان الزياتي 1489 – 1552

21- ابن حوقل – توفي 977 هـ

22- الاصطخري ت. حوالي 1094م

23- البكري أبو عبد الله ت. حوالي 1094م

24- أبو الحسن بن سعيد 1214 – 1286م

25- الحمْيَري ابن عبد المنعم توفي في عام 727 هـ

26- المسعودي – توفي عام 346 هـ - 956م

27- الشريف الإدريسي 1100 – 1166م

28- القزويني – 1203 – 1283م

29- العمري، شهاب الدين أبو العبّاس 1301 – 1349م

30- أبو الفداء – 1237 – 1331م

31- ابن خلدون – 1332 – 1406م

32- المقريزي – 766 – 845 هـ

33- القلقسندي أبو العباس (ت عام 1418م)

34- إدريس علومة، أمير بورنو – كانم بين 1565 – 1595

35- الامينو كال كعوة

36- ممادو (محمد) لمين دراري

37- الشيخ عبد الكريم، مؤسس سلطنة وَضّايْ الإسلامية

38- أمادو (أحمد) دان ياسا

39- البوشيري

40- رابح فضل الله

محمد صامبا مومبيا
(1765 – 1852م)

هو الشيخ محمد صامبا الفولاني، نسبة إلى قبائل الفولان الذين كان لهم دورهم الكبير في نشر الإسلام في كلّ من إفريقيا الغربية وافريقيا الوسطى كذلك، ذلك أنّ قبائل الفولان يتوزّعون في كثير من البلدان الإفريقية حتى الآن، فهم موجودون في السنغال وفي الكمرون وفي مالي وفي نيجيريا الشمالية، كما أنّ هناك فروعا صغيرة لهم في كثير من البلدان الافريقية الأخرى كتشاد والنيجر وساحل العاج، ويقال أنّ أصلهم من السينغال الأعلى، وبما أنّ مهنة الرعي كانت في القديم هي السائدة لديهم، فقد انتشروا في عديد من المناطق، ثمّ أضافوا إلى هاته المهنة الأساسية مزاولة التجارة كلّما استقرّ بهم المقام في المناطق الحضرية.

وقد عرف الشيخ محمد صامبا بعالم زمانه، ذلك أنه كان ينكر على بعض منتسبي العلم في زمانه إدعاءهم المعرفة وتضليلهم للعامّة، لأنّه كان يرى لديهم نقصا كبيرا في معرفتهم للغة العربية، ومع ذلك فإنهم كانوا يفتون للناس ويرشدون بناء على كونهم علماء يؤدون مهمّتهم كفقهاء عارفين في أمور الدّين، ولذلك فقد كانوا يرتكبون أغلاطا كثيرة لجهلهم وغير مبالين، وقد تصدّى محمد صامبا للتنديد بهؤلاء الجهلاء المتفقهين، كما كان يسمّيهم، وكان ينبّه الناس ويلفت نظرهم للإبتعاد عنهم وعدم تصديقهم فيما يدّعون.

ولد محمد صامبا في منطقة فوتاجالون بجمهورية غينيا الحالية من عائلة تورات أفرادها الوجاهة في بيئتهم، وذلك عام 1765م في قرية (مُومبيا) الواقعة في محافظة (لابي) حاليا، وكانت عائلته غنية مما مكنه من التفرغ للعلم والتحصيل وهو صغير السنّ نسبيا، ثمّ تصدى لدراسة علوم النحو والتوحيد

والفقه والإلمام الكامل بأهمّ المؤلفات المعروفة حولها، وبعد ذلك تفرّغ للمؤلفات الكبيرة في ميدان التفسير، فأحاط بها جميعا بقدر ما استطاع.

وقد أخذ محمد صامبا في سنواته الأولى عن أبيه الذي كان بدوره مثقفا، ثمّ بدأ بعد ذلك في التّرحال، فزار كثيرا من العلماء في منطقة غينيا و مالي والسينغال حاليا، وأخذ عنهم، ولكنه كان في كثير من الأحيان يصطدم بما يراه لدى البعض منهم من حوض في المسائل غير مستقيم، وذلك لعدم تمكّن أولئك البعض من الجانب اللغوي فيما قرأوه حول المسألة المعينة في حينه، فيفهمونها أو يفهمون جانبا منها فهما غير دقيق، فيجادلهم بجرأة سواء كان ذلك أمام العامّة أو أمام طلبة العلم.

ولقد كانت ولا تزال لدى مسلّمي إفريقيا جنوب الصحراء ظاهرة الإيمان بالأولياء والصالحين وما ينتج عن ذلك من مبالغات تتجاوز الحدود أحيانا لتدخل في محيط الشعوذة أو ما يشابهها، ويعود ذلك على الأكثر إلى أنّ الإسلام كان قد وصل إلى المنطقة بواسطة الطرق الصوفية التي كانت الطريقة القادرية هي الأولى انتشارا بها ثمّ تبعتها الطريقتان التيجانية والسنوسية بعد ذلك، كما أن ظاهرة السحر التي كانت من تأثير الوثنية السابقة أيضا بقي لها تأثيرها هي الأخرى، فالمتتبّع مثلا لكتابات علماء المنطقة الكبار من أمثال أحمد بابا التّمبكتي ومحمد كعت المعروف بالقاضي وكذلك المؤرخ والمفتي عبد الرحمان السعدي وغيرهم يجد من الإيمان بالغيبيات وبالأولياء الشيء الكثير، مما قد لا نجد له مثيلا أو بهذا القدر في بقية أرجاء العالم الإسلامي الأخرى.

وفي هذا المجال نجد لدى محمد صامبا مومبيا اجتهاده الخاص حول هذا الموضوع، فقد ذهب إلى أنّ هناك ظاهرا للقرآن الكريم، يمكن لكلّ المسلمين من عامّة وخاصة إدراكه وفهمه، وبذلك يكون بينهم اتفاق كامل على المدلول الظاهري للقرآن الكريم، وهناك معنى باطني هو الأعمق، لا يمكن للعامة إدراكه

والوصول إلى فهمه، وهذا المعنى الباطني يفهمه فقط أهل الذكر من المستعمقين في العلم والموهوبين، وهذا المعنى الباطني هو هبة من الله تعالى للخاصة من الناس فقط.

- لا شكّ أن هذا التنظير لدى الشيخ محمد صامبا مومبيا هو معالجة أو مواجهة لظاهرة الإيمان بالغيبيات وبالأولياء كما كانت في زمانه متفشّية لدى الناس في بلاده، وقد أعطاها هو نفسه بهذا تفسيرا أكساه بالقبول دينيا، وأوقفه على الخاصة.

- ومن أهمّ ما تصدّى له الشيخ صامبا من إنجاز هو اجتهاده في تشكيل اللغة الفلانية لتتجسم كتابتها بالحروف العربية، ذلك أنه رأى أنّ الناس لا يمكن أن يتمكّنوا من الفهم الصحيح لدينهم الإسلامي إذا لم يتوصّلوا إلى ذلك بأنفسهم من خلال لغتهم المحلية، وفي هذا الصّدد كتب الشيخ صامبا مبينا رأيه كما يلي:

(ولمّا رأيت أن معرفة الدين من الأمور الواجب القيام بها، وأنها لا تتمّ إلاّ عن طريق لغة فهمها يقينا، وإنّ العربية بعيدة عن السّواد الأعظم من الناس، والوسيلة إليها غير متاحة لهم، والحال أنّ اليقين اللغوي سابق على اليقين الديني واليقين الديني لازم لأيّ عمل تعبّدي، والفلاني المشكوك في عربيته لن يقود الناس إلى الدين المتلقى معارفه بالتواتر واليقين، فلمّا رأيت كلّ ذلك علمت أنّ اللغة العجمية الفولانية هي الوسيلة المثلى للعامّة).

للشيخ محمد صامبا مؤلفات ورسائل كثيرة، كما كان له تلاميذ كثيرون، ولعلّ أهم مؤلفاته هو كتابه (المرأة والبقرة و الدين) ، وهو مكتوب بالشعر الفولاني، أما الكتاب الثاني فهو (معدن السعادة) وقد جعله نظما شعريا أيضا. وقد تناول في كلّ من هذين الكتابين مواضيع فقهية عديدة وذلك خدمة لحاجات الناس وتمكينا لهم من معرفة دينهم بيسر وسهولة، وفي كتاب المرأة والبقرة والدين، أبدى الشيخ محمد صامبا الأهمية التي يجب أن تعطى للمرأة طبْقًا لما جاء به الإسلام، فهي ليست في شبه إطلاقا للبقرة الحلوب كما يتصور الكثيرون من عامة الناس، ويتصرّفون نحوها بعاداتهم السيئة والتي لا تتناسب ودينهم الحنيف.

أهمّ المصادر

1) مخطوطات عديدة من تأليف صامبا وبعضها من تأليف تلامذته في مكتبة جامعة كوناكري، وفي مكتبة أحمد بابا في تمبكتو، وفي المكتبة الوطنية في باريس، وكذلك في مكتبة (إيفان) في داكار.

2) D.W. Arnott, Literatures In African Languages Theoritical Issues And Sample Surveys, Cambrigde University Presse, 1985.

3) TIORNO MOHAMMAD SAMBA MOMBEYA, le filon du Bonheur, Armand Coulin, Paris 1971.

4) A. Hampate BA, Aspects de la civilisation africaine, paris 1971.

أبو بكر الصديق
1860 – 1790

ينحدر أبو بكر الصديق من أسرة غنيّة وأفرادها من مثقّفي عصرهم ومن تجارها الأثرياء، وهي تنتسب إلى قبائل الماندينق – ديولا الكثيرة الفروع وقد كانت قبائل ديولا الكثيرة الفروع وكانت قبائل ديولا وقبائل الماندينغ المعروفة أيضا بقبائل الوانقارا خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر للميلاد تتوزّع على مناطق الغرب الإفريقي التي تشمل حاليا جمهوريات غانا وغينيا و شمال ساحل العاج وغرب جمهورية ليبيريا و شرق جمهورية بوركينافاسو بالإضافة إلى جمهورية مالي المجاورة وخاصة مناطقها الجنوبية والوسطى، وتمارس تلك القبائل في هذه المنطقة الواسعة بصورة خاصة الفلاحة والتجارة وتربية المواشي، وكانت تنقلات أفرادها بين النواحي في سبيل التجارة وتربية الماشية وما تتطلبه من بحث عن المراعي والكلأ لا تنقطع، سواء كانت تلك النواحي تحت حكم الأمراء الوثنيين أو المسلمين، حيث كان الجميع يعيشون في وئام وسلام، ولا يعكّر صفو أية مدينة في كامل المنطقة أو قرية إلاّ الهجومات المفاجئة التي ترتّب وتقوم بها آنذاك عديد العصابات الإفريقية لإختطاف الناس وبيعهم عبيدا للمراكز التجارية الأوروبية المتمركزة على شواطئ المحيط الأطلسي، وفي إحدى الغزوات على مدينة (بونا) التي كانت تسكن بها آنذاك عائلة أبي بكر الصديق، أخذ الرجل أسيرا وبيع لأحد تجار العبيد على الشاطئ وتمّ ترحيله في سفينة مملوءة بالعبيد إلى جزيرة جامايكا التي كانت آنذاك مستعمرة بريطانية.

وفي كنقُستون، عاصمة جزيرة جامايكا، اشتهر أبو بكر الصديق بين سكّانها كـ (عبد) مثقف يكتب فقط بالعربية، ولكنّه لا يكتب بالإنقليزية التي استطاع وهو في جامايكا أن يتقن الحديث بها دون الكتابة، وقد عرف عنه الإخلاص والصّدق في عمله دون أن يكون لديه من صفات (المكر والخديعة)

ما كان يشتهر به آنذاك كثير من العبيد في غالب الأحيان، وهذا ما جعل سعر بيعه يرتفع في السوق تداول على شرائه عدد من المشترين استفادوا كثيرا مـــن خدماته.

مكث أبو بكر الصديق مدّة ثلاثين عاما كعبد في جامايكا تتناوله أيادي النّخّاسين بالبيع والشراء، وكان آخر من اشتراه التاجر " ألكسندر أندرسون " في عام 1823 فبقي يعمل لديه كمحاسب في مغازته التّجاريـــة لمـــدة عـــشر سنوات يكتب ويسجّل له الحسابات والبضائع فقط بالعربية، وقد أثنى ألكسندر هذا على ما لقيه من إخلاص ورواج لمبيعاته على يدي عبده أبو بكر الصديق، ثمّ حدث أنه جاء إلى جامايكا المحامي الإنقليزي الدكتور مادن MADDEN في مهمّة استطلاع ممّا جعله يتصل بالعبد أبو بكر الصّديق الكاتب بالعربية " بعد أن عرف مدى ثناء الناس على إخلاصه في العمل ودماثة أخلاقه، فقرّر أخـــذه معه إلى لندن، بعد أن طلب من مالكه تحريره، فقبل على الفور مصرّحا بأنّ ثمنه هو 300 جنيه ولكنّ إخلاصه وحسن تنظيم العمل الذي يقوم به (عبده) أبو بكر الصديق، يؤدّي إلى أرباح تفوق 300 جنيه بكثير ورغم ذلك فهو يسمح بتحريره عن طواعية.

وإثر ذلك أقام الدكتور "مادن" حفل استقبال دعا إليه جملة من أعيـــان الناس في المدينة ليعلن أثناءه تحرير أبو بكر الصديق من العبودية وقبول مالكـــه بذلك عن طواعية، كما أعلن في ذلك الحفل أيضا قبول أيّة مساعدة من طرف الحاضرين لـــ (أبو بكر الصديق) مساعدة له في معيشته بعد أن أصبح حـــرّا، فساهم الحاضرون في ذلك وبلغ ما جمعوه في تلك المناسبة عـــشرين جنيهـــا، كانت لها قيمتها الشرائية الهامة في ذلك الوقت.

عاد الدكتور "مادن" إلى إنقلترا بمعية أبو بكر الصديق وبعد إقامتـــه في لندن لعدة أشهر، اقترح عليه الدكتور "مادن" الذي أصبح صديقا له بالفعل أن يعمل كدليل لبعثة إنقليزية خاصة كان يشرف على تنظيمها أحـــد أصـــدقاء

(مادن) المدعو (جون دافيدسن) ، هدفها الوصول إلى تمبكتو على الطريق الصحراوي، وقد قبل أبو بكر الصديق ذلك، فانطلقت الرحلة باتجاه المغرب الأقصى مرورا بجبل طارق في سبتمبر عام 1835 برئاسة (دافيدسن) ، الذي ما إن وصل المغرب الأقصى حتّى وضع نفسه تحت تصرّف الملك لمعالجة المرضى وذلك لما كان له من معرفة بالطّب، أمّا أبو بكر الصديق فكان من حظه أنّه إلتقى ببعض معارفه القدامى هناك وعلم منهم أنّ أحد أقربائه هو الذي كان حاكما على تمبكتو في ذلك الوقت، وقد تمّ إكرامه من طرف الملك وحاشيته لهذا السّبب، وأصبح ينادونه باسم (مولاي) إشارة إلى مكانته الرفعية لديهم لكونه ينتسب إلى عائلة لها مكانتها في الحكم بتمبكتو آنذاك.

وبعد إقامتهما سنة كاملة في المغرب الأقصى، أذن الملك للرّجلين باستئناف رحلتهما باتجاه تمبكتو عن طريق (وادي نون) وذلك في نوفمبر لعام 1836 وبعد ثلاثة أسابيع من انطلاق الرحلة وقع هجوم على تلك القافلة الصغيرة في الصحراء فقتل (دافيدسون) و لم يتعرّض أبو بكر الصديق لأيّ أذى، وأشيع آنذاك أنّ تجّار (تافيلالت) في الجنوب المغربي، هم الذين يكونون قد نظّموا ذلك الهجوم كي لا ينافسهم الأوروبيون في تجارة الصحراء باتجاه إفريقيا جنوب الصحراء والتي كانت حتّى ذلك الوقت حكرا على المسلمين وحدهم.

غابت أخبار أبي بكر الصديق بعد ذلك لمدّة، وفي عام 1841 وقع تكليف صديقه القديم الدكتور (مادن) بتفتيش القلاع الإنقليزية الواقعة على ما كان يعرف آنذاك بساحل الذّهب أي تلك التي على شواطئ إفريقيا الغربية على المحيط الأطلسي، فأراد مادن وهو في هذا المنصب كمفتّش عام، أن يتتبّع أخبار أبي بكر الصديق ما استطاع، فوضع لهذا الغرض مكافأة بمائة دولار لمن يأتيه بأنباء عن أبي بكر الصديق، وفي شهر جوان لعام 1841 أخبره نائب القنصل البريطاني في (موڤادور) بأنّ هناك أحد رجال القوافل الذي وصل لتوّه من تمبكتو قد صرّح بأنه صديق للشيخ أبي بكر الصديق وأنّ هذا الأخير لا يزال

على قيد الحياة وأنه في تلك الأثناء كان يقيم في مدينة جنّي الواقعة على ضفاف نهر النيجر إلى الجنوب الشرقي من تمبكتو.

آثـــــاره

1- كتب أبو بكر الصديق سيرة حياته مرتين :المـــرّة الأولى وهـــو في جامايكا، وقد تناول فيها بالتفصيل أصل عائلته وزياراته قبل أسره لعدد مـــن المدن في منطقة الغرب الإفريقي والتي كان يتواجد فيها تجّار أغنياء من عائلته، كما تحدّث عن ظروف اختطافه مع كثيرين من طرف المهاجمين، وكيف كان ذلك الإختطاف قد إتّسم بالقسوة الشديدة، ذلك أنّ أولئك المختطفين كـــانوا متسرّعين في وضع الأغلال وفي تحميل كلّ فرد بأحمال ثقيلة، كمـــا كـــانوا لا يرحمون أثناء السير ولمسافات طويلة بأولائك المخطوفين باتجاه المحيط لبـــيعهم للأوروبيين، وقد وجدت مع هذه المخطوطة بعض المراسلات كان أبـــو بكـــر الصديق قد تبادلها مع بعض (العبيد المسلمين) الذين كان قد تعرّف عليهم أثناء اختطافه وأثناء نقلهم جميعا إلى جامايكا.

2- أمّا المرّة الثانية فقد كتب سيرة حياته أيضا، وهو في لندن وفي هذه المخطوطة نراه يسجّل الكثير أيضا من ذكرياته عن مدن الغرب الإفريقي الـــتي زارها، والتي يتوزّع أفراد عائلته التجار بها، كما يتحدّث عن دراســـاته الأولى وهو صبي في تمبكو وجني، ويذكر بعض أشياخه (المتبحّرين) في العلوم اللغوية والفقهية، على حدّ تعبيره.

3- في كلّ ما بقي من آثاره المكتوبة يظهر جليّا مدى تمكّنه من اللغـــة العربية، فأسلوبه سلس وجميل، كما بيّن أيضا وبجلاء مدى التزامـــه بديانتـــه الإسلامية، فبالرغم من أنه قد تمّ تعميده مسيحيا من طـــرف أحـــد مالكيـــه الأوروبيين في جامايكا تحت اســـم (EDWARD DONNELLAN) إدوارد

دونلان، إلاّ أنّ مراسلاته مع (عبيد مسلمين آخرين كانوا قد اختطفوا معه يدلّ على بقائه مسلما، حتّى وهو في وضعيته الجديدة)

4 – ويستنتج من سلوك الدكتور (مادن) مع أبي بكر الصديق وهـو في وظيفته (مفتّش عام لدى الحكومة الإنقليزية) إلى أيّ مدى كان الأوروبيون بصورة عامة والأنقليز بصورة خاصة وذلك خلال القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر، لا يزالون يعملون بجدّ ومثابرة كي يصلوا إلى تمبكتو بصورة خاصة وإلى داخل القارة الإفريقية بصورة عامة، وهذا كي ينافسوا المسلمين في تجارتهم مع إفريقيا جنوب الصحراء التي شاع لديهم منذ القرن الرابع عشر فما بعد، أنها بلاد الذّهب وأنّ المسلمين يجنون من المتاجرة معها خيرات كثيرة جدّا.

أهمّ المصادر

1- Abou Bakar Al Sidiq of timbuctu, in P.C. Curtin éd, Africa remembered, University of wisconsin, 1968.

2- R.R. MADDEN, twelve months residence in west indies, London 1837.

3- G.C Renouard, routes in North Africa, journal of royal geographical society ", 6, 1836, PP 102 – 7.

4- W. ARMSTED, a tribute for the Negro, London 1848.

5- C. Meillassoux, éd, l'évolution du commerce en Afrique de l'ouest, Oxford university Press, 1971.

6- C. Meillassoux, l'esclavage en Afrique pré colonial Paris (maspero) , 1975.

7- I. Wilcs, les écrits d'Abu Bakr, paris 1968.

8- P.Marty, études sur l'ISLAM et les tribus du Soudan, Paris 1920.

6- «ألمامي» عبد القادر يقيم نظام "الإمامية" في فوتاتورو"

لفظة ألمامي «**تعني الإمام في لغة السنغاليين**»، والإمامة هي نظام الحكم الذي أقامه وترأسه الامام عبد القادر في منطقة " الفوتاتورو " الواقعة على ضفتي نهر السينغال في القرن الثامن عشر، وقد توصل إلى ذلك بعد جهاد ومعاناة طويلة بدأها قبله جماعة من طبقة (التورودبي) أي العلماء الفقهاء مثل (التورودو) سلمان وغيره، ولكن الامام عبد القادر هو الذي تناهى إليه الحكم في كامل المنطقة وتمكن من إقامة حكم إسلامي عليها بالشكل الذي ارتآه لها.

بدأ الإمام عبد القادر بإعلانه الجهاد على جميع العادات والتقاليد التي ظلت متفشيه في المنطقة وخاصة تلك التي كان الأمراء لا يزالون يمارسونها وكلها مخالفة لتعاليم الإسلام، فأراد أن يلتزم الجميع بتطبيق الشريعة الإسلامية سواء كانوا أمراء أو أفرادا وأن يتخلوا عن عاداتهم التي هي من بقايا عهود الوثنية السابقة للإسلام، وقد لقي في ذلك مصاعب جمة وفي إحدى المرات انهزم جيشه ووقع أسيرا في يد أحد الأمراء من أعدائه، فلم يقتله هذا الأخير كما هي العادة في تلك الحالة ولكن إشفاق الناس عليه وطلبهم من الأمير العفو عنه، هو الذي أدى إلى إطلاق سراحه وتحريره من ربقة العبودية تلك.

استأنف بعدها عبد القادر نشاطه ووجد له أتباعا في كامل المنطقة ممّا مكنه من التغلب على كل أمراء الجهات فبايعه الناس إماما عليهم ورضوا بما يريد لهم من حُكْمٍ طبقا لتعاليم الاسلام.

لقد كان سكان "الفوتاتورو" قبل ذلك كلهم مسلمين إلا أن هناك الكثير من عاداتهم وممارساتهم ظلت مخالفة للإسلام، وهذا ما جعل المتعلمين من بينهم والمطلّعين على الشريعة الإسلامية ومفاهيمها الصحيحة لا يلبثون يندّدون بما عليه الناس في بلادهم من مخالفات للإسلام مع انهم ينتسبون للإسلام، وبالإضافة إلى ذلك فقد كان لدى السكان حنق على الوضعية التي وصلتها منطقتهم، من حيث انقسامها إلى إمارات صغيرة على كل منها أمير ليس له من

صفات الأميرية إلا الاسم، ومع ذلك فهو يجبي الضرائب من فقراء النـــاس في منطقته ويعيش عيشة الإسراف والبذج، كما أن هجومات عصابات النَّخَّاسين كانت لاتفتأ تفتك بالرجال والنساء والصبيان بين الفينة والأخـــرى، وكلمـــا أمكن لها ذلك وهذا بالرغم من أنهم كانوا كلهم مسلمين، ولقد كـــان تجـــار العبيد من أمراء وأغنياء يجبرون الناس بعد اصطيادهم وإخضاعهم للعبودية أن لا يقولون بأنهم مسلمون، وذلك حتى يتسنى بيعهم لرجال القوافل القادمين مـــن الشمال، أما بيعهم للأوروبيين في سانلويس ST.LOUIS فقد كان لا يتطلب ذلك وقد أنكر عبد القادر على النخاسين تصرفاتهم كلها وحرَّم التجارة بالعبيد المسلمين في جميع البلاد الخاضعة لنفوذه، كما أنه استطاع أن يحمي تلك المنطقة الخاضعة لسلطته من الغزاة صيادي البشر طيلة الفترة التي اســـتمرت خلالهـــا إماميته قائمة.

استطاع الامام عبد القادر خلال فترة القوة من إماميته التي اســـتمرَّتْ حوالي عشر سنوات (1797 – 1807 أن يدخل سكان إمارات أخـــرى إلى الإسلام كانت قبل ذلك وثنية وخاصة في جهة (كارتا) كما استطاع أن يمكن للعقيدة الإسلامية أكثر في المناطق التي كانت معتنقة للإسلام، ولكن اســـلامها كانت تشوبه الكثير من السطحية كنتيجة للجهل من ناحية وكنتيجة للوراثات التقليدية والوثنية من فترة ما قبل الإسلام.

نظم الأمامي عبد القادر دولته على أساس أن يكون هناك في كل قرية ومدينة معتمد إداري وإلى جانبه قاض يتابع جميع التصرفات سواء مـــن قبـــل المعتمد الاداري أو من قبل الأفراد المتساكنين وذلـــك كـــي تنـــسجم جميـــع التصرفات والسلوكات مع تعاليم الإسلام الحنيف، في كامل القرى والمدن التي شملها حكمه، و وضع " الامامي " عبد القادر إلى جانبه مستشارين اثنين كانا يتولان معه الأمور ويسكنان معه في قصره وهما علي دُونْدو وعلي سِيدي، وهما من أبرز اصدقائه ومساعديه الذين كانوا قد بدأوا معه الحركة وساهما في تجميع الناس ومبايعتهم له ولكنهما في الأخير اختلفا معه وقاما ضده وبما أن المركـــز

التجاري للفرنسيين في سانلويس كان ناشطا جدا آنذاك وكان للتبادل التجاري معه أهميته لدى "الإمامية" فقد عين الامام عبد القادر للتعامل معه موظفا خاصا يعتبر بمثابة وزير للخارجية بالرغم من أنه لم يكن يسمى بهذا الاسم، وقد كانت " الامامية " تشتري من الفرنسيين الأسلحة والأقمشة مقابل تزويدها لهم بالصمغ العربي وبالجلود التي تحتاجها معاملهم في فرنسا.

ويُعزَى ضعف دولة الإمام عبد القادر حينما قارب الثمانين من عمره إلى ثلاثة عوامل أساسية هي

1- كبر سن الرجل في الأخير وضعف قدرته على المتابعة والتبصر بالأمور كما كان في الأول،

2- انفضاض أصدقائه القدامى من حوله واختلاف بعضهم اختلافا شديدا معه كعلي دندو وعلي سيدي اللذين كانا من أهم مناصريه في البداية.

3- تَشَدُّد الرجل وقتله للكثيرين من المخالفين له في الرأي أو من المرتكبين للأخطاء مما دفع الكثيرين في الأخير إلى عدم التحمس للانضواء وراءه واتباع سياسته كما كانوا في السابق.

4- كثرة معاركه وخاصة ضد الإمارات الوثنية في الوقت الذي لم يكن له جيش منظم بالشّكل الكافي، وهذا ما دفع بأمراء تلك الإمارات التي كانت لا تزال على وثنيتها وخاصة إمارة – كارتا – أن تغتنم فترة ضعف "الامامية" وتنال منها وانتهى الأمر بحكام الجهات في "فوتاتورو" وأمرائها أن ينتخبوا لـ "الامامية" شخصا آخر غير عبد القادر، ولكنه الشخص الذي كان يناسبهم أكثر دون شك، ومما يحسن التأكيد عليه هنا أنه حتى أيامنا هذه لا يزال لـ "الامامي عبد القادر في "فوتاتورو" ذكره الطيب، ويعتبره الناس أنه كان أحد الحكام والزعماء البارزين في تاريخهم.

أهمّ المصادر

1) وثائق فوتاتورو – IFAN – داكار – Fondi KAMRA -

2) وثائق فوتاتورو – طيبة – داكار.

3- Robinson, D., "The Islamic Revolution of Futa toro" in International Journal of Africain studies, 1974.

4- Soh (SIR ABBAS), chroniques du Fouta sénégalais, traduction et éd. DE LAFosse et GADEN, PARIS 1913.

ساموري توري (ولد حوالي 1830 – توفي 1900 م)

كان الغرب الإفريقي قد شاهد حركات جهادية عديدة خلال القرنين الثامن والتاسع عشر على الخصوص، كانت أهدافها المعلنة تتجسم في التمكين للإسلام وإقامة دولة اسلامية تطبق تعاليمه الصحيحة على الناس، وقد تشكلت بالفعل عدة دول كنتيجة للجهود التي قام بها زعماؤها لهذا الغرض، ومن أكبر تلك الدول وأوسعها من حيث المساحة والاتساع هي تلك الدولة التي أسسها الإمام (الأمامي بلهجة الأفارقة الغربيين) ساموري توري، فقد شملت دولته معظم أراضي ما يعرف اليوم بدول (ساحل العاج وغينيا وليبيريا وشمال غانا ومالي حتى مدينة باماكو، وكذلك غمبيا وسيراليون وشمال وغرب الكامرون والأجزاء الغربية من بوركينافاسو)، ولذلك فقد كانت هذه المنطقة الشاسعة. بمثابة إمبراطورية، تشبه تلك التي قامت في القرون السابقة في المنطقة الشمالية من الغرب الإفريقي مثل إمبراطورية مالي وامبراطورية سنغاي وبعدهما نجد الامبراطورية السامورية هذه بكونها شملت أجزاء كثيرة من منطقة الغابات وأدخلتها في الاسلام، وهو ما لم تفعله الامبراطوريات السابقة لها إطلاقا.

كان الإمام ساموري توري يعشق الحياة العسكرية منذ صغره، فانخرط في جيوش بعض الأمراء أكثر من مرة، وبذلك اكتسب خبرة عسكرية مكنته حينما اتيحت له الفرصة بأن يكون لنفسه مجموعة من الأصدقاء والتابعين لهم وله، فشكلوا نواة لجيش صغير أخذ يتضخم وتتسع امكانياته مع مرور الزمن وبهذا الجيش استطاع ان يكون إمبراطورية، وأن يقودها قيادة حكيمة جلبت له الأنظار، فقد عرف عنه بعد النظر كما عرفت عنه الشدة وقوة البأس في الدفاع عن حقه وبهما استطاع أن يقارع الاستعماريين الفرنسيين لمدة ستة عشرة سنة كاملة، ذلك أن الغرب الإفريقي كان آنذاك قد أصبح هدفا للفرنسيين لاستعماره كليا، وبما أنهم استطاعوا فرض وجودهم على الأجزاء الشمالية منه وتوصلوا بعد معارك طاحنة إلى القضاء على مملكة (سيقو) والتغلب على أميرها

(أحمادو) ابن الحاج عمر الفوتي، فبقي أمامهم إلى الجنوب والجنوب الشرقي والغرب، ما كان يشكل إمبراطورية ساموري توري الواسعة، ورغم التفوق الملحوظ في التسلح بين الجانبين، فإن الامام ساموري توري لم يستسلم، وجابه الجيوش الفرنسية بمقاومة قوية صعب عليهم التغلب عليها، ولحقتهم خسائر جسيمة نظرا لطول المدة وبسالة المقاتلين الساموريين، ففي خلال تلك السنين توالي على القيادة في الجيش الفرنسي العامل في غرب أفريقيا ثمانية ضباط، قادة كبار، الواحد بعد الآخر وكان يتم اختيارهم بناء على خبرتهم العسكرية العالية لإتمام احتلال الغرب الإفريقي كله، وللقضاء على إمبراطورية ساموري توري، آخر قلاع المقاومة للاحتلال، وقد فشلوا جميعا، إلا أنه حدث في آخر سني المقاومة السامورية أن شح السلاح لدى الجيش الساموري لأن الأنكليز الذين كانوا مستقرين آنذاك في ساحل الذهب (غانا الحالية) توقفوا عن بيعه لساموري توري كما كانوا يفعلون في السابق، كما أن سكان الأمبراطورية السامورية قد أضعفتم تلك السنون الطويلة من القتال، ورغم ذلك فقد ظل ساموري توري يرفض بعناد شديد، الاستسلام، وقد عمل في بعض الحالات على استعمال طريقة (الأرض المحروقة) حينما يرى أن جيشه سيغلب، فينقل مركز قيادته إلى مكان آخر بعد أن يقوم بعملية ابعاد السكان وإخلاء الجهة من تواجدهم، ثم يقوم بإحراق الموجودات بها بما فيها معظم المزروعات أيضا.

- لقد نظم ساموري توري جيشه في شكل وحدات تشبه ما كان لدى الفرنسيين آنذاك، وربما يكون هو أول من عمد إلى استعمال تلك الطريقة في الغرب الإفريقي كله قبل الاحتلال، وهذا ما مكنه من إلحاق الهزائم بالغزاة الفرنسيين في أحيان كثيرة، واتباع طريقة الكر والفر كلّما لزم الأمر وهو في هذا يشبه ما كان الأمير عبد القادر الجزائري يسير على منواله فقد عمل عبد القادر على تنظيم جيشه بهذا الشكل أيضا، وتمكن من الصّمود أمام الفرنسيين مستعملا طريقة الكر والفر أيضا، لمدة زادت عن سبع عشرة سنة كاملة، وقد اتبع الفرنسيون مع ساموري توري الأسلوب نفسه الذي كانوا قد استعملوه مع

عبد القادر، ذلك أنهم كانوا يتفاوضون ويعقدون الاتفاقيات لإنهاء الحــرب، ثم ينظمون أنفسهم مرّة أخرى ويقومون على اثرها بخرق الاتفاقيات والدخول من جديد في الحرب.

ينتسب ساموري توري إلى قبيلة (ديولا) التي كان أفرادها منتــشرين في مناطق كثيرة من الغرب الإفريقي، يزاول قسم منهم التجارة، ويزاول القــسم الأكبر من بينهم الزراعة وهم فرع من قبيلة (مالنكي) الكــبيرة وقــد ولــد ساموري توري في (كاباداقو KABADAGU الواقعة ضمن بلاد أهل القــسم الجنوبي لقبيلة (مالنكي) هذه والتي تمتد مرابعها حتى حدود الغابات الاستوائية، ويقال إنه حين انخرط في العسكرية وهو يافع، كان يريد الانتقام ممن كانوا قد استعبدوا أمه وهو صغير، وسعى إلى تحريرها من قبضتهم ان أمكن وحين نظم نفسه في الأخير لإقامة إمبراطوريته كان يتوفر على خبرة عسكرية هامة، كمــا كان لديه من المعرفة بحسن القيادة ما شهد له به الجميــع، فــرغم أن تلــك الإمبراطورية كانت واسعة جدا إلا أنه استطاع أن ينظمها في شكل مقاطعات يشرف على كل واحدة منها قائد شبه عسكري، يسانده علمــاء وقــضاة في منطقته.

زاره الرائد الفرنسي (بيروز PEROZ في إحدى المرات ليتفاوض معــه بغية الوصول إلى اتفاق يرضى الطرفين، قام يخرفه الفرنسيون بعد ذلك، كمــا فعلوا معه في مرات عديدة، فكتب عن هذه المقابلة ما يلي:

(كان مجموع الجالسين لهذه المناسبة من الأغنياء وكبار القوم مما يــدل على الأهمية التي يعطيها الأمامي لهذه المقابلة وقد سيطر علينا العجاب مــن حسن التنظيم الذي شاهدناه، فهناك المسجد، وهناك البيوت المحيطة به في انتظام جيد، أما قلاع القصر فهي تعلو بعد ذلك، لتعطي للموقع كله ذلــك المنظــر الصلب الجميل. لقد كان الإمام (ساموري توري) مستندا في جلوســه علــى سرير مرتفع، وقد تم تجميل ذلك السرير بالعديد من التغطيات ذات الرســوم

الأخّاذة، أما لباسه فقد كان بسيطا جدا فقد كانت رجلاه في بلغة من النـــوع المغاربي Mauresque وقد تأزر بقفطان بلون فاتح وضع تحته ســـروالا أبـــيض عريضا، أما رأسه فقد كان عليه عمامة منضذة بخرقة مذهبة جميلـــة، وهنـــاك جلس حوله علية قومه على كراسي هي أقل ارتفاعا من مجلسه الخاص به).

وبعد أن يعد بيروز هذا وظائف الرجال الذين كانوا في ذلك المجلـــس، ومن بينهم رئيس المالية بلباس أخضر متميز، يذهب الرائد بيروز إلى الإعتقـــاد بأن الأمور نظمت على أساس أنه لم يكن هناك من تنظيم مـــسبق لاســـتقباله ويرى أن الحقيقة غير ذلك، حيث أن كل شيء كان قـــد تم تنظيمـــه جـــدا للمناسبة بحيث يبدو كل شيء وكأنه طبيعي ثم يستطرد الرائد بيروز قائلا

(لم يقم ساموري توري من مجلسه حينما وصلنا، فوقفنا أمامه وســـلمنا عليه، فمد يده لنا في غير حماس، وكانت تنبعث في كل زاوية ضربات الدفوف ممزوجة بضربات الآلات الأخرى للدلالة على عظمة وقوة الأمامية)

أما الكولونيل غالييني GALLINI فقد جاء في مذكراته أنه قام بمغـــامرة في ليلة حالكة الظلام لمقابلة ساموري في قصره، وذكر أن أول سؤال طرحـــه علي كان عن سبب قيامي بتلك المغامرة لمقابلته، فشرحت له، حسب تعـــبير قلييني، أ، التفاوض بين ممثلينا سواء من طرفكم أو طرفنا لم يؤدّ إلى شيء، وبما أن النتائج لم تكن إيجابية فسأدعى للعودة إلى فرنسا خالي الوفاض، وقال غلييني أن ساموري استمع إلي دون أن يقاطعني حتى أنهيت جميع ما أردت قوله له، ثم فكر لحظة وأجاب (إني أعطيكم كل ما طلبته مني، فلتكن هناك ثقة، وكـــل شيء سيمر بانسجام، لكن ليس بدون صبر وعلى كل حال، فإن كره الناس للأوروبيين هنا كبير جدا)

إن جميع المراسلات التي وصلتنا أصدرها أو بعث بها الإمام ســـاموري توري باللغة العربية، واللغة العربية كانت هي اللغة التي كانت تسير بها دولته، ذلك أن هذه اللغة ظلت هي لغة العلم والثقافة في بلدان الغرب الإفريقي جميعا،

وهذا حتى تمكن الفرنسيون من الاستقرار في المنطقة مع بداية القرن العشرين فقط، حيث أنهوا تواجد العربية وأحلوا محلها اللغة الفرنسية، وكان لساموري توري عنايته الخاصة بالاسلام بالرغم من أنه كان عسكريا وسياسيا أكثر منه فقيها، كما أنه بنى عديد المساجد، وفرض الاسلام في كامل المناطق التي امتد إليها حكمه، وهو أول من أوصل الإسلام إلى الكثير من المناطق الغابية ومكن منه لسكانها، كما كان لمستشاريه من مثقفين وقضاة وفقهاء مكانتهم السامية حوله.

لقد كان ساموري توري مصمما على المقاومة حتى النهاية، فتابعه الفرنسيون في كل ناحية تواجد بها، ذلك أنه في السنة الأخيرة التي تم خلالها إلقاء القبض عليه في منطقة دان DAN الغابية بجبال ليبيريا الحالية كان ساموري توري، قد استقر أولا في جبال ساحل العاج ثم جبال سيراليون أيضا، وكلما غلبوه في ناحية كان ينقل مركزه إلى ناحية أخرى ويستمر في المقاومة وفي يوم إلقاء القبض عليه في يوم 29 سبتمبر/أيلول 1998 في احدى بطون مرتفعات جبال (جيلوموا) في ليبيريا الحالة، لم يكن ذلك نتيجة لمعركة مع الفرنسيين، وانما كانت هناك دورية استكشاف تتكون من عدة عساكر يقودهم أحد الضباط، فوجدوه مع عدد صغير من اتباعه، وألقوا عليه القبض، وقد حاول أن ينتحر دون أن يمكنهم من الاستسلام لهم فمنعوه من ذلك، وقد أرادوا في البداية نفيه وجماعته إلى الغابون، ثم أحالوه إلى سان لويس، ثم نَفَوْهُ إلى جزيرة (نجولي) في المحيط الأطلسي، وهي جزيرة صغيرة قرب سان لويس، وبها توفي عام 1900 دون أن يعرف مكان قبره بها حتى الآن، فكان آخر المقاومين الكبار للاحتلال الأجنبي في منطقة الغرب الإفريقي كلها، مدافعا عن الهوية الوطنية وعن الاسلام، وكان من جملة الوسائل التي اتبعها الفرنسيون أثناء فترة المعارك الكبرى التي جابههم بها ساموري توري أنهم أخذوا أحد أبنائه إلى فرنسا كي يشاهد مدى العظمة والابتهار التي كانت عليها مدينة باريس، وذلك لعله يستطيع إقناع أبيه بالاستسلام لهم، ولكن ذلك لم يفدهم في شيء، واستمر

ساموري توري في مقارعتهم لسنوات طويلة بعد ذلك ولولا عدم التكـــافؤ في الأسلحة وخاصة خلال السنوات الأخيرة لمقاومته، لما تمكنوا من الوصـــول إلى أهدافهم في التغلب عليه.

كتب الاستاذ المؤرخ أيف بيرسون EVES PERSON واصـــفا قتـــال ساموري توري ضد الاحتلال: (ان مقاومة سامور توري هي الأطول والأقوى بين المقاومات التي جابهتها قوة استعمارية في أفريقيا السوداء... ومن هنا فليس من الغريب أن ساموري توري هو الرمز بالنسبة للشباب الوطني الإفريقي الذي ينحدر البعض من بينهم مباشرة من المحيط الإجتماعي والثقافي الذي ينحذر منه هو نفسه).[1]

(1) – PERSON, E., Charles A. Julien et al.., les Africains, Paris 1975.)

أهمّ المصادر

1- للأستاذ EVES PERSON أطروحة ضخمة نال بها درجة الدكتوراه من جامعة باريس حجمها 2377 صفحة، وقد طبعت في داكار (مطبعة معهد IFAN) فظهر الجزءان الأول والثاني منها عام 1970 وظهر الجزء الثالث في عام 1975، والأستاذ PERSON الذي توفي قبل عدة سنوات، تأتى له أن يكون حاكما في غينيا تحت الاحتلال الفرنسي لعدة سنوات مما مكنه من جمع كل الوثائق المتعلقة بساموري توري وإمبراطوريته وقيادته ومقاومته للاحتلال، وهذا ما أهله بعد ذلك ليشغل أستاذا للدراسات الإفريقية بجامعة باريس، وهو من منطقة بروطانيا في الشمال الغربي الفرنسي، وكان أول من بدأ الحرب مع ساموري توري الضابط DORNIS DESBORDES

دروني دي بورداس، الذي هو ابن منطقته.

2- كما أن للأستاذ PERSON دراسات أخرى عن ساموري توري نشرت في عدد من المجلات والكتب العلمية بالأنكليزية منها على الخصوص.

- «SAMORI » and the Resistence to the French», in PROTEST and Power in Black Africa» Robert et al. (editors) N.YORK 1972.

- " SAMORI " as WAR LEADER in WEST AFRICAN Resistence M Crouwer (ed.) London 1971.

- "SAMORI and ISLAM" in studies on ISLAM in west africa, R.j. willis (ed.) , I, the cultivators of ISLAM, London 1975.

محمد اليفراني، أبو عبد الله
(1669 – 1744 م)

أثبت النّسّابة المغربي أبو الربيع سليمان الحوّات، وهو فقيه ونحوي معروف، وذلك في تقييده عن اليفراني، أنّ هذا الأخير هو: (أبو عبد الله محمد المدعو الصّغير ابن الحاج محمد بن عبد الله اليفرني بفتح الياء والرّاء بينهما فاء ساكنة، وهي قبيلة مشهورة بالمغرب، كانت لها دولة متداخلة مع مغراوة، وهم إخوان، وكان (زمن) دولتهم المذكورة بعد انقراض دولة الأدارسة الحسنيّين ودعوتهم لبني أمية أمراء الأندلس (كما هو معروف) ويضيف الحوّات في حديثه عن اليفرني: (وكان أبو عبد الله عالما ثبتا مشاركا في فنون شتّى، مولده بمراكش قرب الثمانين بعد الألف، وقرأ ببلده على جماعة من الأعيان وارتحل لطلب العلم بفاس فأخذ عن جماعة من الأئمة... وكان رحمه الله دمث الأخلاق خفيف الروح مشتغلا بالتقييد (أي التأليف) مستغرق الأوقات في ذلك، وله تآليف عديدة جامعة للفرائد المفيدة... وهو من أوّل ما ألّف المسلك السّهل في شرح ترشيح ابن سهل، ومنها: طلعة المشتري في ثبوت توبة الزمخشري، ومنها: الإفادات والإرشادات، وكتابه نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي وهو في تاريخ الدولة السّعدية، وهو من آخر ما ألف، وله تقاليد (أي تآليف) مفيدة ومحاورات ورسائل ومقتطفات شعرية قلائل... وغالب تآليفه موجودة بأيدي النّاس[1].

ومن هذا التقييد عن اليفرني يبدو أنّ الرجل كرّس حياته للتأليف، وأنّ معظم مؤلفاته كانت في التاريخ والتراجم، فبالإضافة إلى ما ذكره ابن الحوّات

---

(1) اليفرني، أبو عبد الله، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، المطبعة الحجرية بفاس، (د.ت.) (تقييد أبو الربيع سليمان الحوات في آخر المجلد) .

من مؤلفات لليفرني هناك أيضا كتاب (صفوة ما انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر)، وهو موجود بالمكتبة الوطنية بالجزائر تحت رقم 1741)، وقد يكون ابن الحوّات أدرجه ضمن مجموعة الرسائل التي أشار إليها بشكل عام، و لم يفرده بالذكر لهذا السبب.

يعتبر اليفرني مؤرخ الدولة السعدية، بحقّ، فهو إلى جانب السّلاوي بعده يكون، قد سجّل جميع الحوادث التي مرت بالمملكة المغربية خلال عهد الملوك السّعديين (1009 م – 1659 م)، ونجد في تسجيلاته صفة المؤرخ المدقق الذي لا همه غير الحقيقة في جميع ما كتبه.

كانت القارة الإفريقية على أيام اليفرني قد أقام الأوروبيون على سواحلها مراكز تجارية، وخاصة على السواحل الغربية للقارة، حيث كانوا يشترون من الأمراء والوجهاء والتّجار الأفارقة آلاف العبيد وينقلونهم إلى الأمير كتين، وكان الإسبان والبرتغاليون لا يزالون يشنّون بين الحين والآخر حملات عسكرية على الموانى المغاربية هي استمرار لتلك الحملات الصليبية التي كان قد بدأها فرديناند وإيزابيلا بعد طرد العرب من إسبانيا مباشرة، والمعروفة بـ Reconquesta والغاية منها إرجاع بلدان الشمال الإفريقي إلى المسيحية الكاثوليكية، وكان الرّحالة والمكتشفون الأوربيون يجوبون القارة من الداخل، وكلّهم باستثناء رونيه كاييه René Caillée كما هو معروف[2]. كانوا في خدمة الحكومات والهيئات الرسمية وشبه الرسمية في أوروبا، وهذه الحركة الاستكشافية هي التي مهّدت لإستعمار القارة كلّها فيما بعد.

في تلك الظروف المحيطة بالقارة الإفريقية عموما والتي بدأت قبل أيام اليفرني، بدا للسلطان المنصور السّعدي أن يغزو بلاد السّودان الغربي (مملكة سنغاي وأميرها أسكيا إسحاق) وذلك في عام 1591 م، وهذا بعد أن استقرّ حكم الأتراك في مناطق تلمسان وأفريقيا و لم يعد في إمكانه محاولات الغزو

(2) Isabelle Jarry, René Caillée, éditions LATTES, Paris, 1992.

باتجاه الشرق لما لذلك من تكاليف باهضة تفوق ما يمكن أن يتأتى من نتائج إن حصلت، كما أن الإفرنج في الأندلس لم يعد في إمكان المنصور منازلتهم بعد خروج العرب من الأندلس نهائيا، ومن ثمّ فإنّ إمكانية الغزو إلى الجنوب من الصحراء الكبرى هي ما بقي أمام المنصور للغزو، خاصة وأن الخراج بها كبير، وأميرها يعتبر (معزولا شرعيا) لأنه غير قرشي، كما صرّح المنصور نفسه بكلّ ذلك لأعضاء المجلس الملكي.

لقد تابع اليفرني كلّ ذلك بأسلوبه التاريخي المحايد، وسجل لنا كلّ التفاصيل المتعلقة بتراتيب المنصور لهذا الغزو، حاكيا ما يلي بالخصوص:

(... شاور المنصور أصحابه وجمع أعيان دولته أهل الرأي والمشورة، فاجتمعوا... فقال لهم المنصور: إني عزمت على منازلة أمير كاغو وصاحب السّودان، وبعث الجيوش إليهم... لأن بلاد السودان وافرة الخراج كثيرة المال... مع أن صاحب أمرهم والمتولّي عليهم اليوم ملكهم معزول عن الإمارة شرعا إذ ليس بقرشي ولا اجتمعت فيه شرائط السلطنة العظمى، فلمّا نشر المنصور ما بكنانته... سكت الحاضرون و لم يراجعوا بشيء، فقال أسكتم إنصاتا للرأي أم ظهر لكم خلاف ما ظهر لي ؟ فأجابوا كلهم بلسان واحد ورأي متّفق إن ذلك رأي عن الصواب بعيد... ولا يخطر ببال السوقة فكيف بالملوك، فقال وما بيان ذلك ؟) وهنا شرح له المجتمعون (أن بلاد السودان بعيدة إلى الجنوب من الصحراء الكبرى و وصول الجيش إليها صعب لقلة الماء على الخصوص، ودولة المرابطين على قوّتها ودولة الموحّدين على عظمتها وكذلك دولة المرينيّين، لم تطمح أية دولة من بينها لمثل هذا الغزو، فحسبنا إذن أن نقتفي إثر تلك الدوّل)، فكان جواب المنصور كما أورده اليفرني حرفيا ما يلي

(إن كان هذا غاية ما استضعفتم به أمري وقابلتم به رأيي فليس فيه حجّة ولا يخدش فيما عندي. أمّا قولكم بيننا وبينها صحاري مخوفة ومغاور

مهلكة من جدبها وعطشها، فنحن نرى التجار على حالة ضعفهم وقلة استعدادهم يشقّون تلك الطرق كل وقت... وأنا أهبة منهم، وللجيش همّة وهيبة ليست للقوافل. وأما قولكم: إن من قبلنا من الدّول لم تطمح أبصارهم لذلك، فاعلموا أن المرابطين صرفوا عنايتهم لغزو الأندلس ومقاتلة الإفرنج... والموحدون اقتفوا سبيلهم في ذلك وزادوا بحرب ابن غانية، والمرينيون كانت غالب وقائعهم مع بني عبد الوادي بتلمسان، ونحن اليوم قد انسدّت عنا أبواب الأندلس بإستيلاء العدو الكافر عليها جملة، وانقضّت عنا حروب تلمسان ونواحيها من الجزائر بإستيلاء الترك عليها، ثم إن أهل تلك الدول لو أرادوا ما أردنا عليهم إدراكه لأن جيوشهم فرسان رامحة ورماتهم ناشبة، و لم يكن عندهم هذا البارود وعساكر النار المرهبة بالصّواعق، وأهل السودان لم يكن عندهم الآن إلاّ الرمّاح والسّيوف، وهي لا تقاوم هذه المدافع المستحدثة، فمقاتلتهم سهلة وحربهم أسهل من كلّ شيء، وأيضا فإن بلاد السودان أنفع من إفريقيا، فالإشغال بها أولى من منازلة الأتراك، لأنه تعب كبير في نفع قليل...) ويضيف اليفرني (فلما فرغ المنصور من خطابه استحسن الحاضرون جوابه واستملحوا إثارته واستجادوا رأيه، وقالوا له: طبقت المفصل، وألهمت الصّواب) وقد سجّل لنا اليفرني مسار ونتيجة المعركة بين جيش المنصور واسكيا إسحاق بقوله (فلمّا التقت العناق نكص إسحاق على عقبه وانتثرت جموعه وفلّ غربه، والتحمت الحرب من لدن الضّحى إلى قرب العصر، فطحنتهم رحى الحرب وصيّرتهم كأعجاز نخل خاوية، ونجا إسحاق بنفسه في قليل من حاشيته... وكان جيش إسحاق إنما سلاحهم الحرشان والرّماح والسّيوف، و لم تكن عندهم هذه المدافع... حتى كان السّودان ينادون نحن إخوانكم في الدّين، والسّيوف عاملة فيهم) [3].

(3) اليفرني المصدر السابق، صفحات 76 – 77.

كان جيش المنصور لهذا الغزو لبلاد السودان الغربي بقيادة الباشا (جوذر) وهو من أصل برتغالي، ثمّ ما لبث المنصور بعد ذلك أن أهمل هذه الحملة ورجالها بعد أن تبيّن له أن البلاد فقيرة ولا يمكن الحصول على غنائم أخرى بعد تلك الغنائم الأولى التي وصلته في البداية، ذلك أن رجاله في الحملة الأولى قد سلبوا كلّ ما هو ممكن و لم يعد هناك ما يمكن تحصيله إلاّ القليل جدّا، أمّا جنود تلك الحملة ورجالها فقد استوطنوا نهائيا في تمبكتو ونواحيها وبقوا هناك إلى الأبد. وبعد أن أورد اليفرني كل التفاصيل المتعلقة بهذه الحملة تحدّث بإسهاب عن تهجير المنصور لآل أقيت من العلماء لمعارضتهم للإحتلال المغربي لبلادهم، وعلى رأسهم أحمد بابا التمبكتي الذي تحدّث عنه اليفرني كما يلي:

(... الأمام العلامة الهمام علم العلام... أبي العباس سيدي أحمد بابا وأهل بيته فحملوا مصفّدين في الحديد إلى مراكش، ومعهم حريمهم ونهبت أمواله وذخائرهم وكتبهم، ولـمّا فكّت أغلالهم أجبروا على البقاء في مراكش، وفرحت بذلك قلوب المؤمنين ولـمّا سرّح أبو العباس تصدّى لنشر العلم، وهرع الناس للأخذ عنه، ولـمّا مات المنصور أذن له ولده زيدان في الرّجوع إلى بلاده، فرجع إليها، وكان يتشوّق لرؤيتها ويسكب العبرات عند ذكرها).

أهمّ المصادر

1- اليفرني، أبو عبد الله – نزهة الحادي بأخبار القرن الحادي – المطبعة الحجرية بفاس (د.ت)

2- أ.د. يحي بو عزيز – تاريخ أفريقيا الغربية منذ مطلع القرن السادس عشر حتى مطلع القرن العشرين – الجزائر 1989.

3- أ.د. عبد القادر زبادية – الحضارة العربية والتأثير الأوروبي في أفريقيا الغربية جنوب الصحراء – الجزائر 1987.

4- القادري، محمد الطيب – نشر المثاني لأهل القرن الحادي والثاني عشر – طبعة فاس الحجرية 1310 هـ.

5- د. عبد القادر زبادية، مملكة سنغاي في عهد الأسيقيّين – الجزائر 1973.

6- د. عبد القادر زبادية – " ملامح الحركة التعليمية في تمبكتو القرن السادس عشر المجلة التاريخية المغربية – تونس 1975.

عثمان بن فودي
(1754 – 1817 م)

هو عثمان بن محمد بن صالح بن هارون بن محمد بن رجب ابن فودي، وكلمة فودي تعني الفقيه في لغة الحوصة، وهم سكان المناطق الشمالية ف جمهورية نيجيريا الحالية، وقد ولد الشيخ عثمان في قرية (تفل) بولاية سوكوتو الحالية.

وتنحدر عائلة الشيخ عثمان من قبائل الفولان الذين هاجروا إلى نيجيريا في السابق قادمين من منطقة أعالي نهر السنغال في جمهورية السنغال الحالية، وكانت عائلة الشيخ قد توارثت العلم والثقافة منذ مدة قبل مولده، وهذا ما أتاح له وهو صبي أن يتعلم على والده مبادئ علوم العربية وأصول الفقه وحفظ القرآن الكريم، ثمّ زار بعد ذلك أماكن عديدة ليأخذ العلم على العلماء المشهورين في المنطقة، وخاصة الشيخ جبريل بن عمر الذي كان يعتبر من أكبر علماء السّودان الأوسط في ذلك الوقت، فأخذ عليه وصاحبه لمدة تزيد عن السنتين، وبعد أن أتمّ تعليمه، تصدّى للوعظ والإرشاد في منطقة بلاد الحوصة، وكان يكلم الناس بلغتهم، وتمتدّ مرحلة العمل على نشر الدّعوة في حياة الشيخ عثمان من عام 1785 حتى عام عم 1803 وتتلخص الأفكار الإرشادية التي كان يبثها بين الناس في العمل على تثقيفهم كي يصحّحوا من مفهومهم للدين الإسلامي ويبتعدوا عن البدع والخرافات ويتّبعوا تماما القرآن والسنّة ويعلّموا أولادهم وبناتهم، وفي هذه المرحلة نراه يبتعد تمامًا عن الخوض في الأمور السياسية كي لا يقف الحكام ضدّ دعوته، وبذلك استطاع أن يجمع حوله عديد الأنصار والتلاميذ.

وفي هذه المرحلة أيضا جابه الشيخ عثمان عددا من المعارضين لجمعه في مجالسه الوعظية النساء إلى جانب الرجال، ومن أبرز من قاموا ضدّه وانتقدوه

في هذا الصّدد الشيخ مصطفى القوني، الذي كانت له شهرة في المنطقة ومكانة لدى الناس في ذلك الوقت، فما كان من الشيخ عثمان إلاّ الإصرار على أن تعليم النساء واجب إسلاميا وأن حضورهن بمجالس الدرس تقتضيه السنة ولا يخالف مبادئ الإسلام الصحيحة في شيء وكتب في هذا الموضوع رسالة سماها (تنبيه الإخوان على جواز اتّخاذ مجلس لأجل تعليم النسوان) ، وأعطى بنفسه المثال العملي فعمل على تثقيف وتعليم زوجاته وبناته الثلاث خديجة و أسماء ومريم، وقد استطاعت أسماء بثقافتها أن تكون لها عدّة تآليف فيما بعد ذلك بلغات العربية و الفولانية و الحوصوية، وقد راسلها الكثيرون في المنطقة يستفتونها ويأخذون برأيها.

تكاثر أنصار الشيخ عثمان وتلاميذه، خاصة بعد أن استقر بمدينة سوكوتو التي أنشأها لحركته، وصار تلاميذه يجوبون الأفاق في المنطقة للوعظ والإرشاد، وهذا ما أدّى إلى تضايق أمير (قوبير) GOBIR من حركة الشيخ عثمان، (وهو الأمير باوا) فاستدعاه ضمن عدد آخرين من العلماء وذلك بمناسبة الاحتفال بعيد الأضحى، وأعطاه خمسمائة مثقال من الذهب كهدية وتقربا من الشيخ عثمان الذي أصبح له من الأنصار في تلك المنطقة ممّا يدعو إلى التقرب منه بهذه الصّورة على الأقل، فرفض الشيخ عثمان هدية الأمير هذه وطلب منه عوضها أن يسمح له بما يلي في إمارته:

1- حقّ التجول في الإمارة للدعوة في سبيل الله.

2- عدم منع أي فرد من الاستجابة للدعوة والإرشاد.

3- احترام العلماء الذين يلبسون العمامة.

4- إطلاق سراح المساجين السياسيين.

5- التخفيف من الضرائب الباهضة على الرعية.

قبل الأمير (باوا) شروط الشيخ عثمان مرغما نظرا لتكاثر أنصاره وانتشار تلاميذه في تلك الإمارة بأعداد كبيرة ممّا كان يستوجب على الأمير عدم مخالفة الشيخ عثمان في تلك الفترة على الأقل.

في عام 1794 م توفي الأمير (باوا) وخلفه الأمير (نافتا) فنصب العداء لحركة الشيخ عثمان وللمسلمين عامة، وأصدر مرسوما بما يلي:

1- لا يجوز لأي أحد اعتناق الإسلام ما لم يكن قد ورثه عن والديه.

2- بإستثناء الشيخ عثمان فإنه لا يجوز لأحد غيره القيام بالدعوة للإسلام في البلاد.

3- منع وضع العمامة والخمار إطلاقا في البلاد.

ثمّ قام بحركة وأعمال واسعة لإضطهاد المسلمين في إمارته، وهذا ما دفع الشيخ عثمان لإعلان حركته الجهادية التي تعتبر الأولى من نوعها في السّوادين، ثمّ تبعه آخرون واقتفوا أثره فيما بعد، وذلك في جهات ماسينا وفوتا كما هو معروفا[1].

بدأت حركة الشيخ عثمان الجهادية في عام 1802 م، حين أصدر مرسومه أو دعوته السّودانيين إلى القيام بالجهاد ضدّ أمراء قوبير، وقد جاء في هذا المرسوم ما يلي:

- (... فاعلموا يا إخواني أنّ الأمر بالمعروف واجب إجماعا، وأنّ النهى عن المنكر واجب إجماعا، وأنّ أمير المؤمنين واجب إجماعا، وأنّ طاعته وجميع نوابه واجبة إجماعا، وإنّ الجهاد واجب إجماعا، وأنّ تأمير الأمراء في البلدان واجب إجماعا، وإنّ تأمير القضاة واجب إجماعا، وأنّ تنفيذهم أحكام الشرع واجب إجماعا، وأن حكم البلاد حكم سلطانه إجماعا، إن كان مسلما كان البلد بلدا إسلاميا، وإن كان كافرا كان البلد بلد كفر وجبت الهجرة منه).

بعد إصدار هذا المنشور كاتب الشيخ عثمان جميع الأمراء في بلاد الحوصا (نيجريا الشمالية) حاليا طالبا منهم الدّخول تحت طاعته على أساس

---

1 الشيخ أحمدوا في ماسينا 1818، ثمّ الشيخ عمر الفوتي في فوتا 1848م بشكل خاص.

الإسلام، فرفضوا دعوته هذه ما عدا أمير (زاريا) ، ممّا جعلــه يــدخل بأنصاره وتلاميذه الكثيرين حوله في حركة جهادية، انتصر فيها علـــى جميـــع الأمراء في بلاد الحوصا المترامية، وكوّن فيها دولة إسلامية تحت إمارته، وقـــد استمرت فترة الجهاد هذه والتي نظّمها وأشرف عليها بنفسه لهذا الغرض مـــن 1803 إلى 1810م.

تلقّب الشيخ عثمان بلقب أمير المؤمنين في دولته المترامية الأطراف هذه، وذلك خلال السنوات من 1810 إلى 1817، حيث وافاه الأجل، وخلال هذه الفترة ظلّ الشيخ عثمان يعمل بتفان كبير على تنظيم دولته طبقا لمفاهيم الإسلام ويسعى إلى ترقيتها اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا، فقد قسّمها إلى أربع عشرة ولاية جعل على كل منها أميرا من أنصاره.

لقد كان الشيخ عثمان بن فودي بالإضافة إلى كونه أوّل من قام بحركة (الجهاد) في بلدان الوسط الإفريقي على الشكل الذي تمّ توضيحه آنفا، رجـــلا عالما ومجتهدا، فقد ترك العديد من الرّسائل في موضـــوع الإجتـــهاد وفوائـــده ودواعيه، منها:

1- إرساء الأمّة تيسيرا لملّة.
2- هدايا الطلاّب.
3- توقيظ المسلمين على مذهب المجتهدين.
4- عماد العلماء.

وللشيخ عثمان حاليا في الجامعيات النيجيرية ولدى الخواص مجموعـــات كثيرة من الرّسائل في مواضيع شتّى، فمن المواضيع ذات الصبغة السياسية مثلا، هناك

1- رسالة في أصول الولاية.
2- رسالة في إحياء السنّة وبيان البدع.
3- رسالة في الجهاد.

4- رسالة في ترغيب العباد.
5- رسالة في الهجرة.
6- رسالة في نصائح الأمة.

وفي المواضيع المتعلقة بالمعاملات وغيرها، هناك مثلا
1- رسالة في علم المعاملة.
2- رسالة في تمييز المسلمين.
3- رسالة في نور الألباب.

وبعد نجاح الشيخ عثمان في تكوين دولته، أشاع عنه الكثيرون بأنه (المهدي المنتظر)، فرفض ذلك بشدّة، وصرّح مرارا بالنّفي لهذا الإدّعاء الباطل.

ويعتبر الشيخ عثمان بن فودي رجلا مجتهدا ومجدّدا، فبالإضافة إلى كونه رجل دولة كما سلفت الإشارة، فقد شرح وحثّ في رسالته (نور الألباب) بصورة خاصة على لزوم تعليم المرأة وتثقيفها كما أكّد على وجوب المعاملة الحسنة للعبيد، كما أنه كان أوّل من ترجم القرآن للغة الفولان كي يسهل على عامّة الناس فهمه.

أهمّ المصادر

1) Smith, H.F.C. A Neglected theme of west African History ; the Islamic revolution of the nineteenth century " Journal of the historical society of Nigeria, II, 1, 1961.

2) الألوري أدم — موجز تاريخ نيجيريا، بيروت 1965.

مجموع مخطوطات آل فودي بمكتبة جامعتي كانو و سوكوتو، في نيجيريا. ·

ابن فودي عبد الله
(توفي حوالي 1246 هـ - 1830 م)

هو عبد الله بن محمد بن صالح بن هارون بن محمد بن رجب ابن فودي، وهو أخو عثمان بن فودي. باشر تعلّمه في البداية مع أبيه، فحفظ القرآن الكريم، ثمّ توسع في دراسته مع العلماء والفقهاء في بلاده (ڤوبير)، وكان يرافق أخيه عثمان دائما في دروس الوعظ والإرشاد التي كان عثمان بن فودي يقوم بها في المدن والقرى المختلفة ببلاد الحوصة، وكثيرا ما كان عثمان بن فودي يوكل لأخيه عبد الله كتابة رسائل إلى من يطلبون منه الفتاوي، كما كان يكلّفه أيضا بالردّ على من يهاجمون آل فودي وجهادهم، أو من ينكرون عليهم تعليم النّساء والسماح لهن بحضور دروس الوعظ والإرشاد إلى جانب الرّجال، وفي هذا الموضوع بالذات كتب عبد الله رسائل كثيرة وبعضها كانت شعرا.

رافق عبد الله بن فودي أخيه عثمان لمدّة تقارب الخمسين عاما، وكان طيلة تلك السنوات سنده الأوّل، وحضر معه فترة الجهاد، فقاد الحملات الجهادية وأبلى البلاء الحسن في المعارك، وفي عام 1813 حين تمّ الانتصار وتشكّلت الدولة الإسلامية في بلاد الحوصة كنتيجة لجهاد آل فودي وأنصارهم، عيّن عثمان بن فودي أخاه عبد الله كمشرف عام على القسم الغربي من مملكته، فكانت سنوات توليه هذا المنصب الكبير لا تشوبها شائبة من حيث الإخلاص والتفاني في الأداء[1].

(1) قسم عثمان بن فودي مملكته إلى سبع ألوبة كبيرة، وكل منها تضم عدة مقاطعات والألوية هي: كاسئة، وشي، تمي، زكزك، كبي، كتاغم، وبورتو، وقد استرجع الكانمي هذه الأخيرة إلى سلطنة الكانم – بوتو، فيما بعد

ولـــمّا توفي أخوه عثمان، تنازل عبد الله ابن فودي، عن طواعيّة، لإبن أخيه محمد بيلو، وترك له نصيبه في الإشراف على القسم الغربي من الـــسلطنة ليتمّ ضمّه إلى القسم الشرقي الذي كان عثمان بن فودي قد أعطى الإشـــراف عليه لإبنه محمد بيلو، وبذلك أصبحت السلطنة بكاملها تحت إشراف ســـلطان واحد هو محمد بيلو بن عثمان ابن فودي، وربما كان هذا هو الهدف من التنازل عن الأقاليم الغربية من طرف عبد الله، أي المساعدة أو العمل علـــى أن يـــتمّ انصهار جزأي السلطنة تحت إدارة موحّدة، وممّا يدلّ على ذلك أنّ عبد الله بن فودي بقي يعمل في انسجام كامل بعد هذا التنازل. لإبن أخيه، يساعده وينسق معه، وكلّ ذلك ربّما كان من قبيل الاعتراف من عبد الله فـــودي والتقـــدير الكامل لمآثر أخيه عثمان بن فودي وإنجازاته.

كانت قضية حضور النساء مجالس الوعظ والإرشاد قد أثارت عقـــيرة البعض في أيام عثمان بن فودي، وممّن استنكرها وعارضه فيها أحـــد العلمـــاء البارزين في ذلك لوقت، وهو الشيخ مصطفى القوني، الذي أرسل احتجاجه إلى عثمان بن فودي في منظومة شعرية جاء فيها على الخصوص:

أيا ابن فودي قم تنذر أولي الجهـــلاء لعلّهم يفقهون الدّين والـــدُّنـــــا
فامنع زيارة نســـوان لوعظك، إذ خلط الرجال بنسوان كفى شينـــا
لا تفعلن ما يـــؤدّي للمصائب، إذ يأمر الله عيبا كان يـــؤذينـــــا

فلمّا وصل احتجاج الشيخ مصطفى القوني بهذا الشكل، طلب الـــشيخ عثمان ابن فودي من أخيه عبد الله أن يردّ على الشيخ مصطفى بالشعر أيـــضا وأن يكون من البحر نفسه أيضا، أي من وزن البسيط، فردّ عبد الله بما يلي:

يأيّها الذي قد جـــاء يرشـــدنــــا سمعا لما قلت، فاسمع أنت ما قلنا
نصحت جهدك لكن ليت تعذرنـــا وقلت سبحان، هذا كان بهتـــانا
إنّ الشياطين إذا جـــاءوا لمجلسنـــا هم يبثّون سوء القـــول طغيـــانا
لسنا نخالط بالنسوان، كيف، وذا كنّا نحـــذّر، لكن قلت، سلّمنـــا

إن كان ذلك، و لكن لا أسلم أن يتركن بالجل، هل كان إحسانا
إذا ارتكاب أخفّ الضر قد حتّما بكفر الجهل، إن ذا كان عصيانا
هذي البلاد وجدنا قومها غرقوا في جهل يمنعهم أن يفقهوا الدّنيا
قد قيل: تحدّث للأقوام أقضيه يقدر ما أحدثوا، خذ ذاك ميزانا
الحمد الله ذي الأنعام هادينا ثمّ الصلاة على المختار هادينا

آثار أخرى

بالإضافة إلى ما عرف عن عبد الله بن فودي من حنكة في التسيير، ومساهمة في الجهاد والإصلاح، فقد عرف للرّجل أيضا مساهمات هامّة في التأليف وفي نظم الشعر، فمن مؤلّفاته التي لا تزال تحتفظ بها الجامعات النيجيرية:

- ألفية الأصول.
- بحر المحيط في النّحور.
- تزيين الورقات.
- تفسير ضياء التأويل.
- سبيل النّجاة.
- ضياء السياسة.
- مفتاح التفسير.

أهمّ المصادر

1- الألوري آدم، موجز تاريخ نيجيريا، بيروت 1965.
2- يحي بوعزيز، تاريخ افريقيا الغربية الإسلامية من مطلع القرن السادس عشر إلى مطلع القرن العشرين، الجزائر 1989.
3- مجموع مخطوطات آل فودي في مكتبة جامعة كَانُو، ومكتبة جامعة سوكوتو، في جمهورية نيجيريا.

بيلو محمد بن عثمان
(ت: 1253 - 1254 م)

هو محمد بيلو ابن عثمان بن فودي، درس على أبيه بالدرجة الأولى، كما درس أيضا على آخرين في بلده، وقد عرف بسعة الإطّلاع على علوم عصره، وخاصة الفقهيّة واللّغوية. وفي سنوات الجهاد الذي قام به أبوه، كان محمد بيلو بمثابة الساعد الأيمن له، فخاض المعارك وكتب الرسائل ردًّا على محمد الأمين الكانمي وعلى غيره ممّن أنكروا على آل ابن فودي قيامهم بالجهاد ودعوتهم الناس له واعتبروهم مجرد ساعين للسلطة مختفين وراء الجهاد الذي لا تتوفّر لديهم شروطه.

من أهمّ مؤلفات بيلو كتابه (إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور) وهو كتاب جامع اشتمل خاصة على كلّ الرسائل التي تبادلها المؤلف مع محمد الأمين الكانمي أثناء احتلال أجزاء من (بورنو) من قبل آل ابن فودي، واستنكار محمد الأمين الكانمي لأعمالهم واعتباره لهم مجرد طالبين للملك وليسوا مجاهدين، كما تحدث في هذا الكتاب عن المعارك الطاحنة التي خاضها إلى جانب أبيه وعمّه أثناء فترة الجهاد، وتحدث عن أهل (قوبير) الذين كانوا وثنيّين وأعلن آل فودي الجهاد فيهم وذكر بأن أصلهم الأصيل من أقباط مصر، ثمّ هاجروا منها قديما إلى منطقة (قوبير) من بلاد الحوصا، وقال إنّهم سلكوا طريق المغرب في هجرتهم تلك واستقرّوا في نهاية الأمر في (قوبير).

وفي هذا الكتاب توسّع محمد بيلو في الحديث عن جغرافية بلاد الفولان وبلاد الحوصة، ولا شكّ أنه فعل ذلك لأنّ بلاد الفولان يرجع أصله لها، ذلك أنّ آل فودي هم فولانيّون بالأصل كما أنّ بلاد الحوصة هي التي استقرّ بها آل فودي وقاموا فيها بحركتهم الجهادية وأقاموا بها دولتهم.

وذكر محمد بيلو في هذا الكتاب أيضا سيرة عالمين كانت لهما شهرة وهما: محمد الكشتاوي والقاضي محمد بن أحمد التّاذهتي، فأتى على سيرتهما باعتبارهما من علماء قوبير، كما تحدّث طويلا عن سيرة أبيه عثمان بن فودي وعن مناقبه وجهاده وطريقته في الوعظ والإرشاد وحسن إخلاصه في تعليم الناس ووقوفه الصارم ضد المفاسد والبدع، وسعيه الدائم لإعلاء راية الإسلام وتثقيف المرأة.

في عام 1813 م تمّ الإنتصار لآل فودي على جميع بلاد الحوصة، فنظّم عثمان فودي دولته على أساس الأقاليم الغربية والأقاليم الشرقية، وأعطى الإشراف على الأقاليم العربية لابنه محمد بيلو والإشراف على الأقاليم الشرقية لأخيه عبد الله، لكن بمجرد وفاة عثمان بن فودي تخلّى أخوه عبد الله عن الأقاليم الشرقية المخصصة له لابن أخيه محمد بيلو، وتتّفق المصادر على أنّ هذا التخلّي كان عن طواعية من طرف العمّ لابن أخيه لما كان يعرفه عنه من كفاءة وإخلاص، واحتراما وتقديرا كذلك لمقام أخيه عثمان وجهاده.

دام حكم محمد بيلو واحدا وعشرين سنة واشتهر اسمه على رأس دولة إسلامية جاء بها الجهاد، فزاره عدد من العلماء وراسلوه، منهم أحمد البكّاي الكنتي، زعيم تمبكتو، وكذلك الحاج عمر الفوتي، الذي كانت له صداقة متينة مع محمد بيلو، باعتباره سلطانا وزعيما إسلاميا وعالما كبيرا، فأقام عنده ثماني سنوات، وهو في طريق العودة من الحجّ، وتزوّج إحدى بناته، كما زاره في عام 1824 الرحالة الانكليزي (كلابرتون)، وتسلّم منه رسالة وجهها محمد بيلو إلى ملكة انكلترا، بعد أن تعرف عليها من كلابرتون، وطلب منها في تلك الرّسالة أن تكون معاملتها للمسلمين حسنة في بلادها.

كانت السنوات الأولى من حكم محمد بيلو مليئة بالإضطرابات، حيث رفضت بعض القبائل الإعتراف بحكمه، غير أنّه استطاع في الأخير التغلب عليها وإخضاعها، وذلك يعود إلى أنّ قادة النّواحي (رؤساء الألوية الأربعة عشر) كما كان قد وضعها أبوه، استمرّوا في الإخلاص له.

اشتهر محمد بيلو بحبّه للعلم وتبجيله للعلماء، كما كان مؤلفا ومـــداوما على التأليف ونظم الشعر، وقد قضى السنوات الأخيرة من حكمه في هدوء بعد أن تغلب على الثائرين عليه والرافضين لحكمه من زعماء القبائل، وهـــذا مـــا ساعده على تأليف العديد من الرسائل في مواضيع متنوعة.

آثـــاره

من التصانيف الهامة التي تركها محمد بيلو بعد رحيله، كتابان هامان هما
1- إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور.
2- مجموعة الرسائل.

أهمّ المصادر

1- مجموعة مخطوطات آل فودي في مكتبة كلّ من جامعتي كانو وسوكوتو.
2- الألوري آدم. موجز تاريخ نيجيريا: بيروت، 1965.
3- يحي بو عزيز تاريخ افريقيا الغربية الإسلامية من مطلع القرن الـــسادس عشر إلى مطلع القرن العشرين: الجزائر 1989.
4- Encyclopaeda Of Islam (ALL Editions كلّ الإصدارات

أحمد لوبو الماسيني
(1775 – 1844 م)

تقع منطقة ماسينا إلى الشمال من مدينة جنّي التي كانت لها شهرتها في منطقة الغرب الإفريقي خلال القرون السادس عشر والسابع عشر وحتى الثامن عشر كذلك، حيث كانت تحتل من حيث الشهرة العلمية بصورة خاصة مكانتها المرموقة إلى جانب تمبكتو، كما تثبت ذلك كتابات المؤرخين السودانيين من أمثال: (عبد الرحمان السعدي ومحمود كعت)، وقد اشتهرت جنّي كما اشتهرت تمبكتو بازدهار الثقافة بها، نظرا لما كانت تلاقيه من توارد القوافل التجارية عليها بشكل خاص، وفي مدينة ماسينا ولد وترعرع أحمدو لوبو المعروف بالماسيني، وبعد أن أتمّ حفظ القرآن الكريم في ماسينا رحل إلى مدينة جنّي حيث واصل تعلّمه بها لعدة سنوات و لم يعد لمدينته إلاّ بعد أن تضلّع بقدر ما استطاع في علوم الفقه والتفسير والحديث الشريف، وكذلك التاريخ الإسلامي والسير والتراجم.

وعند عودته إلى ماسينا جلس للوعظ والإرشاد وتثقيف الناس وتعليمهم علوم دينهم الحنيف، وركّز بصورة خاصة على دعوة مواطنيه إلى نبذ الخرافات وإلى التخلص من بقايا العادات الوثنية التي كان لا يزال لها وجود في سلوكهم، مثل إمانهم بخرافات الإيحائيّين، وغير ذلك من البدع السحرية التي هي بقايا الوثنية في عادات الناس، فلقي من حكام ماسينا معارضة شديدة لحركته هذه، و لم يحتمل أولئك الأمراء، دعوته هذه، ممّا اضطره إلى الهجرة إلى مكان يدعى (روندي سيرو) غير بعيد من مدينة جنّي، فانتظم حوله العدد الكافي من الأنصار وأعلن الجهاد ضدّ أمراء (البامبرا) المنحرفين عن لإسلام، لإيمائهم بعقائد الإيحائيين الوثنية واستهتارهم بالإسلام، ووجّه في الوقت ذاته انتقادات لاذعة للذين يدعون العلم في ذلك الوقت فينسبون أنفسهم للعلماء ولكنّهم يخلّون بواجبهم ولا يتصدون لمحاربة المنحرفين من الأمراء والمتقربين منهم والمناصرين

لهم، ممّا يجعل عامة الناس تستمر في الإيمان بالأباطيل والبدع والخرافات التي هي ليست من الإسلام في شيء.

وقد نجحت حركة أحمدو لوبو بسرعة وتمكن أنصاره في وقت قصير من التغلّب على أمراء المنطقة، فخضعت له مدن جنّي وماسينا وكآرتا بسهولة، نظرا لما لقيته دعوته من إقبال، وبالنظر كذلك إلى ما كان للأمراء في تلك المدن من قلّة احترام لدى الناس، ذلك أن سلوكهم في الحكم كان سيّئا وكانوا يفرضون من الضرائب والتّغريم والظّلم قدرا لم يكن سكّان تلك المدن راضين عنه.

وفي عام 1815م. أسس أحمدو لوبو مدينة (حمد الله) ، على ضفة النيجر الشرقية، في منطقة خصبة كعاصمة لدولته التي سيّرها على الطريقة الإسلامية كما يريد.

بدأ أحمدو لوبو في تنظيم دولته بدعوته لإجتماع ترأسه بنفسه، ودعا إليه كل الوجهاء في المنطقة من علماء وتجّار كبار وذوي رأي، وأوّل ما ترجّاه منهم هو رصّ الصفوف والإتحاد على غرض واحد هو تأسيس دولة عادلة طبقا لتعاليم الإسلام، وكانت نتيجة هذا الإجتماع أن اتّفق الجميع على تكوين لجنة عدد أفرادها مائة شخص، والهدف منها هو تقديم الإقتراحات العملية لتكوين دولة إسلامية بالمعنى الصّحيح.

وقد إشتغلت تلك اللجنة في ظروف طيبة، وكان ممّا اقترحته أن يتكون لنظام الدولة المنشود مجلس شورى يضمّ أربعين عالما ويتولّى كبيرهم في السنّ رئاسته، بالإضافة إلى اقتراحات أخرى ثانوية، وقد قبل أحمدو لوبو كلّ الاقتراحات المقدمة له، وتحدد دوره في مجلس الشورى كعنصر من أعضائه فقط.

كان لحركة عثمان بن فودي تأثير واضح في المنطقة، وخاصة لدى أحمدو لوبو الماسيني، ولذلك عمل على تقسيم دولته هذه إلى خمس ولايات،

نظرا لصغرها النسبي بالقياس إلى اتساع دولة ابن فودي من حيث المساحة، وعين على كلّ ولاية أميرا يساعده رجل عالم متفقّه في الدين، ولهذا العالم السّلطة المطلقة والمستقلة بحيث يمكنه انطلاقا من سلطته المستقلة هذه أن يأمر بإلقاء القبض على أمير الولاية أو بأمر بمحاكمته إن هو أساء التصرف في الولاية أو أخطأ الصواب في تسييره لها.

وممّا يلفت الانتباه أكثر في دولة أحمدو لوبو الجهادية هذه، عمله على استقرار البدو في أماكن ثابتة، كما عمل على إقامة نظام اقتصادي يتماشى وتعاليم الإسلام في أرجاء دولته، وشجّع على التعليم، وقرب إليه العلماء والفقهاء، وأمر ببناء المساجد في جميع المدن والقرى كذلك، و لم يتخلّ عن وظيفته الشرعية كما كان يراها في الوعظ والإرشاد، فقد كان يتولى الإمامة يوم الجمعة بالمسجد الكبير في حمد الله، ويلقي خطبة الجمعة، كما كانت له دروس في التفسير يقوم بها في أوقات معيّنة بالجامع الكبير في حمد الله.

وفي سنة 1817 أرسل أحمدو لوبو بعثه إلى سوكوتو لتلتقي بالسلطان محمد بيلو، بقصد توطيد العلاقات بين هذين النّظامين اللذين جاء بكلّ منهما على حدة، (الجهاد في سبيل الله) وكانت تلك البعثة تتركب من أخوين لأحمدو لوبو، وقد لقيت كلّ الترحاب من طرف سلطان سوكوتو وحاشيته، وحتى سنة 1838م. ظلّت مملكة ماسينا يؤمّها التّجار من كل صوب نظرا لإستقرار نظامها ولما كان يتمتّع به حكّامها من سمعة طيبة وعدل بين الناس، غير أن هناك خلافات تواجدت لعدة سنوات بين الزعيم الكنتي في تمبكتو (سيدي أحمد البكّاي) وبين أحمدو الثاني)، ويتبيّن من الرسائل المتبادلة بين الرّجلين أنها كانت تتعلق بما كان يراه أحمد البكّاي من سلوكات لأحمدو لوبو وابنه بعده لا

1 ابن فودي قسم مملكته إلى سبع ألوية كبيرة، وكلّ منها تضمّ عدة مقاطعات، أما الألوية فهي: كاشنة، بوشي، قمبي، زكزك، كبي، كتاغم و بورنو (إلا أن الكانمي استرجع هذه الأخيرة إلى سلطنة (كانم — بورنو) فيما بعد.

تماشى والإسلام، وذلك حسب سيدي أحمد البكّاي، لأنّ الحكام الماسنيين في حمد الله تقصر إمكانياتهم عن الفهم العميق للإسلام، نظرا لعدم تمكّنهم من فهم اللّسان العربي كما يفهمه العرب.

أهمّ المصادر

1- مراسلات حمد الله – مخطوطات مكتبة أحمد بابا التمبكتي في تمبكتو.

2- أ.د. يحي بوعزيز – تاريخ أفريقيا الغربية الإسلامية من مطلع القرن السادس عشر إلى مطلع القرن العشرين – الجزائر 1989.

3- BARTH, H; Travels and discoveries in notherm and central Africa, London 1855.

4- A. ZEBADIA, AHMED AL-Bakkay of Timbuctu Revue d'histoire Megrebine, 1975.

الحاج عمر الفوتي التيجاني
(1794 – 1864 م)

كانت حركة الحاج عمر الفوتي من أكبر الحركات (الجهادية) في إفريقيا الغربية والوسطى. وقد بدأ حركة الجهاد هذه الشيخ عثمان بن فودي في عام 1802 م. وأسّس بذلك دولة إسلامية في سوكوتو في نيجيريا الحالية ثمّ مدّ نفوذه بعد ذلك على مدن وجهات أخرى في الشمال النيجيري، وقد تبعه في حركة جهادية مماثلة الشيخ أحمد الماسيني (شيخو أحمادو) في عام 1818، والذي اتّخذ من مدينة (حمد الله) الواقعة على نهر النيجر الأعلى (في منطقة ماسينا الحالية بجمهورية مالي) عاصمة له، وفي تلك الفترة كانت منطقة (تشاد – بورنو) تحكمها أسرة الكانميّين على الطريقة القادرية بمثل ما هو الأمر في إمارتي سوكوتو و ماسينا.

لقد كانت الطريقة القادرية (نسبة إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني الصّوفي المعروف)، قد انتشرت في بلدان السّوادين عن طريق الدّعاة القادريين في وقت مبكر، أما الطريقة التيجانية فقد كانت فكرتها جديدة، وكان التيجانيون يعتبرون أنفسهم، لهذا السبب مجدّدين ومصلحين، كما هو الحال بالنسبة للطريقة الخلواتية في مصر والطريقة الوهابية في الجزيرة العربية، ومن هنا كانت حركة الشيخ عمر الفوتي (الجهادية) بمثابة ثورة على الدّول القائمة في المنطقة وذلك لإستبدال الطريقة القادرية التي تقوم على تفسيرات الفقهاء فقط بالطريقة التيجانية (الإصلاحية المجدّدة) والتي تقوم على أساس الدّين الإسلامي "الصحيح" كما كان في عهد الخلفاء الرّاشدين، والذي لا يقوم على أقوال الفقهاء فقط، وإنّما يفتح المجال واسعا للاجتهاد الشخصي الذي يقوم على تصفية القلب واستيحاء الضمير[1].

---

(1) الطريقة التيجانية كان قد أسّسها في عام 1781 الشيخ أحمد التيجاني المولود في مدينة عين ماضي بالجزائر، ثمّ ما لبث أن أصبح لها صدى و ممثلون وأتباع في كلّ البلدان الإسلامية فيما بعد.

ولد الحاج عمر الفوتي (نسبة إلى منطقة فوتا في السنغال الحالي) في عام 1791م على الأرجح في قرية (هالورا)، وكان أبوه متعلما فاستفاد عمر من ذلك في البداية، وحفظ القرآن الكريم وهو في الثانية عشرة من عمره، ثمّ تنقّل بعد ذلك في طلب العلم إلى جهات عديدة بالسّودان الغربي وفي موريطانيا أيضا، وفي عام 1822 إلتقى في (فوتاجالون) بالشيخ عبد الكريم الناقلي مقدم الطريقة التيجانية في تلك المنطقة وتلقّى منه دروسا في الصوفية، والشيخ عبد الكريم هو الذي كان له في البداية الدّور الأكبر في اختيار الشبخ عمر للطريقة (الإصلاحية) الجديدة هذه، فقد صاحبه عمر لمدة تزيد عن السّنتين وتلقى على يده أذكار التيجانية وأورادها، كما بدأ الرجلان معا التحضير للحجّ، إلاّ أن المنية عجّلت بالشيخ عبد الكريم، فقام عمر بالسفر إلى الحج دون أن يكون الشيخ عبد الكريم في صحبته.

أخذ الشيخ عمر طريقه للحج في عام 1824 م، فمرّ أولا بماسينا ثمّ مرّ بسوكوتو قبل أن يذهب إلى مصر مارّا بفزّان، وفي هذه الأثناء كـــان يراقـــب أنظمة الحكم القائمة (السّنيّة – القادرية) في كلّ من ماسينا وسوكوتو وبورنو – تشاد، والتي هي نتائج لحركان (جهادية) كانت قد قامت بها الأسر الحاكمة في تلك البلدان.

وفي المدينة المنوّرة بقي الحاج عمر ثلاث سنوات إلى جانب الشيخ محمد الغالي ممثّل التيجانية في الحجاز، فتعمّقت معارفه أكثر بهذه الطريقة وأذكارها، ثمّ أعطاه الشيخ محمد الغالي تفويضا ليكون ممثل التيجانية في بـــلاد التّكـــرور كلّها، وأثناء عودته إلى القاهرة أكثر الشيخ عمر من التقائه بعلمـــاء الأزهـــر، وكانت الطريقة الخلواتية آنذاك لها أتباع كثيرون بين علماء الأزهر، وهي قريبة في أهدافها العامّة من حيث (فكرة التّجديد) هذه من الطريقة التيجانية كما هو معروف.

وبمجرد العودة إلى بلاد السّوادين بدأ الحاج عمر بالدعوة للتيجانية، ففي منطقة (بورنو – تشاد) جمع حوله جموعا صغيرة إلى حدّ ما، وبدأ التهجّم على (الجهل و الجـــجُمود) وانضمّ إليه أيضا بعض أفراد العائلة المالكة الناقمون على الحكم، ممّا أدخله في خلاف أيديولوجي شديد مع الشيخ محمد الكانمي تلـــك المتنفذ الكبير في البلاد المتنفذ الكبير في، فانتقل إلى سوكوتو وبقي بهـــا عـــدّة سنوات، ويبدو أنه أخذ درسا من الهجوم المباشر الذي كان قـــد قـــام بـــه في (بورنو – تشاد.) تزوّج الشيخ عمر للمرّة الرابعة وكوّن له مريدين، وكتـــب وهو في سوكوتو عددا من الرسائل في أوارد الطريقـــة التيجانيـــة وأذكارهـــا ومفاهيمها.

وعند مغادرته سوكوتو كان صيته قد ذاع وكثر أتباعه، ولكنه لم يستطع البقاء في (ماسينا) إلاّ تسعة أشهر فقط، حيث ضاقت العائلة المالكة (القادرية) بدعوته وعمله للطريقة التيجانية خوفا مـــن أن يـــؤدي ذلـــك إلى إحـــداث الاضطرابات والشغب، فعزم بعض افرادها على قتله فغـــادر (حمـــد الله) في طريقه إلى بلاده (فوتا) ومرّ بمملكة (سيغو) الوثنية ،فلم يجد الاحترام منـــذ البداية، ولكنه لم يبق بها إلاّ وقتا قصيرا، وفي بلاده (فوتا) اتخذ الحاج عمـــر مقرا لأتباعه المتكاثرين ولعبيده، زذلك في بلدة (ديقونكو) فعمل هناك مـــدّة على تثقيفهم وتمكينهم من مبادئ التيجانيـــة وأهـــدافها، وكتـــب وهـــو في (ديقونكو) عددا من الرسائل في مبادئ التيجانية وأهدافها واعتمادها علـــى حصافة الرأي والإيمان بالأولياء الصّالحين، ثمّ حدث أن هذا المقـــر لم يعجبـــه، فاشترى قرية (دينقيرايي) من أمير (تامبا) ليتّخذ منها قلعة عسكرية له مدنيـــة ولأتباعه، وهذا ربما كان في رأي الشيخ عمر على غرار ما فعله الرّسول صلى الله عليه وسلم حين هاجر إلى المدينة المنورة واتّخذ منها قاعدة مدنية وعسكرية وبدأ منها هجوماته على (الكفّار)، ففي دينقيرايي كوّن الحاج عمر جيشه ونظّم تجارته مع المراكز التجارية الأوروبية (سان لوي) وفي (غمبيا) لإقتناء الأسلحة، ومن دينقيراي هذه بدأ الحاج عمر حركته " الجهادية " هذه في عـــام 1854م.

فاكتسح بسهولة منطقة الوثنيين في الغرب، ثم اتجه إلى الشمال عند مجرى نهر السّنغال، فوجد الفرنسيين أمامه فتراجع، وبعد ذلك اتجه نحو الشرق فقضى على دولة (سيقو) الوثنية أوّلا في عام 1858 م. ثمّ احتلّ ماسينا في عام 1862 وبعد هذا اتّجه نحو تمبكتو فدخلها جيشه ويقال إنه عاش فيها فسادا كما فعل في بقية المدن التي احتلّها في السابق، غير أنّ زعيم تمبكتو الشيخ البكّاي استطاع أن يجمع بعد ذلك حوله الأنصار وخاصة من قبائل الطّوارق، ويخرج جيش الحاج عمر منهزما من تمبكتو، فاختبأ الحاج عمر بنفسه أثناء هذه الهزيمة في مغارة (باندیا غارا) قرب نهر النيجر وفيها وافته المنية في شهر فيفري سنة .1864

لقد كان الحاج عمر يريد أن يؤسس دولة إسلامية مركزية تشمل كلّ الغرب الإفريقي، وتستوحي في ذلك مبادئ الطريقة التيجانية في الإجتهاد، ولكنّ رجال الطريقة القادرية التي كانت متأصّلة في المنطقة قبل التيجانية، تصدّوا لطموحاته، وكانت النتيجة أنّ المعارك التي شنّها الحاج عمر قد أضعفت تلك المنطقة وسهّلت مهمّة الفرنسيين اللذين كانوا آنذاك يراقبون ويخطّطون للإحتلال، و لم يستطع الشيخ ساموري توري الذي قام في منطقة غينيا الحالية بالمقاومة لعدّة سنوات، من ردّ العدوان فتابعوه حتّى ساحل العاج وليبيريا الحاليتين، وقبضوا عليه، وقد كان ساموري توري ينتقل في معاركه ضدّ الفرنسيين من مكان إلى آخر، فحين يتغلّبون عليه في موضع، ينظّم ضدّهم القتال في موضع آخر، واستطاع بهذه الطريقة أن يقف ضدّهم لعدّة سنوات، أما الحاج عمر قبله فإنه لم يقاتلهم ربما لكونه كان يريد تكوين دولته الإسلامية أوّلا وعلى كلّ حال، فإنّ الفرنسيين في ذلك الوقت كانوا لا يزالون يراقبون الأوضاع عن قرب، ويخططون للإحتلال فيما بعد.

أهم المصادر

1- الحاج عمر الفوتي، رماح حزب الـــرحيم – مخطـــوط بمكتبـــة IFAN في داكار.

2- الحاج عمر – رماح السّعيد، وهو على هامش كتـــاب ســيدي أحمـــد التيجاني، مؤسس الطريقة التيجانية، وعنوانه (جوهر المعاني) ، نشر بالقاهرة في عام 1383 هـــ.

3- أحمد بن بدي – الدّرع والمغفر – مخطوط بمكتبة IFAN في داكار.

4- أ.د عبد القادر زبادية – الحضارة العربية والتأثير الأوروبي في أفريقيا الغربية جنوب الصحراء – الجزائر 1989.

5- محمد حافظ المصري – سلطان الدولة التيجانية – مخطوط في مكتبة IFAN بداكار.

6- Charles André Julien et al. Les Africains – Paris 1977.

أحمد البكّاي الكنتتي

(توفي سنة 1866م)

تتوزّع قبيلة كنته الكثيرة الفروع والكبيرة العدد كذلك بين منطقة أروان في موريطانيا الحالية وتوات في الجنوب الغربي من الجزائر، ومنطقة أزواد إلى الشمال من تمبكتو في جمهورية مالي حاليا. وفي كلّ من هذه الأماكن الثلاث توجد زوايا بإسم زاوية كنته، كان يرتادها طلاّب العلم ويجدون فيها ضالّتهم من حيث الإيواء والدراسة بشكل خاص.

وخلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كان لعلماء زاوية كنته في أزواد أدوار ثقافية وعلمية امتدت إلى تمبكتو ونواحيها، وقد اشتهر من علماء كنته في أزواد خلال هذه الفترة الشيخ سيدي المختار الكنتي المتوفي في عام 1730م. ثمّ تلاه الشيخ سيدي المختار الصغير الذي لم تدم زعامته إلاّ لفترة قصيرة قبل أن يتوفاه الله، ثمّ جاء بعده الشيخ سيدي محمد الذي ألّف في مناقب أبيه سيدي المختار الكبير كتابا سمّاه (الطرائف والتّلائد) إلى جانب تصنيفات له أخرى في علوم الفقه واللغة وكذلك الشعر.

واقتصرت زعامة الكنتيين في عهد كل من سيدي المختار الكبير وسيدي محمد وكذلك سيدي المختار الصغير على الإفتاء والإصلاح بين القبائل في المنطقة، إلى جانب التعليم والوجاهة التي يعطيها لهم عادة كونهم علماء ورجال حكمة وفقه، كما كانت لهم مراسلات مع عثمان بن فودي مؤسس الحركة الجهادية في سوكوتو والتي نشأ عنها تكوين أوّل دولة تسيّر في نظامها طبقا للنظام الإسلامي الصّحيح، وكان الوجهاء والأمراء في المنطقة بما فيهم الوثنيّون، يرسلون بأبنائهم إلى زاوية كنته وفرعها في تمبكتو للتّعلّم والتثقّف، خاصة وأن اللغة العربية كانت هي لغة الكتابة الوحيدة في المنطقة كلّها، وذلك قبل الاحتلال الأوروبي في نهاية القرن التاسع وبداية القرن العشرين[1].

(1) عبد القادر زبادية – الحضارة العربية والتأثير الأوروبي في إفريقيا الغربية جنوب الصحراء – الجزائر 1989

كان الطوارق، سكان الصحراء إلى الشمال من أزواد، يخيفون سكّان تمبكتو ونواحيها بهجماقم وقوّة بأسهم، وكان لهم مع الزّعامة الكنتية شبه تفاهم مستمر وهذا ما أعطى للعلماء الكنتيين شبه قوة دفاعية كثيرا ما كانوا يستندون عليها في خلافاقم مع الولاة والحكام في تمبكتو وما سينا أيام أحمد لوبو وابنه على الخصوص.

وسيدي أحمد البكّاي الكنتي هو ابن سيدي محمد الكنتي ابن سيدي المختار الصغير الكبير وهو أصغر أخوته، وقد تولى الزّعامة بعد موت أخيه سيدي المختار وامتاز عهده في الزعامة بخلافات واضطرابات في المنطقة، بدأت أوّلا مع الماسنيين زعماء الحركة الجهادية في (حمد الله)، وذلك أن سيدي أحمد البكاي أنكر عليهم بعض إدّعاءاقم الجهادية، واعتبر أن فهمهم للإسلام غير متكامل ولا سليم، وذلك لكوهُم، (زنوجا) لا يفهمون اللغة العربية كما يجب، وله في ذلك مراسلات معهم، كثيرا ما اتّسمت بشيء من التشنيع وردّ الفعل، ثمّ ازدادت الأمور تفاقما بينهما حينما استقبل سيدي أحمد البكّاي الرّحّالة الألماني (بارث) وأواه وحماه لمدّة طويلة، كان الماسنييون خلالها يريدون إلقاء القبض على ذلك (النّصراني) لدخوله تمبكتو التي كانت نظريا على الأقل تحت حكمهم، دون استئذان منهم، زيادة عن كونه ليس مسلما، وذلك كلّه ممّا كان يستوجب في نظرهم إلقاء القبض عليه، إلاّ أن سيدي أحمد البكّاي أصرّ على حماية (بارث) مستعينا في أحيان كثيرة على دعوة الطّوارق للمجيء إلى تمبكتو والتنسيق مع زعمائهم كلّما ازدادت علاقاته مع (حمد الله) تفاقما، وكان الدكتور (بارث) قد جاء إلى المنطقة للإستكشاف، مبعوثا من طرف الجمعية الجغرافية اللندنية، وبسببه تحدّى سيدي أحمد البكّاي حمد الله، وبدا وكأنه الحاكم الفعلي في تمبكتو، وليس كرئيس لزاوية الكنتيين بها فقط، وقد نعته بارث في مذكّراته بأنه كان شديد الذّكاء وجسورا لا يستطيع أحد أن يرجعه عن مراده، حتّى أنّه صمّم على أن يقاتل الفرنسيين حينما غزوا واحة ومدينة ورقلة في الجنوب الجزائري وذلك سنة 1854، وأراد أن يبعث عليهم بجيش من

أنصاره الكثيرين ليردّ شرّهم عن بلاد المسلمين ولكنّ (بارث) ردّه عن ذلك وشرح له مدى توفّر الجيوش الفرنسية على الأسلحة القوية وخاصة المدافع ومدى ما لديهم من تدريب على القتال.

استقرّ أحمد البكّاي في تمبكتو، وتسلّم زعامتها، حيث كان لناس يردون عليه باستمرار كعالم فقيه وزعيم للقادرية في المنطقة، وفي هذه الأثناء قام بأداء زيارة إلى محمد أمين الكانمي في بورنو فاستقبل استقبال الزعماء، وكان موكبه أثناء هذه الزيارة كبيرا، وحينما ظهرت التيجانية بواسطة الحاج عمر، كحركة ثقافية دينية وسياسية جديدة على المنطقة اهتمّ أحمد البكّاي بشأنها وأقلقته كثيرا، فبدأ أولا بمكاتبة رجالاتها في المغرب الأقصى والردّ على ادّعاءات التيجانيين من العلماء والمفكّرين، يفنّد أقوالهم بكلّ الحجج لفقهية على الخصوص، أمّا عندما بدأ الحاج عمر في حركته الجهادية بالسّيف، فإنّ أحمد البكّاي لم يتوان لحظة في استدعاء أنصاره من الطوارق والسودانين للمجابهة بالقوّة التي يتطلبها الموقف كما كان يراه، وقد أسفرت تلك المجابهة الشاملة عن انهزام جيش الحاج عمر وقتله في نهاية الأمر.

وفي هذه الأثناء كان الفرنسيون قد دخلوا الجنوب الجزائري محتلين مما جعل بعض السكان في المنطقة السّودانية يهرعون إلى زعيم تمبكتو لردّهم عن بلاد المسلمين وذلك لأن الفرنسيّين كانوا يخطّطون لإحتلال بلاد السّودان الغربي بكاملها، وقد كان سيدي أحمد البكّاي قلقا من هذا التواجد المعادي من طرف الفرنسيين تجاه المنطقة كلها، ممّا جعله يلجأ إلى مكاتبة الحكومة الإنكليزية راجيا منها التدخل لردّ الخطر الفرنسي، ولكن الإنكليز لم يستجيبوا لطلبه.

إن التجاء أحمد البكّاي للإنكليز جاء بمعرفة منه أن إنكلترا كانت لا ترغب في احتلال منطقته، وهدفها فيها كان للتجارة فقط، وقد أكد له ذلك الرّحالة الألماني الذي كان في خدمة الجمعية الجغرافية في لندن، هنريش بارث،

والذي بقي في حماية البكّاي رغم المعارضة الشديدة للماسنيين في (حمد الله)، وذلك من شهر سبتمبر 1853 إلى شهر جويلية 1854، كما أنه كان على علم بما كان الرّحالة الإنكليزي (لانف) أكّده إلى أبيه سيدي محمد، حينما كان LAING مارًا بأزواد في عام 1826، حيث أكّد على أنّ أنكلترا ليس لها من رغبة في تلك المنطقة ما عدا التجارة فقط، وليست لها أية نيّة في الإعتداء أو الاحتلال.

من أهمّ مؤلفات أحمد البكاي، كتاب ألّفه في الردّ على التيجانية، يقع في خمسمائة ورقة، أرسله إلى (أكنسوس) شيخ التيجانية في مراكش، وفيه اعتبر البكّاي أنّ مزاعم للتيجانية في الاجتهاد الشخصي وغيره، إنّما هي من قبيل البدع، ولا يجوز الأخذ بها لأنّها مخالفة للإسلام، وقد أبدى في هذا الكتاب مدى التمكّن الذي كان يتمتع به في الميدان الفقهي، وكذلك براعته في الأسلوب اللّغوي السّلس والمتين، كما أنّ هناك للبكّاي رسائل كثيرة وفتاوى تراسل بها مع العديدين في زمانه، وهي لا تزال موجودة لدى عدد من المكتبات في العالم، وحينما توفي في عام 1866م. كان الفرنسيون لم يصلوا في احتلالهم بعد، إلى تمبكتو، ولكنّه كان قد أدرك أهدافهم مسبّقا، وحاول إيجاد السّبل لإبعاد خطرهم، كما كان قد فعل مع التيجانية الواردة على المنطقة قبل ذلك.

أهمّ المصادر

1- A. ZEBADIA « The career of Ahmed Al-Bakkay in the oral evidences and recorded documents » **Revue d'histoire Maghrebine, Tunis, 1-1975. PP75-83**

2) البكّاي إلى علماء مراكش (مخطوط الخزانة العامة بالرّباط).

3) البكّاي إلى أكنسوس (مخطوط الخزانة العامة بالرّباط).

4) البكّاي إلى علي بن مونزون (مخطوط المكتبة الوطنية في باريس).

5) البكّاي إلى أحمادو (مخطوط المكتبة الوطنية في باريس).

6- DEVEYRIER, exploration du sahara – les Touareg du Nord, Paris 1864.

7- H. BARTH, travels and discoveries .... London 1954.

8- AL-BAKKAY, to English government (P.R.O. – London)

9- MUHAMED IBN AL-KATTAR, to Claredon, and HERAN to Foreign office (P.R.O. – London)

الكانمي محمد أمين

(ت 1262 – 1263 هـ / 1846 م)

ينحدر الحاج محمد أمين الكانمي من عائلة ملكية حكمت منطقة (الكانم. بورنو) منذ عام 1000م (ينظر آدم عبد الله الأولوري. موجز تاريخ نيجيريا، بيروت 1965) وقد بلغت بورنو أوج ازدهارها خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين وكانت لها في هذه الفترة اتصالات واسعة مع البلدان المغاربية ومصر، كما تثبت ذلك السجلات الحكومية التي لا تزال موجودة بتلك البلاد.

وفي عام 1571 استقدم سلطانها (ادريس علومة) مدرّبين عسكريين أتراكا ومدافع زوّده بها الأتراك، وبذلك يكون جيشه أوّل من استعمل الأسلحة النارية في السّوادين، وفي عام 1808 هوجمت منطقة (بورنو) التي هي جزء من مملكة (الكانم – بورنو) من طرف جيوش الشيخ عثمان بن فودي، ممّا حمل الحاج محمد أمين الكانمي على تجميع الأنصار وتنظيم المقاومة ضدّ الفاتحين التابعين لعثمان بن فودي، فوقعت بين الطرفين معارك طاحنة، وانتصر أتباع الكانمي محمد أمين في لنهاية وطردوا أتباع عثمان بن فودي من بورنو، وأثناء تلك الفترة لم يكن الكالمي سلطانا، وإنّما كان عالما، له سمعة في البلاد، وكان لا يزال في مرحلة التهيّؤ لتولّي السلطة فيها، وبعد انتصار أتباعه على جيش عثمان بن فودي، أمر الكانمي بإرجاع السلطان إلى منصبه، بعد أن كانت قد طردته منه جيوش عثمان بو فودي، والتجأ إلى محمد أمين الكانمي محتميا بحماه، وهذا يدلّ على المكانة الرفيعة التي كان لعائلة الكانمي ولزعيمها آنذاك الكانمي محمد امين، لدى سكان مملكة الكانم – بورنو، في ذلك الوقت.

نشأ محمد أمين الكانمي في منطقة الكانم قرب بحيرة تشاد، وتلقّى تعليمه الأول على علماء بلده، وبعد أن اشتدّ عوده رحل إلى مصر لطلب العلم، فبقي بها خمس سنوات كاملة، وأثناء وجوده بمصر كان يحضر باستمرار الحلقات

الدّراسية في الأزهر، فتعرّف على ألمع الأساتذة بالأزهر آنذاك وأخذ عنهم العلوم الإسلامية واللغوية بشكل خاصّ، ومن مصر ذهب إلى مدينة القدس الشريف فأقام بها عامين كاملين، وهناك أيضا جلس إلى أكابر العلماء والفقهاء وأخذ عنهم، وبعد مرحلة القدس سافر إلى مكة المكرمة وأقام بها ثلاث سنوات، فأتمّ مناسك الحج والعمرة وجلس إلى أكابر العلماء والفقهاء المتواجدين بها وأخذ عنهم، ثمّ انتقل إلى المدينة المنوّرة وأقام بها عامين كاملين لمجاورة قبر الرسول صلى الله عليه وسلّم، وللقاء علماء المدينة المنوّرة ومجالستهم والأخذ ممّا لديهم من علوم.

وفي طريق العودة إلى بلاده زار طرابلس و القيروان و تلمسان ثمّ فاس حيث أقام بها سنتين أخريين، ومنها انتقل إلى تمبكتو التي كانت ذات شهرة علمية أيضا كبقية المدن الإسلامية الذائعة الصيت آنذاك في ميدان الثقافة والعلوم.

وبعد العودة من تمبكتو مباشرة إلى بلاده، تصدى محمد أمين الكانمي إلى تثقيف الناس وإرشادهم فتعلّق به الكثيرون، وذاع صيته في بلاده (كانم – بورنو) وخارج بلاده في منطقة السّوادين، وكاتبه العلماء طالبين رأيه في مسائل الفتاوي والتفاسير وزاره بعضهم واستأنسوا بعلمه وآرائه.

وفي هذه الأثناء هاجم أتباع عثمان بن فودي منطقة (بورنو) واحتلّوا ما استطاعوا منها كامتداد لحركتهم الجهادية كما هو معروف، فتصدّى لهم الكانمي وأنكر عليهم دعوتهم الجهادية هذه، معتبرا لها كتستّر من طرفهم للسيطرة على بلاد الناس وحكمهم لا أكثر ولا أقلّ، وكتب في ذلك رسائل تبادلها معهم، وفيها قارن محمد أمين لكانمي بلاده بورنو بمثيلاتها في مصر والشام والمغرب التي يوجد بها منذ أيام بني أمية بدع وفساد وجور واعتداءات على أموال اليتامى، ومع ذلك لم يقم أحد فيها بتفكير الناس ويقوم بالجهاد ضدّهم كما كان يفعل أهل سوكوتو آنذاك.

وقد قام أتباع عثمان بن فودي من جهتهم أيضا بكتابة رسائل كثيرة أيضا لتفنيد الآراء والأفكار التي طرحها محمد أمين الكانمي ضدّهم، وقد استمرّت المناوشات لمدّة بين الجانبين عام 1824 م. وبعد طرد محمد أمين الكانمي لجيوش أتباع عثمان بن فودي من (بورنو) وتركهم لذلك الإقليم الذي كان قبل ذلك جزء من مملكة (الكانم – بورنو) تحسّنت العلاقات نسبيّا بين محمد أمين الكانمي والسلطان محمد بيلو ابن الشيخ عثمان بن فودي، وقد تمّ تحسّن تلك العلاقات بين النّظامين على أساس اعتراف محمد بيلو بسلطة الكانمي محمد أمين على بورنو، واعتراف هذا الأخير بشرعية جهاد آل فودي.

عرف محمد أمين الكانمي بإتساع الأفق وغزارة العلم (الألوري، م.س، ص 68) وفي عهده ازدهرت مملكة الكانم – بورنو وتواردت عليها قوافل التجار، من مصر ومن بلدان المغرب على السّواء، وهو الذي بدأ بناء مدينة (كوكا) لتكون عاصمة لبلاده، وفي عام 1822 زاره الرحالة الأنكليزي (كلابرتون) وعقد معه معاهدة تجارية. وقد أثنى هذا الرحالة على ما شاهده من حنكة إدارية وحسن تنظيم في مملكة الكانم – بورنو على أيام محمد الأمين الكانمي بالخصوص، وقد عرف الكانمي بميله إلى التسامح وحبّه للسّلم غير أنّ هجوم آل فودي على بورنو التي كانت تحت حكم مملكة كانم – بورنو دفعه إلى تجنيد الجيوش ومقارعة آل فودي بالقوة حتى أخرجهم وافتكّ منهم بورنو.

أهمّ المصادر

1- دائرة المعارف الإسلامية

2- مجموعة مخطوطات مكتبة حمّاني ديوري (مكتبة البرلمان) في ميامي بجمهورية النيجر.

3- علي الخربو طلي – مملكة بورنو الإسلامية – القاهرة – 1953.

4- Barth, H. Travels and discoveries in Northeren and Central Africa, London, 1855.

5- A.Schultze, The Sultanate of Bornou, London, 1913.

6- G.Bruel, Bornou, l'Afrique Occidentale Française, Paris, 1928.

7- Y. Urvoy, Histoire de l'empire de Bornou, Dakar, 1949.

السّلاوي الناصري
(1835 – 1897 م)

هو أحمد بن خالد النّاصري السّلاوي، وكنيته شهاب الدين، وقد ذكر أنه ولد في عام 1250 للهجرة، كما تحدّث عن نسبه لأمّه فاطمة بنت محمد بن محمد بن قاسم بن زروق[1].

يعتبر كتابه (الإستقصاء لأخبار المغرب الأقصى) من المصادر الأساسية جدّا عن تاريخ المملكة المغربية وخاصة العهد العلوي، وقد ألّفه في عام 1306هـ. وبدأه بمقدمة طويلة حول علم التاريخ وفوائده، فذكر أن التاريخ علم قائم بذاته، وأنه لا استغناء عنه لأحد يريد توسيع معارفه بمجريات الأحداث الماضية، كما استشهد بأقوال الكثيرين من العلماء والمفكّرين في هذا الشأن، ومنهم الإمام الشافعي وغيره.

وقد حرص المؤلف على أن يكون كتابه جامعا ليشمل تاريخ الإسلام في عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم) وخلفائه الراشدين في جزئه الأول، وتفرّغ بعد ذلك ببراعة ليتحدث عن الفتوحات الإسلامية في البلدان المغاربية: إفريقيا والمغرب الأوسط والمغرب الأقصى، ثمّ غطّى بعد ذلك تاريخ المرابطين والموحّدين وغيرهما من الممالك التي رأتها البلدان المغاربية عموما، وبعدها ركّز كتابه على المغرب الأقصى منذ عهد الأدارسة حتى مشارف الاحتلال الفرنسي للمغرب الأقصى، ولكنّه لم يشاهده على ما يبدو، فقد تكلّم بمرارة عن الأوضاع في عهد (مولاي) السّلطان عبد العزيز، وكيف أنّ التضخّم كما يسمّى الآن قد أضرّ بالناس فارتفعت الأسعار بشكل مخيف، كما أن البلد كثر فيه الجواسيس من أمم الإفرنج، اللذين كانوا يأتونه بحجّة تهنئة السّلطان عبد

(1) الاستقصاء لأخبار المغرب الأقصى، القاهرة 1312 هـ – ج 4 ص 193.

العزيز ثم يقيمون لعدّة أشهر فيراقبون الأوضاع لغاية مجهولة الأهداف عند الناس، ويشير إلى أن الإفرنج في التسعينات من القرن 13 هجري (1290 هـ) قد تقدّموا وقويت شكوتهم ممّا لابدّ أن تكون له نتائج سيّئة على المسلمين في مجاهتهم، فيقول:

- (واعلم أيضا أن هؤلاء الإفرنج في هذه السنين قد علوا علوّا منكرا، وطنهروا ظهورا لا كفاء له، وأسرعت أحوالهم في التقدّم والزيادة، إسراعا متضاعفا... وعلم عاقبة ذلك وغايته إلى الله المنفرد بالغيب)[1].

وقد بوّب السلاوي كتابه حسب المواضيع، وسجل الحوادث تسجيلا دقيقا كما يفعل المؤرخ النزيه، فعند حديثه عن عهد مولاي أحمد المنصور وغزوه لبلاد السودان الغربي أتى بوصف مطوّل للفظائع التي ارتكبها جيش المنصور، وذكر أن المنصور خلع قائد جيشه (جؤذر) رغم ما بعث به إلى المنصور من قناطير ذهب ومئات العبيد، وذلك لأن جؤذر هذا لم يلاحق الأسكيا إسحاق حتى يقتله وينهي إلى الأبد حكم تلك الأسرة كي يطمئنّ المنصور على تملكه لبلاد السودان، كما تحدّث السلاوي بإسهاب عن المقاومة القوية التي قام بها السودانيون جميعا بالتفافهم حول ملكهم ورفضهم المطلق للاحتلال المغربي، إلاّ أنهم لم تكن لديهم المدافع والبارود فغلبوا على أمرهم، وذكر السلاوي كذلك أن السودانيين كانوا ينادون أثناء المعركة (نحن إخوانكم في الدين) إلاّ أن السيوف رغم ذلك كانت لا ترحم رقابهم، وكان جنود المنصور يحصدونهم حصدا، وبوّب لهذه الحادثة بـ (غزو السودانيين كانوا ينادون أثناء المعركة (نحن إخوانكم فيا لدين) إلاّ أن السيوف رغم ذلك كانت لا ترحم رقابهم، وكان جنود المنصور يحصدونهم حصدا، وبوّب لهذه الحادثة بـ (غزو السودان وفتح مدينة كاغوا ومقتل سلطانها إسحاق سكية رحمه الله). وقبل هذا الفصل الخاص باعتداء المنصور على مملكة الأساقي في عام 1591م.

(1) ج. 4 ص 279.

وكلّ ما تعلّق بذلك من التعقيدات، أفرد السلاوي فصلا سماه (تلخيص القول في سوادن المغرب[1] والإشارة إلى ممالكهم ودولهم من لدن الفتح الإسلامي إلى هذا التاريخ) ، وفي هذا الفصل نجد تفصيلا عن الممالك السودانية شمال خط الاستواء بداية من مملكة غانا مرورا بمملكة مالي ثمّ بمملكة سنغاي ثم مملكة الكانم – بورنو ثم بلاد النوبه، وقد أثبت السلاوي أن كل تلك الممالك كانت تعتبر جزء من البلاد الإسلامية ككل، لأنها أسلمت منذ قرون، كما ذكر أخبارا عن تعامل ملوكها مع ممالك البلدان المغاربية في السابق وتبادل الهدايا معهم، وفي الفصل الذي أفرده السلاوي لنفي العلماء من آل أقيت إلى مراكش لعدم قبولهم بالاحتلال المغربي تحت عنوان (نكبة الفقية أبي العباس أحمد بابا السوداني وعشيرته من آل أقيت والسبب في ذلك،) استطرد السلاوي خلاله في إسهاب مطوّل لإبداء رأيه في تجارة العبيد، فاستنكرها تماما، ورأى أن الذين يتاجرون بالعبيد هم من سفلة الناس ولا يحترمون قواعد الدّين التي لا تعطيهم أيّ مبرر لتجارتهم هذه، كما أعطى تفاصيل عن هذه التجارة وكيف أن السودانيين أنفسهم هم اللذين يجلبون العبيد من مناطق البلاد المعروفة ببلاد (لملم)[2] في البداية ثمّ يبيعون مجلوبهم في أسواق السودانيين، ومن ثمّ يحملون إلى الشمال، غير أن الأمر في رأيه تجاوز الحدود بحيث أصبح يشمل المسلمين السود أيضا، حيث يجبر هؤلاء على القول لمن يريد شراءهم بأنهم ليسوا مسلمين كي يتمّ شراؤهم من طرف الذين يرغبون في الشراء، ولا يقبل السلاوي أن تستمر عملية العبودية حتى ولو كان العبيد غير مسلمين لأن ذلك مخالف لكل من له ضمير، وتحت عنوان (تتمّة) كتب ما يلي: (قد تبيّن مما قصصناه عليك من أخبار السّودان ما كان عليه أهل تلك البلاد من الأخذ بدين الإسلام منذ القديم، وأنهم من أحسن الأمم إسلاما وأقومهم دينا، وأكثرهم للعلم وأهله تحصيلا ومحبّة، وهذا الأمر شائع في جلّ ممالكهم الموالية للمغرب، وهذا يظهر لك

(1) أي السودان الغربي بلغة اليوم.

(2) مناطق الغابات قرب خط الاستواء

شناعة ما عمّت به البلوى... منذ القديم من استرقاق أهل السودان مطلقا، وجلب القطائع الكثيرة منهم في كل سنة وبيعهم... يسمسرون بهم كما تسمسر الدّواب بل أفحش، قد تمالك الناس على ذلك وتوالت عليه أجيالهم، حتى صار كثير من العامة يفهمون أن موجب الاسترقاق شرعا هو اسوداد اللون مجلوبا من تلك الناحية[1]، وهذا لعمر الله من أفحش المناكر وأعظمها في لدين، إذ أهل السودان قوم مسلمون، فلهم مالنا وعليهم ما علينا، ولو فرضنا أن فيهم من هو مشرك أو متدين بدين آخر غير الإسلام فالغالب عليهم اليوم وقبل اليوم بكثير إنّما هو الإسلام، والحكم للغالب... والأصل في نوع الإنسان هو الحرية والخلق عن موجب الاسترقاق، ومدعي خلاف الحرية (هو) مدعي لخلاف الأصل... كيف ونحن نرى أن اللذين يجلبونهم أو يتّجرون فيهم إنّما هم من لا خلاق لهم ولا مروءة ولا دين).

- وعن المناطق التي يهاجم أهلها ويجلبون للإسترقاق، كتب السلاوي ما يلي:

(ذكر لي و لي الدين بن خلدون أن وراء النيل[2] قوما من السودان يقال لهم لملم، وهم كفّار ويكتوون في وجوههم وأصداغهم قال: وأهل غانة والتّكرور يغيرون عليهم ويسلبونهم ويبيعونهم للتّجار... فمن لنا بأن أولئك القبائل لا زالوا على كفرهم إلى الآن، على أن الناس لا يلتفتون اليوم إلى ذلك أصلا، ومهما رآى أحدهم العبد أو الأمة يسمسر به في السّوق إلاّ ويقدم على شرائه... لا يسأل إلاّ عن عيوب بدنه). ويستطرد السلاوي ملتمسا الناحية الدينية للاستدلال على سداد رأيه في الموضوع قائلا ما يلي بالخصوص:

(ليستفتي المرء قلبه فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (استفت قلبك وإن أفوتك)، فإنه متى رجع إلى قلبه في هذه المعضلة إلا ولا يقدر أن يحوم حول

(1) أي من السّودان
(2) نهر النيجر

هذا الحمى بحال... مع ملاحظة سدّ الذريعة الذي هو أحد أصول الشريعة لا سيما عند الإمام مالك رضي الله عنه، ممّا يقتضي وجوب التخلي عن ملابسة هذه المفسدة المزرية بالعرض والدين، فنسأله سبحانه أن يوفق من ولاّه أمر العباد لحسم مادة هذا الفساد[1] ، فإن سبب الاسترقاق الشرعي الذي كان في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم والسّلف الصالح مفقود اليوم، وهو السّبي الناشئ عن الجهاد المقصود به إعلاء كلمة الله تعالى وسوق الناس إلى دينه الذي اصطفاه لعباده، هذا هو ديننا الذي شرعه لنا نبيّنا صلى الله عليه وسلم، وخلافه خلاف الدّين)

- لقد قضى السّلاوي حياته موظّفا في دواوين المالية التابعة للخزانة الملكية، فهو إذن من أولئك اللذين يقفون إلى جانب الملك، وليس من أولئك الذين ينتسبون إلى مناطق (السّبا) أي اللذين يعارضون الملك ولا يقبلون بحكمه ويحاربونه، ويظهر من كتاباته مدى الثقافة وحصانة الرّأي التي كان يتمتع بهما هذا الرّجل.

---

(1) أي للقضاء عليها

أهمّ المصادر

1- أحمد بن خالد السلاوي الناصري – الاستقصاء لأخبار المغرب الأقصى – القاهرة 1312 – ج 4 – ص 193 فما بعد.

2- أحمد بن خالد السّلاوي – الاستقصاء لأخبار المغرب الأقصى – الدار البيضاء 1956.

3- دائرة المعارف الإسلامية – القاهرة 1933.

ابن بطوطة

(703 هـ 1304 م / 779 هـ – 1377 م)

هو شمس الدين أبو عبد الله محمد بن ابراهيم بن محمد بن ابراهيم بن يوسف، اللّواتي الطّنجي، نسبة إلى مدينة طنجة التي ولد بها، أمّا اللواتي فهي نسبة إلى قبيلته، وهو من أشهر الرحّالة العرب وأطولهم نفسا في الترحال وأختراق الآفاق غير أنّ هناك بعض المبالغات التي قد يجدها القارئ في كتاب (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) لإبن بطوطة، مثل قوله أنه سافر مع أميرة بيزنطية وهو في طريقه إلى القسطنطينية، ومثل ما ذكره عن الإكراميات التي خصه بها ملك الهند، ومثل ما ذكره من أنه وصل إلى مدينة البلغار قاما من القرن الذهبي في خلال ثلاثة أيام، مع العلم أنّ المسافة بين هذين الموقعين تبلغ حوالي ألف وثلاثمائة كيلومتر، ممّا لا يمكن قطعها للراجلين أو على الخيول وغيرها في ثلاثة أيام فقط، وفي غير ذلك فإنّ ابن بطوطة الذي بدأ رحلته الأولى بإتّجاه الحجاز للحج وهو في سن الثانية والعشرين من عمره، قد قضى بعد ذلك كلّ حياته تقريبا في الترحال، واختراق الآفاق، ذلك أنه منذ صباه كان شغوفا بالسفر، والإكتشاف ورؤية البلدان والشعوب.

قام ابن بطوطة بثمان رحلات، سبع رحلات منها قضاها متجولا في بلدان الشام والحجاز وفلسطين ومصر والعراق وفارس وآسيا الصغرى والبحر الأسود والقرن الذهبي، ثمّ الهند والصين وسومطرة والملديف وكذلك البلدان المغاربية، أمّا الرحلة الثامنة فقد خصّ بها افريقيا جنوب الصحراء (بلاد السودان) ، وهو في هذا على الشكل الذي سار عليه معظم الرحالة العرب الآخرين من أمثال ابن حوقل والمسعودي وابن جبير وغيرهم.

لم يكتب ابن بطوطة وقائع رحلاته بنفسه ولكنه أملاها قبل وفاته بسنوات قليلة على (محمد بن جزّي) الذي كان يشغل آنذاك منصب كاتب

في بلاط السلطان المريني أبي عنان، وهو منصب مهمّ في ذلك الوقت، وقد كان ابن الجزّي يرجع الضمير إلى ابن بطوطة أثناء الكتابة في صيغة المتكلم، مثـل: (لقينا وتحدّثنا...) وقد أملى ابن بطوطة كتابه هذا بعد أن أتمّ جميـع رحلاتـه ورجع ليستقرّ بالمغرب الأقصى في آخر أيامه، وتوفي بمدينة فاس في عام 779م – 1377م).

استمرّت رحلة ابن بطوطة إلى بلاد السودان الغربي بين عام 1352 م إلى عام 1354 م. فلاحظ أنّ هناك عادات كثيرة لدى السودانيين لا تتّفـق مـع الإسلام، مثل حكايته عن القاضي وخليلته في مجلسه، إلى غيرك ذلـك، كمـا أثبت لنا ذلك التواجد الكبير للملسلمين من مغاربة ومشارقة في بلاد السودان، وذلك لأن تلك المنطقة كانت بدت وكأنها قد أصبحت جزء من بلاد الإسلام، وبعد حديثه المفصّل عن ما شاهده ومن إلتقى بهم في بلاد السودان التي هـي بالأخص (مالي) الحالية، لخصّ ابن بطوطة انطباعه عن تلك المنطقـة عُمُومًـا، وعن عادات الناس فيها وتقاليدهم بصورة خاصة تحت عنـوان (ذكـر مـا أستحسنه من أفعال السودان وأستقبحه) قائلا:

(فمن أفعالهم الحسنة قلّة الظلم، فهم أبعد الناس عنـه، وسـلطانهم لا يسامح أحدا في شيء منه، ومنها شمول الأمن في بلادهم، فلا يخاف المسافر فيها ولا المقيم من سارق ولا غاصب، ومنها عدم تعرضهم لمال من يموت بـبلادهم من البيضان، ولو كان القناطر، إنّما يتركونه بيد ثقة من البيضان حتى يأخـذه مستحقة، ومنها مواظبتهم للصلوات والتزامهم لها في الجماعـات، وضـربهم أولادهم عليها. وإذا كان يوم الجمعة و لم يبكر الانسان إلى المسجد لم يجد أين يصلي لكثرة الزحام، ومن عادتهم أن يبعث كل إنسان غلامه مـع سـجادته الغلام فيبسطها له بموضوع يستحقها به، حتى يذهب إلى المسجد. وسجاداتهم من سعف شجر يشبه الـنَّخل، ولا ثمر له، ومنها لباسهم الثياب البيض الحسان يوم الجمعة، وإذا لم يكن لأحدهم إلا قميص خَلق غسله ونظفه وشـهد بـه الجمعة، ومنها عنايتهم بحفظ القرآن العظيم، وهم يجعلون لأولادهم القيود، إذا

ظهر في حقهم التقصير في حفظه فلا تفك عنهم حتى يحفظوه)..... ويستطر ابن بطوطة قائلا:

(ولقد دخلت على القاضي يوم العيد، وأولاده مقيّدون فقلت له: ألا تسرّحهم ؟ فقال: لا أفعل حتى يحفظوا القرآن. ومررت يوما على شابّ منهم حسن الصورة عليه ثياب فاخرة، وفي رجله قيد ثقيل، فقلت لمن كان معي: ما فعل هذا، أقتل ؟ ففهم عنّي الشاب وضحك، وقال لي إنّما قيّد حتى يحفظ القرآن)....... ثم يستمرّ قائلا:

(ومن مساوي أفعالهم كون الخدم والجواري والبنات الصغار يظهرون للناس عرايا باديات العورات. ولقد كنت أرى في رمضان كثيرا منهنّ على تلك الصّورة، فإنّ عادة الفرارية أن يفطروا بدار السلطان ويأتي كلّ واحد منهم بطعامه، تحمله العشرون فما فوقهن من جواريهم، وهنّ عرايا، ومنها دخول النساء على السلطان عرايا غير مستترات، وتعرّي بناته. ولقد رأيت في ليلة سبع وعشرين من رمضان نحو مائة جارية خرجن بالطعام من قصره عرايا، ومعهنّ بنتان له ناهدان ليس عليهما ستر، ومنها جعلهم التراب والرماد على رؤوسهم تأدّبا، ومنها ما ذكرته من الأضحوكة في إنشاد الشعراء، ومنها أنّ كثيرا منهم يأكلون الجيف والكلاب والحمير).

أهمّ المصادر

1- ابن بطوطة – تحفة النّظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار– القاهرة 1287هـ.

2- ابن حجر العسقلاني – الدّرر الكامنة – حيدر آباد 1929.

3- JANSSENE, IBN BATTUTA, Le VOYAGEUR DE L'islam, 1304 – 1369 Brussels 1948.

4- I, HRBEK; The chronologie of IBN BATTUTA's travels, in ARO, XXX 1962.

5- Charles André Julien et al, les Africains, T.1, PARIS 1977.

6- GIBB, H- The travels of IBN BATTUTA, Cambridge, 1958.

السّعدي عبد الرحمان بن عبد الله بن عمران
(1004 – 1005 هـ / 1596 م – 1065 – 1066 هـ /1655م)

هو الشيخ عبد الرحمان بن عبد الله بن عمران بن عامر بن الحاج المتوكل السّعدي، والسعدي لقبه ولقب عائلته.

ولد بمدينة تمبكتو في أوج ازدهارها العلمي قبل غزوها واضمحلال ازدهارها بعد غزو المنصور السّعدي لمملكة سنغاي عام 1591 م. وقد حفظ القرآن الكريم في صغره، وتتلمذ على عدد من الأشياخ العلماء بها، وعلى رأسهم العالم الشّهير أحمد بابا التمبكتي. ومن العلماء الذين أخذ عنهم وتأثّر بهم الواتلوري بصورة خاصة، حيث أفرده بالذّكر قائلا: (لقد تعلّمت منه الكثير، وأجاز لي كتبا قرأتها عليه بخطّ يده، وأهديت له بعض المصنّفات التي ألّفتها بمساعدته).

وبعد أن أتمّ تعلّمه، جلس للتدريس وللوعظ والإرشاد على طريقة العلماء في زمانه، و لم يقتصر عمله في هذا المنهج على تمبكتو وحدها، وإنّما سافر السّعدي إلى عدد من البلدان في المنطقة للتعليم والتثقيف، كما كان يفعله غيره من علماء زمانه أيضا وخاصة من بين أولئك الذين تكون قد شاعت شهرتهم أكثر بين الناس.

وفي عام 1626م تمّ تعيين السّعدي إماما وخطيبا للمسجد الكبير في مدينة جنّي الواقعة إلى الجنوب من تمبكتو على نهر النّيجر، وكانت جنّي في ذلك الوقت مدينة هامّة جدّا لتجارة القوافل وقصبة كبيرة أيضا، وتكاد تنافس مدينة تمبكتو في خصوص ازدهارها التّجاري والعلمي أيضا.

استمرّ السّعدي إماما وخطيبا في الجامع الكبير بمدينة جنّي حوالي عشرين سنة، ممّا يدلّ على أنه كان أهلا لهذه الوظيفة التي لم تكن تعطي إلاّ للعلماء البارزين في ذلك الوقت. وفي عام 1646م استدعاه الباشا محمد بن

عثمان حاكم تمبكتو وجنّي أيضا ليعطيه وظيفة (ناظر الخارجية) لديه، وهي وظيفة سامية جدّا حيث يقوم صاحبها بالتنقل بين سائر المدن والقرى التابعة للأمير، وذلك للإلتقاء بالناس المتساكنين وحلّ مشاكلهم باسم الأمير، كما أنّه على حامل هذه الوظيفة أن يكون مطلّعا على عادات الناس وتقاليدهم، وأن يكون ملمّا كذلك بمجريات الأمور في لبلاد بصورة عامة، وعلى الطريقة المطلوبة فيما يخص التسيير وفض النـــزاعات بين الأفراد والقبائل بصورة خاصة.

لقد أفاد عبد الرحمان السعدي من القيام بهذه الوظيفة لعدد من الـسّنين واستفاد من تجاربه فيها، في تأليف كتابه الشهير عن تاريخ بلـدان الـسّودان الغربي، وهو الكتاب الذي يعتبر أهمّ ما ورد إلينا من الوثائق عن تاريخ تلـك المنطقة من بلاد الإسلام في ذلك الوقت، ويبدو أنّه استغرق في تأليفـه مـدّة قصيرة، نسبيا فقد ذكر أنّه بدأ في تأليفه يوم 5 ذي الحجّة عـام 1055هـ (الموافق 27 أكتوبر 1653م) ، ووافته المنيّة وهو لم يتمكّن من إتمامـه سـنة 1063م.

وبعد وفاة السّعدي بمدة ظهر لحفيد الأمير محمد بن سوده في عام 1701 أن يعمل على إكمال تسجيل الحوادث التي توقّف عندها عبد الرحمان السّعدي وهي كلّها خلال فترة الباشوات المغاربية في تمبكتو ونواحيها، وذلك في كتاب تكميلي سمّاه (تذكرة النّسيان في أخبار ملوك السّودان).

وقد ذكر السّعدي في مقدمة تاريخه الأسباب الـتي دفعتـه إلى طـرق موضوع التاريخ هذا، كما ذكر الفوائد التي تتأتّى من معرفة التاريخ قائلا:

(ولمّا رأيت انقراض ذلك العلم ودروسه، وذهاب ديناره وفلوسه، وأنّـه كثير الفوائد، كثير العوائد، لما فيه من معرفة المرء بأخبـار وطنـه وأسـلافه، وتواريخهم ووفياتهم، فاستعنت بالله سبحانه وتعالى في كتب ما رويت من ذكر ملوك السّودان أهل صنغي، وقصصهم وأخبارهم وسيرهم وغزواتهم، وذكـر

تمبكتو ونشأتها ومن ملكها من الملوك، وذكر بعض العلماء والصالحين الـــذين توطّنوا فيها، وغير ذلك إلى آخر الأحمدية الهاشمية العبّاســية ســلطان مدينــة مرّاكش).

اشتمل كتاب التاريخ لعبد الرحمان السعدي على المواضيع التالية:

1- ترجمة لما يقارب مائتي علم سوداني، كانوا قد عاشوا وألّفوا في تلك المنطقة.

2- الممالك الإسلامية التي قامت في السّودان الغربي حتّى ذلك الوقت.

3- نشأة المدن الإسلامية وتطوّرها في بلدان السودان الغربي.

4- ترجمة للعديد من الوعّاظ والقضاة الذين عرفتهم تلك البلدان حتّــى أيــام السّعدي.

5- ترجمة لأئمّة المساجد والخطباء، وخاصة في الجوامع الكبيرة مثــل جــامع سنكوري وغيره.

6- حياة السلاطين والأمراء وسلوكهم، في تلك البلدان.

7- كما تحدّث عن القبائل الكبيرة في المنطقة وسيرها مثل قبيلة الصّنغاي وقبائل الماندينق في مالي والطوارق والفولانيين والسّنكوريين.

وما زال كتاب التاريخ لعبد الرحمان السعدي من المصادر التي لا يستغني عنها من يطلب المعرفة فيما يتعلّق بتاريخ السّودان الغربي، وقد أثبت من خلاله عبد الرّحمان السعدي أنّ تلك المنطقة كانت قد اصبحت جزء من العالم العربي الإسلامي، سواء من حيث الدّين أو الثقافة، غير أن أسلوبه في الكتابة لا يرتقي لكتابة أحمد بابا مثلا، إذ كثيرا ما يجد القارئ لدى السّعدي بعض الغموض في العبارات أو عدم الاستقامة في بناء الجمل، وربّمــا يعــود بعــض ذلــك إلى النّسّاخين، لا ندري.

أهمّ المصادر

1- عبد الرحمان السّعدي، تاريخ السّودان: تحقيق هوداس، باريس 1964.

2- رضا كحالة. معجم المؤلّفين: بيروت، د.ت ج 5، ص 150.

3- دائرة المعارف الإسلامية (النسخة المعربّة) طهران، د.ت

ابن ماجد شهاب الدين بن أبي البركات، أسد البحر
(ت بعد 904 هـ / 1498 م)

هو شهاب الدّين، ابن أبي البركات أسد البحر، أحمد بن ماجد بن محمد بن عمرو بن دويك بن يوسف بن حسن بن حسين بن أبي المعلق السّعدي النجدي، فمنطقته إذن هي نجد.

وإذا كنا نعرف اسمه وكنيته وأسماء العديد من أجداده وكذلك بلده، فإنّنا لا نعرف بالتحديد تاريخ ولادته ولا تاريخ وفاته حتّى الآن، والمؤكّد أنّه عاش وعمل وألّف خلال النصف الثاني من القرن الخامس عشر للميلاد (القرن التاسع الهجري)، وفي هذه الفترة كانت الملاحة العربية في نشاط واسع من الهند والصين وإليهما وكذلك في البحر الأحمر وسواحل شرق إفريقيا.

ينحدر أحمد بن ماجد من عائلة لها باع في الملاحة البحرية، فقد كان كلّ من أبيه وجدّه، بحّارين كبيرين، فورث عنهما هذه المهنة، وقد ترك هؤلاء الثلاثة قصيدة طولية كتب كلّ واحد منهم فيها جزء أودع فيه معارفه في الملاحة البحرية والإرشادات والمعارف التي يحتاجها البحّار، بدأ القسم الأوّل منها جدّ أحمد بن ماجد، ثمّ قام أبوه بكتابة قسم آخر، وأخيرا جاء دور أحمد ليودع معارفه هو الآخر في جزء آخر من هذه القصيدة المشتركة، وقد أطلق على هذه القصيدة اسم (الحجازيّة).

كان ابن ماجد لا يفتأ يؤلف في علم البحار والنّجوم والأبراج حتّى بلغت مؤلّفاته في هذا الميدان واحدا وعشرين مؤلّفا، والكثير منها في شكل أرجوزات حتى يسهل على بالبخار استيعابها بسهولة، ونجد في مؤلّفات أحمد بن ماجد أيضا انتقاده لمؤلفين آخرين سبقوه لإبراز نقاط الغلط لديهم في جانب أو آخر، ومن أشهر كتبه في علم البحار هو (كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد)، الذي تحدّث فيه بإسهاب عن شرق إفريقيا وسواحلها حتى الجنوب

من سوفلا، كما ذكر (المدخل) الذي ربما يريد به اتـــصال المحـــيط الهـــادي بالأطلسي في أقصى الجنوب الإفريقي، غير أنّ هذا الكتاب يعطي أكثر التفاصيل عن المواقع في المحيط الهندي وفي بحر العرب والجزر التي يصادفها البحّـــارون في طريقهم إلى الهند خاصة، كما يعطي أحمد بن ماجد في هذا الكتـــاب أيـــضا، تفاصيل هامة عن الرياح والأبراج والموانئ ومواقعها حتى فرموزوة وبحر الصين، وكذلك الجزر الأندونيسيّة.

من غير المؤكّد أنّ أحمد بن ماجد هو مخترع البوصلة التي يهتـــدي بهـــا البحارة لتعيين الجهات أثناء تواجدهم في أعالي البحار، ولكنّه يمكن أن يكـــون قد أدخل على الإبرة المغناطيسية كما يسميّها هو بنفسه تحسينات وتعـــديلات هامة، ويفهم من حديثه عنها أنّ العرب كانوا يعرفونها قبله ولكن بـــدرجات متفاوتة في الاستعمال، فقد أشار في كتابه (الفوائد) إلى أنّ إبرة المغناطيس التي كان البحارة العرب في المحيط الهندي (أي التجارة من الجزيرة والخليج وبـــلاد الشام) يستعملونها هي أكثر دقّة من تلك التي يستعملها البحارة المـــصريّون والمغاربة.

وفي كتاب الفوائد أيضا أشار أحمد بن ماجد إلى محاولات البرتغاليّين وفشلهم عدّة مرّات في الوصول إلى الهند، لكنّهم في الأخير استطاعوا الوصول إليها، ولكنّه لم يذكر هل كان قد ساعد (فاسكو دي قاما) في أوّل وصول برتغالي إلى الهند، وهذا ما أكّدته مذكّرات البحّارة البرتغاليّين، وأشارت إليه عدّة مرات، أما في المصادر العربية فقد ذكر المؤرخ قطب الدين النّهروالي المتوفي سنة 990 هـــ/ 1582م، وذلك في كتابه (البرق اليماني في الفتح العثماني) أنّ طائفة من الإفرنج كانوا يعبرون بحر الظلمات في لغرب ويتوجّهون إلى الشرق عند المدخل الجنوبي وفي كلّ مرّة تتهدّم مراكبهم لشدّة الرياح في ذلك المدخل الجنوبي ويموتون، ولا ينجو من بينهم أحد، وظلّوا يعيدون الكرّة بعد الأخرى، ثمّ وصولوا أخيرا إلى شمال سوفلا، ولكنهم لم يستطيعوا الوصول إلى الهند التي كانت هدفهم البعيد منذ البداية، وفي الأخير وصلوا إلى أرض الهند بعد أن

أرشدهم شخص اسمه أحمد بن ماجد، ذلك أنّ زعيم الفرنجة المدعو (الأميلندي)، أي الأميرال في اللغة البرتغالية، قد كوّن مع ابن ماجد صداقة فشربا الخمر معا، وفي لحظة السّكر أعطى إبن ماجد المعلومات عن كيفيّة الوصول إلى الهند للأميلاندي هذا، وهكذا تمكّنت هذه الطائفة الإفرنجية من الوصول إلى الهند، وتكاثر عددها بعد ذلك فبدأت بمحاربة سفن المسلمين وسلب أمتعتهم وبضائعهم.

لقد اعتبر النهروالي وصول البرتغاليين إلى الهند أنه كان حدثا بالغ السوء بالنسبة إلى المسلمين على الأقل، أمّا ابن ماجد فذكر أنّ البرتغاليين كثيرا ما كانوا عاجزين عن الوصول إلى الهند، ولّما وصلوها كوّنوا صداقات لهم مع أمراء كيرالا واستقرت بها أعداد كثيرة من بينهم وبنوا بيوتا لهم هناك، وهذا ما أكّده النّهروالي أيضا الذي ذكر أيضا أنّهم بنوا أيضا قلعة حصينة في كوّا (KUWWA).

وفي خصوص معارفه عن إفريقيا ذكر ابن ماجد ما كان البيروني قبلـــه أشار إليه في خصوص المدخل كما يسميّه والذي يعني الطريق البحري الجنوبي الموصل إلى زنجبار بعد المرور بمُحاذات مَا يعرف الآن برأس الرّجاء الـــصالح في أقصى الجنوب الإفريقي، غير أن معرفته تكاد تتوقف كغيره من الكتاب العرب حتى ذلك الوقت عند حدود الغابات الاستوائية، ذلك أنه بعد أن تحدث عــــن بلاد جبل القمر، وهي مدغشقر الآن، ووقوعها إلى الشرق الجنوبي من بـــلاد سوفلا، تحدّث عن خطّ يمرّ إلى الغرب حيث بلاد الكـــانم، ومنـــها إلى بـــلاد الواحات ثمّ إلى أسفي ومنها إلى سبته والبحر الأبيض المتوسط.

ويبدو ابن ماجد في جميع كتاباته كثير الإطّلاع على جميع ما كتبه مــــن سبقوه في هذا الميدان، كما يبدو شديد الثقة بنفسه وبمعارفه في خصوص الملاحة البحرية ومتطلباتها. وقد جاءت الإشارة إليه في عدد من المصادر البرتغالية بإسم المعلّم كانكا KANAKA أي السيد العارف بالأفلاك والأبعاد في البحار.

آثـــــــاره

من أهمّ المؤلفات المعروفة لأحمد ماجد ما يلي:

1- الفوائد في أصول علم البحر والقواعد.

2- حاوية الاختصار في أصول علم البحار.

3- الأرجوزة السبعية.

4- أجوزة بر العرب في خليج فارس.

أهمّ المصادر

1- خير الدين الزركلي، الأعلام ط 14، مج 1، ص 22 – 201، دار العلم للملايين، بيروت 1999.

2- SHUMOVSKY, T.A and THALATH RAHMANADJAT, AL MADJHULA LI AHMAD B. MADJID, MOUSCOU – Léningrad, 1957.

3- REINAUD, M, INTRODUCTION GENERALE A LA GEOGRAPHIE DES ORIENTAUX, PARIS 1848.

4- BAGROW, L, THE VASCO GAMA'S PILOT, GENOA, 1951.

5 - FERRAND, G, INSTRUCTIONS NAUTIQUES ET ROUTIERS ARABES DES XVème ET XVIème SIECLES, PARIS 1921.

6- ENCYCLOPEADIA OF ISLAM, LEIDEN 1955.

كعت (القاضي) محمد بن محمود
(ت 1001 - 1002 هـ / 1593 م)

ينحدر القاضي محمد بن محمود كعت من عائلة متعلمة، حيث كان أبوه قاضيا في مدينة تمبكتو التي ولد بها، وزاول تعلمه الابتدائي عن أبيه أولا، حيث حفظ القرآن الكريم على يديه، كما أخذ عنه مبادئ هامة في اللغة والفقه والحديث والتفسير والتاريخ بالإضافة إلى جملة من سير الفقهاء والعلماء، ثمّ تاقت نفسه للمزيد من التعمّق في علوم عصره، فسافر إلى مصر وحضر حلقات العلم في الأزهر كما تعرّف على علماء مصر المشهورين في ذلك الوقت.

ومن مصر انتقل محمد كعت إلى الحجاز فأدّى فريضة الحجّ، واهتمّ بملاقاة علماء الحجاز بصورة خاصة في كلّ من مكة والمدينة المنوّرة، وجلس إلى دروس البعض منهم، ثمّ عاد أدراجه إلى مسقط رأسه تمبكتو.

في تمبكتو جلس محمود كعت للتثقيف والتعليم طول النّهار وجزء من الليل أيضا، وتتلمذ عليه كثير من الطلبة الذين أصبحوا علماء كباراً فيما بعد، ومن بينهم عالم التكرور الشهير أحمد بابا التمبكتي الذي تحدّث عنه في (نيل الابتهاج بتطريز الديباج) كما يلي: (لقد صار شيخ زمانه في العلوم والفنون، لا نظير له، لازمته أكثر من عشر سنين، فقرأت عليه بلفظي مختصر خليل، وابن الحاجب، قراءة بحث وتحقيق وتحرير، وختمت عليه الموطّأ تفهّما، وحضرته كثيرا في المدوّنة، ورجز المغيلي في المنطق والخزرجية في العروض، وسمعت بقراءته هو كثيرا من البحاري، وهو أستاذي وشيخي، ما انتفعت بأحد انتفاعي به، وبكتبه، وأجازني جميع ما يجوز له ومنه، وكتب لي بخطّه في ذلك.)

ويضيف العلاّمة أحمد بابا متحدّثا عن طريقة محمد كعت في التعليم وتنظيمه لأوقاته فيها، فيقول:

(كان طويل النّفس في التعليم، لا يأنف من مبتدئ ولا من بليد، وكان يدرّس من صلاة الصبح إلى الضّحى، ثمّ ينصرف لقضاء حوائجه إلى وقت الزّوال، ثمّ يصلّي الظهر بالناس، ويدرّس إلى العصر، وإذا صلّى المغرب درّس في المسجد إلى العشاء. ثمّ رجع لبيته، وكان مع ذلك محققا، داركا، ذكيّا، فطنا، غوّاصا، في اللطائف، حلاّلا للمشاكل الاجتماعية بالحكمة والموعظة الحسنة، وقد طارت شهرته في الآفاق، فجزاه الله عنّا أحسن الجزاء) [أحمد بابا. الابتهاج، ص 430 فما بعد].

تولّى محمد كعت منصب القضاء في تمبكتو، ومعروف أنّ منصب القضاء كان لا يتوّلاه إلاّ من أوتوا بسطة في العلم والشجاعة في الدفاع عن الحق، حسن السيرة، ولا يوجد في المصادر المعروفة عن محمد كعت ما يخالف ذلك، واعتمادا على ما ذكره أحمد بابا عن أستاذه محمد كعت فإنّ هذا الأخير كان متعمقّا بصورة خاصة في الفقه والحديث، بالإضافة إلى دماثة أخلاقه وحرصه على حلّ المشاكل بالحسنة وتلك صفات القضاة اللاّمعين.

ألّف محمد كعت كتابا هامّا في تاريخ السودان الغربي، يعتبره المؤرخون المعتنون بتاريخ تلك المنطقة مصدرا هاما وذا أولوية قصوى إلى جانب كتاب عبد الرحمان السعدي، في هذا الموضوع ذاته وسمّاه: (تاريخ الفتّاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر النّاس، وذكر وقائع التكرور وعظائم الأمور، وتفريق أنساب العبيد من الأحرار)، وقد شرع في تأليف هذا الكتاب بعد أن بلغ الخمسين من عمره، ممّا جعله يكون أكثر إلماما وإحاطة بما سجّله من حوادث ووقائع، وقد أثنى خاصة على الأسقيا محمد الأوّل صاحب الصّنغاي، لما اتّصف به هذا الأمير من عدل والتزام بمصالح الناس طبقا للشريعة الإسلامية، وأرجع محمد كعت أسباب سقوط دولة الصّنغاي وانتهاء شانها بغزو المنصور لها في عام 1591م إلى شيئين أساسيين هما:

1- الفساد الذي استشرى في عامة الناس، حيث ساءت أخلاق الكثيرين من بينهم وانتشر في صفوفهم الخروج عن الطريق السّويّ وعدم الالتزام بالدّين.

2- ضعف الأمراء المتأخرين وفجورهم، فسقطت دولتهم بعد أن كانت دولة قوية جدًا في السابق، حين كان أمراؤها ملتزمين بدينهم وبواجباتهم تجاه رعيّتهم.

وقد عاش محمد كعت سنتين فقط في فترة الحكم المغربي، ثمّ قام بعض أحفاده بتكملة لكتابه سجّلوا فيها أحداث ستّ سنوات أخرى، وهو ما يجعل كتاب تاريخ الفتاش ينتهي عند التسع سنوات الأولى من الحكم المغربي لمملكة الصّنغاي (أي حوالي سنة 1599م).

لقد اتّخذ ضبّاط الحملة المغربية على صنغاي مدينة تمبكتو عاصمة لحكمهم، وباشروا السّلب والنّهب منذ اليوم الأوّل كي يوافوا المنصور بأكثر ما يمكن من الذهب والعبيد وما إلى ذلك، وهذا ما جعل علماء تمبكتو ينكرون عليهم فعل كلّ ذلك، فبادروا إلى ترحيل أحمد بابا وأمثاله عن تمبكتو ممّا جعل تلك المدينة تتدهور أوضاعها إلى حدّ كبير، وقد سجّل هذه الوضعية محمد كعت وبدقّته المعهودة كالآتي:

(ولما أخلاهم القوم وارتحلوا (أي علماء تمبكتو و وجهاؤها من آل أقيت)، صارت تمبكتو جسما بلا روح، وانعكس أمرها وتغيّر حالها، وتبدّلت عوائدها، ورجع أسفلها أعلاها وأعلاها أسفلها، وساد أراذلها على عظمائها).

لغة محمد كعت في كتابه (تاريخ الفتّاش) أكثر سلاسة من لغة عبد الرحمان السّعدي في تاريخه، كما أنّ كعت يغطّي الجوانب الاجتماعية أكثر ممّا فعل ذلك عبد الرحمان السّعدي، وهناك جانب مشترك بين الرّجلين في كتابيهما يتمثل في (طغيان) الجانب الصّوفي، حيث يجد القارئ ضروبا من ذكر (التنبّؤات بالغيب) و(خوارق العادات) و(الإيمان بالأولياء الصّالحين وبركاتهم)، وذلك في أحاديث كلّ من الرّجلين عن سير وحياة العلماء والقضاة والأئمّة بشكل خاص.

الآثـــــار

- تاريخ الفتّاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر النّاس، وذكر وقائع التكرور وعظائم الأمور، وتفريق أنساب العبيد من الأحرار.

أهمّ المصادر

1- محمد كعت. تاريخ الفتّاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس (تحقيق هوادس).

2- أحمد بابا التّمبكتي. نيل الابتهاج بتطريز الدّيباج، فاس 1891.

3- رضا كحّالة. معجم المؤلّفين، بيروت، (د.ت.) ج 11، ص 185.

أحمد بابا التمبكتي

(1556 – 1627 م)

يسمّى أحمد بابا التّمبكتي بعالم التّكرور، وشهرته في بلــدان الــسوادين الغربية أو بلاد التكرور، كما يشار لها وبشكل عام هكذا في بعض المــصادر، كبيرة بمقدار ما كانت شهرة ابن خلدون في البلدان العربية على الخــصوص، وكلمة التمبكتي هي نسبته إلى مدينة تمبكتو عاصمة الثقافة في السودان الغــربي منذ النصف الثاني من العصر الوسيط فما بعد.

نشأ أحمد بابا في عائلة عرفت بالعلم والثقافة، هي عائلة أقيت التي يعود أصلها إلى والاتا في ناحية لغرب، ثمّ انتقلت إلى تمبكتو واستقرت بها، وذلــك قبل ولادة أحمد بابا بكثير من السنين، وقد بدأ دروسه الأولى مع أبيه وعمّــه، حيث كان كل منهما عالما ومثقفا ثمّ انتقل إلى الأخذ عــن علمــاء تمبكتــو الكثيرين في ذلك الوقت، وقد عرف عنه أثناء فترة دراســته الــذكاء الحــادّ وكذلك المداومة والاجتهاد، وقد ظلّ يتلقى العلم ويلازم حلقات الدروس، في مختلف المواد حتى بلغ الثلاثين سنة من العمر، ثمّ جلس هو للتدريس والتــأليف بعد ذلك، وقد ألّف كثيرا من الكتب في ميادين النحو والفقه والتراجم علــى الخصوص، ومن أبرز كتبه (نيل الابتهاج بتطريز الديباج) الذي كان قد ألّفــه كتكملة لكتاب ابن فرحون (المتوفى في عام 799 هــــ) وعنوانــه (الــديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب)، وهو في ترجمة علماء المذهب المالكي، وفي كتاب نيل الابتهاج هذا ترجم أحمد بابا لثمانمائة عالم من علماء المالكيــة بعضهم يكون ابن فرحون قد نسيهم وبعضهم الآخر جاءوا بعده.

كتب أحمد بابا في مقدمة نيل الابتهاج موضحا خدفه من تأليف ذلــك الكتاب ما يلي (فما زالت نفسي تحدّثني من قديم الزّمان، وفي كثير من ساعات الأوان باستدراكي عليه (أي ابن فرحون) باع ما فاته أو جاء بعده من الأئمّة الأعيان).

بلغت مؤلفات أحمد بابا أكثر من خمسين كتابا يذكر من بينها على الخصوص:

1- معراج الصّعود إلى حكم مجلوب السّود، وقد ألّفه في عام 1024 هـ / 1615م، كإجابة على أسئلة وردت عليه من طرف سكان منطقة توات، طلبوا فيها منه فتوى حول هذا الموضوع.
2- تحفة الفضلاء: أوجز فيه أحمد بابا فضل العلماء ومجّد فيه العلم ورجاله.
3- جلب النّعمة ودفع النّقمة: وموضوعه حول علاقة العلماء برجال السلطة.
4- اللّمع في الإشارة إلى حكم التّبغ: وموضوعه فتوى ورأي شديد التحفظ في قضية استهلاك التّبغ الذي انتشر في العالم آنذاك.
5- تنبيه الواقف على تحرير نيّة الحالف: تناول فيه بالشّرح فصلا في مختصر خليل حول موضوع نيّة الحالف.
6- النّكت المستجادّة: وهو في النحو.

كانت تمبكتو مركز الثقافة العربية الإسلامية الأول في بلدان السودان الغربي خلال القرن السادس عشر الميلادي، وقد تكاثر علماؤها وقصدها طالبو العلم من أصقاع عديدة، وحتّى أبناء الوجهاء الوثنيين من بلاد (الموسى) كان يبعث بهم أباؤهم ليتعلّموا في تمبكتو، لأنّ اللغة العربية كانت هي لغة الثقافة الوحيدة في السوادين آنذاك، وعلى حين غفلة داهمت جيوش سلطان مرّاكش (المنصور الذهبي) مملكة صنغاي واحتلّت تمبكتو في عام 1591م مستفيدة من استعمال البارود في مجابهتها لجيش الأسقيا اسحاق صاحب كاغو، والذي كان جيشه لا يتوفر إلاّ على السيوف والنشاشيب ورغم البسالة وإجماع السوادين على الوقوف إلى جانب ملكهم، فإنهم لم يستطيعوا مجابهة الأسلحة النارية التي كانت تحصدهم وهم ينادون (نحن إخوانكم مسلمون) ، وبمجرّد دخول جيش المنصور تمبكتو راح أفراده بتوجيه من قائدهم (جؤذر) البرتغالي الأصل، يفتّشون

البيوت ويأخذون منها كلّ الحليّ ذات القيمة، كي يوافوا بها سلطانهم في مراكش كهدايا وغنائم.

لقد رفع أحمد بابا عقيرته بالاحتجاج ضدّ هذا الغزو المغربي، وخشية من المغاربة لما قد يكون لذلك من تأثير على السكان ليستمروّا في المقاومة، تمّ نفي أحمد بابا وأفراد عائلته إلى مراكش عاصمة المنصور، ولمّا وصل أحمد بابا بعد أتعاب كثيرة تحمّلها في الطريق، قابل المنصور واستنكر عليه غزو بلاده المسلمة وسكانها المسلمين.

كما نهاه عن محادثة الناس من وراء حجاب لأن ذلك ليس ولا يمكن أن يكون فيه شيء من تقاليد الإسلام والمسلمين، ولقد تمّ نفي أحمد بابا إلى مراكش بعد أن نهبت مكتبته التي كانت تتكون من ستّة عشر ألف كتاب، كما صرح هو نفسه بذلك.

وقد بقي أحمد بابا منفيًا في مراكش لعاملين كاملين، ازدادت فيهما شهرته، ذلك أنه جلس للتدريس بعد وصوله إلى مراكش مباشرة، فقد كانت سمعته والعديد من تآليفه عرفها الناس قبل وصوله إلى مراكش، فلمّا استقرّ بمراكش وجلس للتدريس في جامع الشرفاء بها تجمّع حوله طلاب العلم بأعداد كبيرة، ودرست عليه نخبة من بينهم على الخصوص أبو القاسم الغسّاني (قاضي فاس) ، وابن القاضي (قاضي مكناس)، وقد ألّف أحمد بابا خلال إقامته بمراكش عديدا من المصنّفات بلغ مجملها تسعة وعشرين كتابا من بين الستة والخمسين كتابا التي ألفها طيلة حياته، بعضها في شكل فتاوي طويلة وبعضها في مواضيع علمية فقهية ولغوية، وبعضها تناولت جوانب في المنطق والسير والبلاغة والنّحو.

كان أحمد بابا طيلة إقامته في مراكش شديد الحنين إلى بلاده ومدينته تمبكتو بالخصوص، وقد لاحظ عليه الناس أنه كلما ذكرت أمامه إغرورقت

عيناه بالدموع، وقد نظّم في ذلك أبياتا من الشعر أيضا، أودعها ما كان يكنّه من ذلك التشوق لبلاده والذي كان يمتلئ به وجدانه.

ولما توفي المنصور الذهبي، أطلق ابنه وخليفته سراح أحمد بابا وسمح له بالعودة إلى بلاده، فعاد إليها واستأنف نشاطه في نشر العلم وفي الإفتاء وبقي كذلك حتّى وافته المنية بتمبكتو في عام 1036 هـ 1627 م.

أهمّ المصادر

1- أحمد بابا، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، طرابلس 1989 (إشراف وتقديم عبد الحميد الهرامة).

2- محمد اليفراني: نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، باريس 1888 (نشر هوادس).

3- عبد القادر زبادية: "الحركة التعليمية في تمبكتو القرن السادس عشر"، **المجلة التاريخية المغربية**، 1975.

4- A. Cherbonneau, " Notice sur Ahmed BABA, le tomboucien Journal Asiatique, 1853.

5- LEVI- provençal, Ahmed BABA, ENC, Islam, Tz, P 288.

6- M. Zoubir, Ahmed BABA DE Tomboktou, sa vie et son œuvres, paris 1977.

محمد بن عبد الكريم المغيلي
(توفي في عام 909 هـ)

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني، والمغيلي نسبة إلى قبيلة مغيلة التي تقطن في نواحي مدينة تلمسان بالجزائر.

وقد نعته ابن مريم في كتاب البستان بأنه (خاتمة المحقّقين، الإمام العلاّمة المحقّق الفهامة القدوة الصّالح السنّي الحرّ، أحد أذكياء العالم و(أحد) أفراد العلماء اللذين أوزوا بسطة في العلم والتقدم والنّسبة في الدّين، المشهور بمحبّة رسول الله صلى الله عليه وسلّم وبغض أعدائه جرى بينه وبين جماعة مشاحنة وأمور...)[1].

لقد كان عصر المغيلي بمثابة الفترة الانتقالية اجتماعيا في داخل البلدان المغاربية عموما، ذلك أن اليهود جاءوا بأعداد كبيرة بعد طردهم وطرد المسلمين من الأندلس كما هو معروف، وقد استقرت أعداد كبيرة منهم في المدن الساحلية، ثمّ نزلوا إلى الجنوب فسكنوا في الواحات الصّحراوية لأن تجارة القوافل كانت نشيطة في أيام المغيلي، وكانت الأرباح التي يكسبها التجار مع بلدان السّودان الغربي ذات أهمية كبيرة، ونظرا إلى أن اليهود كانوا بارعين في التجارة فقد أصبحت أكثريتهم غنية، ممّا جعلهم يتنفّذون لدى أصحاب السلطة سواء في الشمال أو في الجنوب، وهذا ما جعل المغيلي ينكر على أولي الأمر من المسلمين خنوعهم لأغنياء اليهود، كما أنكر على اليهود عدم احترامهم لقاعدة أهل الذّمة في بلاد الإسلام.

وقد باشر المغيلي التعليم والإرشاد في تلمسان ونواحيها، لكنه كان متضايقا من فساد السلطة وتنفّذ اليهود، فهاجر إلى تمنطيط في منطقة توات

(1) ابن مريم، أبو عبد الله محمد بن أحمد المديوني: (نشر ديوان المطبوعات الجامعة) الجزائر 1986 – ص 253 فما بعد (وقد كان معاصرا للمغيلي).

بالجنوب الجزائري، فوجد اليهود هناك شبه ماسكين بزمام الأمور سواء فيما يتعلق بالتجارة أو بالتنفّذ لدى أولي الأمر ومن ثمّ التحكم في رقاب المسلمين كما صرح هو بذلك، فأنكر عليهم ذلك وجميع تلاميذه وأنصاره فخرّبوا كنيستهم التي كانت كبيرة جدّا مرتئيا أن كنائسهم في بلاد المسلمين يجب أن تكون أقلّ حجما، ودخل معهم في صراع مرير إلى درجة أنه أمر بأن تعطى لكل من يقتل يهوديا سبعة مثاقيل ذهب بعملة ذلك العصر.

انقسم الناس في أيام لمغيلي بين مناصر ومخالف لأعماله وأفكاره، ومن أبرز من أنكروا عليه عمله في تمنطيط بالذات قاضيها أبو عبد الله العصنوني، وهذا ما جعل المغيلي يكاتب العلماء في فاس و تلمسان و تونس مستفتيا وراجيا منهم موافاته بآرائهم في هذا الموضوع[1].

بعد معركة تمنطيط هذه مع اليهود وأنصارهم في منطقة توات سافر المغيلي إلى السّوادين (... ثم ارتحل إلى بلاد أصير ودخل بلدة نكدة واجتمع بسلطانها وقرأ عليه أهلها وانتفعوا به، ثم دخل بلاد وكشن من بلاد السّودان، واجتمع بسلطان كنو[2] وكتب له رسالة في أمور السّلطنة... وعلّمهم أحكام الشرع وقواعده، ثم ارتحل إلى بلاد التّكرور، فوصل إلى بلاد (كاغو) واجتمع بسلطانها أسقيا الحاج محمد، وجرى على طريقته[3] من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وألف له تأليفا أجابه فيه عن مسائل، وبلغه هناك قتل ولده بتوات فانزعج لذلك وطلب من سلطانها قبض التواتيّين اللذين في كاغو، فحينئذ قبض

(1) ابن مريم، ص 254.

(2) كتب الألوري ص 82 (وفي عهد سلطان كانو المسمى (رنفا) حضر الشيخ محمد المغيلي إلى كانوا ومكث بها مدة تولى فيها القضاء والإقامة وتزوج بها وخلف ثلاثة أولاد أحمد و عيسى و السيّد الأبيض)

(3) الضمير هنا يعود للمغيلي.

عليهم، وأنكر عليه سيدنا أبو المحاسن محمود بن عمر إذ لا ذنب لهم في ذلك فرجع عن ذلك وأمر بأطلاقهم، وارتحل لتوات فأدركته المنية بها سنة تسع وتسعمائة [1].

وللمغيلي عديد الكتب والرسائل، مشهور منها ما يلي:

1- البدر المنير في علوم التفسير،

2- تفسير الفاتحة،

3- مصباح الأرواح في أصول الفلاح،

4- شرح مختصر خليل.

5- إكليل معنى النبيل (وهو حاشبة على مختصر خليل أيضا)،

6- رسالة في البيوع شملها (مفتاح الكنوز)،

7- إيضاح السّبيل في بيوع آجال خليل،

8- شرح بيوع الآجال (كتفسير على كتب ابن الحاجب في هذا الموضوع)،

9- رسالة في المنهيات،

10- مفتاح النظر في علم الحديث،

11- شرح جمل الخرنجي في المنطق،

12- رسالتان في المنطق،

13- منهج الوهاب (وبه منظومة في المنطق)[2].

14- مقدمة في العربية،

15- قصيدة ميمية في مدح الرسول (ص)،

16- مكر الملبسين بدعوى مقامات العارفين،

(1) ابن مريم المصدر السابق ص 255.

(2) كان للمغيلي خلاف ومراسلة مع الأمام السّيوطي، حيث كان هذا الأخير ينكر المنطق لأنه ممّا يؤمن به الكفار (الإغريق (أما المغيلي فكان من أنصار المنطق (يراجع ردّ السّيوطي على المغيلي في ابن مريم (المصدر نفسه ص 256)) .

17- كتاب الفتح المبين،

18- رسالة إلى أمراء كانو،

19- أجوبة على أسئلة الأسقيا محمد، صاحب الصّنغاي.

في كل من رسالة المغيلي إلى أمراء (كانو) والأجوبة السبعة التي واف بها أمير الصّنغاي الأسقيا محمد الكبير، ظهر المغيلي كعالم فقيه يرى أنه على الحاكم أن يكون في خدمة رعيته إلى أقصى الحدود، ذلك لأنّه خادمهم ومسؤول عن مصيرهم، ومتى توفرت فيه هذه الشروط، فإنّ عليه أن يتّخذ جميع الطرق في النّهي والرّدع، ليرد الباغي وينصر المظلوم، وذلك هو منطق الإسلام الصّحيح، كما أظهر في مكاتباته هذه أنه كان مطّلعا إلى حد كبير على سلوك الناس في بلاد السّوادين وعارفا بمدى معرفتهم بالإسلام.

حاء مثلا في الإجابة رقم(1) على الأسئلة التي طلب منه أمير الصنغاي موافاته بالإجابة عنها ما يلي:... (... إنما أنت مملوك لا تملك شيئا، وقد رفعك مولاك على كثير من عباده لتصلح لهم دينهم ودنياهم، لا لتكون سيّدهم ومولاهم، وأنت في جميع مملكتك راع لا مالك..).

وجاء في الإجابة على المُساءلة رقم 4 قوله:

(..وليس من المنكر قتل الظلمة والمفسدين وأعوانهم، ولو كانوا يصلّون ويصومون ويزكّون ويحجّون).

وجاء في الإجابة على المساءلة رقم 7 والخاصّة بالسّحرة والمطفّفين في المكاييل والموازين، ما يلي:

(إنّ كلّ ما ذكرتموه عن بعض أهل البلاد ضلال عظيم، فواجب على المسلمين، وكلّ من له قدرة من المؤمنين أن يغيّر تلك المناكر كلّها، أمّا من يزعم أنه يعلم علم الغيب بشيء من تلك الأمور أو غيرها، فإنه كاذب ومن صدّقه كفر، فواجب أن يقفوا للتوبة تحت السيف، فمن تاب ترك، ومن أبى قتل

بالسّيف كفرا... قال صلى الله عليه وسلّم: من صدق كاهنا فقد كفر بما انزل الله على قلب محمد صلى الله عليه وسلّم، وكذلك يوقف بالسّيف كلّ ساحر وساحرة، وكلّ من يزعم أن عنده من الطّلاسم والعزائم ونحوها ما يجلب الرّزق أو يهزم العدوّ أو نحو ذلك، فمن تاب منهم ترك، ومن أبى قتل... وأمّا التطفيف فهو حرام بالكتاب والسنة وإجماع علماء الأمّة، وواجب على أمير المؤمنين أن يجعل أميرا على الأسواق وحفظ الأرزاق، فيصلح موازين كلّ بلد على نسبة واحدة بتقويم الميزان والوزن وتسوية الصّنوج... وكذلك إصلاح المكائل كبارها وصغارها حتى تكون كلّها على نسبة واحدة، ولا بدّ من عرض الموازين والمكاييل على التغيير في كلّ حين، فمن ظهرت عليه الخيانة في شيء من الوزن أو الكيل، فعاقبوه وأخرجوه من أسواق المسلمين...)

أهمّ المصادر

1- ابن مريم المديوني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، الجزائر 1908.

2- أسئلة الأسقياء محمد وأجوبة المغيلي، تقديم وتحقيق أ.د - عبد القادر زبادية الجزائر 1974.

3- عبد الله الألوري – موجز تاريخ نيجيريا – بيروت 1965.

4- أ.د يحي بوعزيز – تاريخ أفريقيا الغربية الإسلامية من مطلع القرن السادس عشر حتى مطلع العشرين - الجزائر 1989.

الحسن الوزّان الزّيّاتي
(1489 م – 1552 م)

ينحدر الحسن بن محمد الوزّان من أسرة غرناطية عريقة، فقد كان أبوه محمد الوزّان مثقفا كما كان جده كذلك، وكلّ منهما كان موظفا لدى حكومة غرناطة، وفي عام 1492 استولت جيوش فرديناند وزوجته إيزابيلا على الأندلس وطردت المسلمين منها، كما أقامت المحاكم المعروفة بمحاكم التفتيش لإحراق من يكون قد بقي منهم في الأندلس يخفي تديّنه بدين الإسلام، حيث أجبرت الكل على اعتناق الكاثّوليكية دون نقاش، وهذا ما دفع عائلة الحسن الوزّان، كأغلبية العائلات الأخرى من مسلمة ويهودية في غرناطة، للهجرة إلى بلاد المغرب العربي، وقد استقرت عائلة الحسن الوزّان في فاس، وتوظف هو، نظرا لثقافته العالية بقياس ذلك العصر، لدى سلطان فاس، ومن أبرز المهام التي كانت توكل إليه هي السفارات، فسافر إلى أفريقيا جنوب الصحراء، كما سافر إلى مصر والقسطنطينية، أكثر من مرّة في بعض هذه المهام، كما زار عواصم البلدان المغاربية المجاورة في مهامّ سياسة مماثلة، وكان خلال تلك الرحلات يحظى بمقابلة السلاطين ووزرائهم، كما كان يلتقي برجال الثقافة والوجاهة أيضا، ممّا زاده خبرة وبعد نظر وتألقا فكريا واجتماعيا، وهذه الصفات هي تلك التي كان يمتاز بها هذا الرجل في زمانه.

لقد كان زمن الحسن الوزّان (النصف الأول من القرن السادس) فترة نشاط الأساطيل الغربية، وخاصة الأسطول الإسباني في تنظيم الهجومات المتكررة على الموانئ المغاربية، حيث إنّ ملك وملكة اسبانيا كانا ينفذان خطتهما المسماة بـ (Reconquesta) والهادفة إلى إعادة بلدان الشمال الإفريقي إلى الديانة المسيحية، وذلك بعد (تحرير) الأندلس وطرد المسلمين منها نهائيا، وهذا ما جعل الموانئ المغاربية عموما، وكذلك منطقة البحر الأبيض المتوسط، في جزئها الغربي على الخصوص، مجالا لمعارك تكاد لا تنتهي من سنة إلى أخرى.

وقد نشط في هذه الفترة، كردّ فعل على الأقل، الإخوان خير الدين وعرّوج في خوض المعارك والنجاح فيها ضد الإسبان، وقد كان للحسن الوزّان في إحدى زياراته الدبلوماسية إلى المغرب الأوسط، لقاء بعرّوج والتحدث معه شخصيا وكان ذلك في مدينة بجاية في الجزائر.

في عام 1518 م على الأرجح، كان الحسن بن محمد الوزان عائدا من المشرق عن طريق البحر، بعد أن أدّى فريضة الحجّ، مقربة من وفي جزيرة جربة إختطفه القراصنة الإيطاليون[1]، وقدّموه (هديّة) منهم إلى البابا (ليون العاشر) في روما، وقد عرف عن هذا البابا ثقافته الواسعة وعنايته بالآداب والآثار، فأحسن وفادة الحسن الوزّان وعمّده مسيحيّا باسم (جوهانيس ليوروميديسيس) إلاّ أنّ الإسم الذي التصق به فيما بعد هو (ليون الافريقي).

توفي الحسن الوزان في عام 1552 على الأرجح، وكلّ ما يعرف عن حياته في إيطاليا أنّه كان يعرف اللغة الاسبانية عند وصوله إلى روما، ثمّ تعلّم اللاّتينية والإيطاليّة وهو في إيطاليا، وكان له صلات كثيرة برجال الأدب، كما أنه مارس تعليم اللغة العربية للإيطاليين في مدينة بولونيا، و لم يتأكّد بعد، فيما إذا كان الحسن الوزان قد عاد في أواخر أيامه إلى تونس وتوفي بها بعد أن رجع إلى الإسلام، كما تقول بعض الروايات أو أنه توفي بإيطاليا و لم يعد إلى تونس و لم يعد للإسلام، كما تقول روايات أخرى.

ينسب المؤرّخون للحسن الوزان عدّة كتب له في (تاريخ الإسلام) و لم يصل إلينا من هذه الكتب سوى بعض الأوراق القليلة لا تزال تحتفظ بها مكتبة الأشكوريال، في اسبانيا (مدريد).

ويعتبر كتابه (وصف إفريقيا) الذي وصل إلينا باللغة الإيطالية وتمّت ترجمته إلى العديد من اللغات، كتابا مرجعيا فيما يتعلق بإفريقيا، جنوب

(1) فرسان القديس يوحنا"، الذين اشتهروا بهذا الإسم آنذاك وكانو من أنشط التشكيلات القرصينية العاملة في البحر الأبيض المتوسط، وخاصة ضد المسلمين.

الصحراء وعلاقاتها مع العرب والمسلمين في القرن السادس عشر للميلاد، وقد ظلّ هذا الكتاب مرجعا أساسيا عن إفريقيا وممالكها وعاداتها وتقاليدها في أوروبا لمدة قرنين على الأقل بعد تأليفه وإطلاع الناس على محتوياته.

يشتمل كتاب وصف إفريقيا على الكثير من التفاصيل الجغرافية والاقتصادية والاجتماعية، وكذلك العادات والتقاليد في إفريقيا جنوب الصحراء، بالإضافة إلى الممالك الموجودة بها آنذاك، كما أن أسماء القبائل وأماكن تواجدها في البلدان المغاربية وخاصة الجزائر التي استقرت بها أعداد كبيرة من بني هلال وبني عامر بشكل خاص، قد تناول الحسن الوزان تفاصيل عنها أيضا.

وقد تحدّث الحسن الوزان أيضا في هذا الكتاب الهام في موضوعه آنذاك عن المدارس الهامة الموجودة ببلدان المغرب وفي إفريقيا السودانية، كما تحدث ما أمكنه عن المناخ والأشجار المثمرة والنباتات، وأعطى معلومات عن العملة وسبكها، كما تحدّث عن القرى الآمنة في بلدان المغرب العربي، وتحدّث عن صحاري برقة وأزواد وعن المسافات وغيرها، وختم كتابه بما يلي

(وقد سجّلت بعناية، يوما فيوما، كلّ الأشياء التي بدت لي جديرة بالذّكر، ثمّ الوضع الذي رأيتها عليه، أمّا التي لم أرها بنفسي، فقد استقيت معلومات موثوقة وكاملة عنها من أشخاص جديرين بالثقة، ومن ثمّ رتّبت هذه المذكّرات قدر استطاعتي، وقد عملت منها أخيرا مادة مصنف عندما كنت في رومية في العام 1526 من الميلاد).

أهم المصادر

1- الحسن بن محمد الوزان – وصف إفريقيا – ترجمة (عبد الرحمان حميدة ونشر جامعة الإمام محمد بن سعود الاسلامية، دون تاريخ).

2- Jean – Léon l'Africain, Déscription de l'Afrique, tra., (A. EPAULARD) .

ابن حوقـل
(توفي في عام 977هـ)

هو أبو القاسم محمد بن علي النَّصِيي، نسبة إلى بلدة نصيبين الواقعة في منطقة الجزيرة بشمال ما بين النهرين، وقَد قضّى السنوات الأولى من عمره في منطقته هذه، وفي شهر ماي من عام 938 هـ بدأ رحلاته العديدة فزار كـل بلاد الإسلام، ورسم خرائط لها كما سجّل عديد الملاحظات حولها، ممّا جعل كتابه (المسالك و الممالك) من ابرز ما ألفه الجغرافيّون العرب في هذا الميدان.

انطلق ابن حوقل في رحلاته لأول مرّة من بغداد بإتجاه شمـال إفريقيـا والأندلس ومشارف الصحراء الكبرى ثمّ عاد بإتجاه بغداد مارّا بمصر التي ربمـا يكون قد مرّ بها قبل ذلك أيضا وهو في طريقه إلى المغرب و الأندلس، ومـن بغداد إنطلق للمرة الثانية بإتّجاه أرمينيا وأذربيجان وخوزستان وفارس وخوارزم وبلاد ما وراء النّهر وقد زار أيضا جزيرة صقلية ولا نعرف هل كـان ذلـك خلال رحلته الأولى أو أثناء رحلته الثانية، والأرجح أنه ربما يكون قد أفردهـا بزيارة خاصة أثناء رحلته الثانية.

يعتبر ابن حوقل احد الجغرافيين العرب الكبار في العـصور الوسـطى، ويصنّف إلى جانب أولئك المشهود لهم بحسن الإنجاز في هذا الميدان من أمثـال الأصطخري والإدريسي والمقدسي على الخصوص، وبعد عودته إلى بغداد مـن رحلته الأولى إلى بلدان الغرب الإسلامي، في عام 340 هـ التقى بالأصطخري الذي كان قد سبقه في رسم الخرائط وتبيان المسالك والممالك في بلدان الإسلام وما حولها، فعرض عليه هذا الأخير خرائطه ورجاه أن يصحّح ما يراه غير دقيق فيها، وقد فعل ابن حوقل ذلك استجابة لطلب الأصطخري، حيث يبدو أنـه كان بينهما تقدير متداول.

كان ابن حوقل وهو في تنقلاته الكثيرة في بلدان الإسلام الشاسعة يشتغل بالتجارة، وهو بذلك يمثل دور أولئك الرحالة المثقفين في العالم الإسلامي خلال العصر الوسيط، فقد كانوا مثقفين وتجّارا في الوقت ذاته، وكانوا كلّما حلّوا ببلد يجمعون ما استطاعوا من المعلومات حوله بما فيها من جانب سياسي ووضع اقتصادي وثقافي، ويسجّلون كل ذلك في مذكراتهم التي تبقى ذخرا لمن بعد هم ومرجعا هاما، وقد تتاح لهم الفرصة لمقابلة أمير البلد او مساعديه، كما أنهم كانوا يبحثون عن رجال الثقافة والعلم في ذلك البلد ويجلسون إليهم ويحاورونهم في كلّ ما يتعلق ببلدهم واهتماماتهم الخاصة، إلى غير ذلك.

كلّ الجغرافيين العرب قد وضعوا في خرائطهم إفريقيا الغربية جنوب الصحراء وكذلك شرق إفريقيا ابتداء من سوفالا (سقال كما يسميها أحمد بن ماجد) وما حولها كجزء معروف للعالم الإسلامي في العصر الوسيط، وفيما يتعلق بإفريقيا جنوب الصحراء، فإن ابن حوقل كغيره من الجغرافيين العرب قد أدرج بلدان السوادين (إفريقيا الغربية جنوب الصحراء) وبلاد الزنج (إفريقيا الشرقية) ضمن بلدان الإسلام، وذلك سواء فيما دوّنه كتابة من ملاحظات أو في الخريطة التي وضعها لتشمل جميع بلدان الإسلام وبعض البلدان المجاورة لها.

ويمتاز ابن حوقل عن سواه من الجغرافيين العرب بشيئين اثنين هما:

الأول: أن أكثر ما كتبه أو رسمه قد جاء عن مشاهدة ومعاينة ذاتية ذلك أنه كان دائم الترحال، وزار بلاد الإسلام كلّها، وكتب ما شاهده بعينيه، ورسم ما مرّ به وعاينه من المناطق والجهات، ومن هنا اختار الأصطخري أن يوكل إليه مهمة تصحيح الخرائط التي وضعها.

الثاني: أنه كان لا يعتني فقط، كما كان يفعل غيره من الرحالة والجغرافيين العرب في الغالب، سواء فيما يتعلق بإفريقيا جنوب الصحراء أو بغيرها من البلدان الإسلامية الأخرى، بحصر معظم ملاحظاته غالبا حول المواد أو الأشياء الثمينة مثل الأحجار الكريمة والتّبر والفضّة والذهب والعاج

المستخرج من أنياب الفيلة، وإنّما كانت ملاحظاته تشمل كلّ البضائع التي توجد في الأسواق وأثمانها ومدى تواجدها.

وفي غير ذلك، فإنّ ابن حوقل كغيره من الجغرافيين والرحالة العرب إنما عمل على مساعدة مهمة التجار والرحالة لتسهيل مهمّتهم وهم يتجوّلون في بلدان الإسلام الواسعة الأرجاء كي يعرفوا مسبّقا المسالك والممالك، أو صورة الأرض كما يسمّيها البعض، ويلاحظ أنه كان أميل إلى تأييد الفاطميين الشيعة، فهو لا يألو أن يرى في طريقتهم في الحكم والعقيدة ذلك البريق الذي تقبله النفوس وترضى عنه.

ويمتاز ابن حوقل عن غيره من أولئك الجغرافيين أيضا بأنه صاحب إحدى القوافل الصّحراوية وربما يكون قد وصل وهو في صحبتها إلى أودغست في أقصى الجنوب الموريطاني حاليا[1]، وأثبت أنّ أهلها على اتصال وعلاقات تجارية مع مملكة غانا الغنية بالذهب، وهو يشبه في هذا فقط المسعودي الذي يقال أنه ربما كان قد تجول في الشرق الإفريقي وربما يكون قد وصل إلى مدغشقر، إلاّ أن المعروف عن المسعودي أنه ليس جغرافيا بقدر ما هو مؤرخ.

(1) كانت مدينة أود غست لا تبعد كثيرا عن كمبي صالح التي أثبت اصحاب الحفريات الأثرية أنها ربما كانت هي عاصمة غانا القديمة.

أهمّ المصادر

1- كحالة – معجم المؤلفين – ج 11 ص 5.
2- الموسوعة العربية الميسّرة – بيروت 1980.
3- DE GOEJE – IBN HAWKAL, LEYDEN 1873.
4- G. WIEFT, IBN HAWKAL – CONFIGURATION DE LA TERRE, Paris Beyrouth, 1964.
5- BLANCHERE ET H.DARMAUN, extrait des principaux géographiques arabes du moyen age, paris 1957.

الأصطخري
(توفي حوالي 950 هـ)

هو أبو القاسم إبراهيم بن محمد المشهور بالفارسي، أما كلمة الأصطخري فهي نسبة إلى مسقط رأسه اصطخر، وهو من أوائل الجغرافيين والرّحّالة اللذين ألّفوا فيما كان يعرف عند العرب — بـ (علم البلدان) ويبدو أنّه ألّف كتابه (المسالك والممالك) في السنوات الأخيرة من حياته) [1] وقد أرفق كتابه بخرائط كما فعل ابن حوقل والإدريسي، وكان همّه من كلّ ذلك هو أن يساهم في تسهيل مهمّة التجّار والرّحالة في تنقلاتهم عبر المملكة الإسلامية وهي في أوج اتّساعها.

تحدّث الاصطخري في كتابه عن كلّ الأقاليم التي كانت تشملها المنطقة الإسلامية الواسعة الأطراف ابتداء من الحجاز وخاصة مكة المكرمة والمدينة المنوّرة، ثمّ وصف ديار العرب وفارس جميعا، كما تحدث عن البحار الواقعة على شواطئها البلدان الإسلامية وكذلك الجبال العالية والطرق الموصلة إلى المناطق المختلفة وما قد يجده الرّحّالة والتجار من صعوبات إلى غير ذلك.

وقد أدرج الاصطخري المنطقة السّوادنية إلى الجنوب من الصحراء ضمن المنطقة المغاربية ومصر، وقبل ذلك تحدّث عن النيل فقال

(وأما النّيل فإنه ابتداء مائه لا يعلم، وذلك أنه يخرج من وراء أرض الزّنج، لا تسلك، حتى ينتهي إلى حدّ الزنج).

وفي وصفه لحدود ومساحات السّوادين الغربية يقول:

(فإن بلد السّودان الذي في أقصى المغرب على البحر المحيط بلد مكثّف [2] ليس بينه وبين شيء من الممالك اتّصال، غير أن حدّا له ينتهي إلى

---

(1) الاصطخري، المسالك و الممالك، تحقيق محمد جابر (الدكتور)، القاهرة 1961.
(2) أي واسع الأرجاء ومعزول

البحر المحيط، وحداً إلى بريّة بينه وبين أرض المغرب، وحدّا إلى بريّة بينه وبين أرض مصر على ظهر الواحات، وحدّا له ينتهي إلى البريّة التي قلنا إنه لا يثبت فيها عمارة لشدّة الحرّ، وبلغني أن طول أرضهم نحو سبعمائة فرسخ في نحوها، غير أنها من البحر إلى ظهر الواحات أطول من عرضها، وأمّا أرض النّوبة فإن حدًّا لها ينتهي إلى أرض مصر، وحدّا لها إلى هذه البريّة التي بين أرض السّودان و مصر، وحدّا لها إلى أرض البجة، وبراري بينها وبين القلزم، وحدّا لها إلى هذه البرية التي لا تسلك، وأمّا أرض البجة فإنّ ديارهم صغيرة، وهي ما بين الحبشة والنّوبة وهذه البرية التي لا تسلك، وأمّا الحبشة فإنها على بر القلزم... فينتهي حدّ لها إلى بلاد الزّنج، وحدّ لها إلى البريّة التي بين النوبة وبحر القلزم، وحدّ لها إلى البجة والبريّة التي لا تسلك، وأمّا أرض الزنج فإنها أطول من أرض السّودان، ولا تتصل بمملكة غير الحبشة)

يلاحظ هنا أنّ الصطحري قد يجسّم في وصفه هذا المعارف الأولى التي كانت للعرب ببلاد السّوادين، وهي معارف عامة لم تصل بعد إلى التفاصيل، ولذلك اكتفى أثناء وصفه للمسالك بين المنطقة المغاربية والمنطقة السّودانية بقوله: (وبين المغرب وبلد السّودان مغاور منقطعة لا تسلك إلاّ من مواضع معروفة) [1]، كما أن تسميته لمنطقة الشرق الإفريقي ببلاد الزنج وتسميته لمنطقة الغرب الإفريقي ببلاد السّودان هي من الاصطلاحات التي كانت لدى بعض الجغرافيين العرب حتّى وقت متأخّر، في تسمية هاتين المنطقتين.

---

(1) المصدر السابق، ص 37.

أهمّ المصادر

1- الاصطخري – المسالك والممالك – تحقيق محمد الجـــابر (الـــدكتور) – القاهرة 1961.

2- The Encyclopaedia Of Islam, Leiden 1995.

3- دائرة المعارف الإسلامية (نسخة معرّبة) ، طهران (ت.ت).

البكري أبو عبد الله
(توفي عام 1094 م)

هو أبو عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن أيوب بن عمرو، عاش وألّف في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري (لنصف الثاني من القرن الحادي عشر للميلاد)، وهو بذلك أقدم جغرافي أندلسي وصلت إلينا أخباره[1]، وينحدر البكري من قبيلة بكر التي كان لها شأن كبير بين القبائل العربية في غرب الأندلس، وكان لعائلته بشكل خاص باع طويل في تسلم المناصب السياسية والقضائية بتلك البلاد، فقد كان جدّه محمد بن أيوب قاضيا في بلدة (بلّة) ثمّ نراه يصبح بعد ذلك واليا على (شلطيش: SATES) ثم يعود إلى بلّة (ULVA) (واليا أيضا، وذلك في أيام الخليفة الأموي هشام المؤيد بالله، وفي هذا المنصب نراه يحاول أن يستقل بحكم هذه الولاية فيصبح أميرًا بعد أن كان واليا فقط، وهذا بمجرّد سقوط الدولة الأموية وبداية فترة الاضطرابات التي رأتها البلاد الأندلسية عموما خلال تلك الفترة المضطربة والانتقالية، والتي يشير إليها المؤرخون عادة بفترة ملوك الطوائف وقد نجح في ذلك إلاّ أن ابنه عبد العزيز الذي خلفه على هذه الإمارة لم يستطع المحافظة على الاستقلال بها، فباءت جميع محاولاته بالفشل أمام هجمات جيش المعتضد أمير أشبيلية الذي كان يحاول بتصميم كبير بسط نفوذه على الأندلس بأسرها، فقد أُجبر عبد العزيز أبو البكري على التخلي عن الإمارة والهروب منها في جنح الليل، مع ابنه، وغادرها إلى قرطبة التي كانت آنذاك قصبة لإمارة مستقلة تحكمها طبقة من الأعيان بزعامة أسرة بني جوهر، وكانت تستقبل كلّ الذين يفرّون إليها بعد فشلهم أمام هجمات أمراء أشبيلية الأقوياء.

وفي قرطبة زاول البكري تعلّمه، فأخذ العلم عن أشهر علماء عصره، وفي عام 456 هـــ (1064م) التحق بخدمة محمد بن معن أمير المرية ولقي لديه الحضوة والاحترام كعالم مثقف ومستشار، وفي عام 478 هـــ (1085–

1086م) نجد البكري يبحر إلى مراكش ممثلا لأمير المرية، وذلك ضمن ذلك الوفد الذي ترأسه أمير أشبيلية وذهب به إلى الأمير يوسف بن تاشفين في مراكش راجيا منه العون العسكري للوقوف ضدّ نصارى قشتالة الذين تعاظم خطرهم على الوجود العربي الإسلامي في الأندلس آنذاك.

توفي البكري في عام 487هـ 1094م، وترك العديد من التآليف نعرف منها مايلي:

1- كتاب في إعلام نبوّة نبينا محمد
2- شفاء عليل العربية
3- الأمثال السائرات: وهو شرح على كتاب الأمثال للقاسم أبي عبيد ابن سلاّم
4- كتاب اللآلي على كتاب الأمالي: وهو شرح على كتاب الأمالي لأبي علي القالي.
5- كتاب معجم ما استعجم
6- كتاب المسالك والممالك.

وإذا كانت كتبه الخمسة الأولى تتعلق بالمساهمات العادية في اللغة والنحو والأنساب كما هو الشأن في ذلك الوقت، فإن أبا عبد الله البكري قد أتى بالجديد في كتاب المسالك والممالك، ذلك أنه جمع عن مملكة غانا الإفريقية معلومات كثيرة وأودعها كتابه هذا، فكان بذلك سبّاقا لمثل هذا التصنيف.

لم يزر البكري بلاد السّوادين، لكنه جلس إلى التجار ورجالات القوافل الذين كانوا يزاولون التجارة بين بلدان الشمال الإفريقي بما فيها مصر، ومن الأندلس أيضا، وبين بلدان السّودان الغربي، وهذا في حركة متواصلة ربما تعود بدايتها إلى ما قبل العهد الإسلامي أيضا، يقول البكري عن مملكة غانا:

1 دائرة المعارف الإسلامية (ب- ص) ، ص 48 توفي أبو عبد الله البكري في شوال عام 487 هـ (1094 م) وترك من التآليف عديد الكتب، نعرف منها ما يلي:

(وغانة سمة لمولكهم، واسم البلد أو كار، واسم ملكم اليوم، وهي سنة ستين وأربعمائة، تنكامين، وكان اسم ملكهم قبله بسي، وقد تولّى عليهم وهو ابن خمس وثمانين سنة، وكان محمود السّيرة محبّا للعدل مـؤثرا للمـسلمين... ومذهبهم ابن الملك لا يكون إلاّ في ابن أخت الملك لأنه لا يشكّ فيه أنه ابـن أخته... وتنكامين هذا شديد الشوكة عظيم المملكة مهيب السلطان... ومدينة غانة مدينتان سهليتان، أحدهما المدينة التي يسكنها المسلمون وهي مدينة كبيرة فيها اثنا عشر مسجدا، أحدها يجمعون فيه،[1] ولها الأئمة والمؤذنون والراتبون، وفيها الفقهاء وحملة العلم، وحواليها آبار عذبة... ومدينة الملك على ستة أميال من هذه، وتسمى بالغابة، والمساكن بينهما متصلة، ومبانيهم بالحجارة وخشب السنط، وللملك قصور وقباب، وقد أحاط بذلك كله حائط كالـصوّر، وفي مدينة الملك مسجد يصلي فيه من يفد عليه من المسلمين... وحول مدينة الملك قباب وغابات يسكن فيها سحرتهم، وهم الـذين يقيمـون دينـهم، وفيهـا دكاكينهم وقبول ملوكهم... ولتلك الغابات حرس، ولا يمكن لأحد دخولهـا ولا معرفة ما فيها، وهناك سجون الملك فإذا سجن فيها أحد انقطع عن الناس خبره، وتراجمة الملك من المسلمين وكذلك صاحب بيت ماله وأكثر وزرائه)

ويضيف البكري في سرد الأخبار التي جمعها عن غانا ونظامها السياسي والإجتماعي... (ولا يلبس المخيط من أهل دين الملك غيرهُ وغير ولي عهـده وهو ابن أخته، ويلبس سائر الناس ملاحف القطن والحرير والديباج على قـدر أحوالهم، وهم جميعا يحلقون لحامهم، ونساؤهم يحلقن رؤوسـهنّ، وملكهـم يتحلّى بحلي النساء في العنق والذراعين، ويجعل على رأسه الطـراطير المذهبـة عليها عمائم القطن الرفيعة وهو يجلس للناس... فإذا دنا أهل ديانته منه جثـوا على ركبهم ونثروا التراب على رؤوسهم، فتلك تحيتهم، وأمّا السملون فـإن سلامهم عليه تصفيفا باليدين... وهم يذبحون لموتاهم الذبائح ويقـربون لهـم

---

(1) يصلون فيه الجمعة.

الخمور، وللكهم على حمل الملح دينار ذهب في إدخاله البلـــد، وديــاران في إخراجه، وله على حمل النحاس خمسة مثاقيل، وعلى حمل المتاع مثاقيل... وإذا وجد في جميع معادن بلاده الندرة من الذهب استصفاها الملك، وإنما يترك منها للناس هذا التبر الدقيق ولولا ذلك لكثر الذهب بأيدي الناس حتى يهون...)

وبمثل ما يتحدث البكري عن غانا ونظامها، وهو أول من قام بهذا، نجده يتحدث أيضا عن تادمكة وملل وغيرهما من الإمارات والمدن في الغرب والوسط الإفريقي، وكذلك المسافات بينهما وعادات أهلها وتقاليدهم، ويذكر أحيانـــا من استند إليهم في جمع أخباره من بين التجار ورجال القوافل، كما يتحـــدث أيضا عن الأشجار والطيور الموجودة بالسّوادين كما يتحدث عن المسافات بين المدن والنواحي، وكذلك الزراعة مما يجعل كتابه أول موسوعة عربية مختـــصرة عن منطقة الغرب الإفريقي جنوب الصحراء، خلال القـــرن الحـــادي عـــشر للميلاد.

أهم المصادر

1- البكري، أبو عبد الله، المغرب فيذكر بلاد أفريقيا والمغرب، وهو جزء مـــن كتاب المسالك والممالك، طبعة 1857 (نشر البارون دي سلان).

2- د. عبد القادر زبادية: الحضارة العربية والتأثير الأوروبي في أفريقيا الغربيـــة جنوب الصحراء (الملحق رقم 2) ، الجزائر 1989.

3- دائرة المعارف الإسلامية (ب.ص) ص 48.

4- المقري – نفح الطيب – ليدن 1858 –ج 2 – ص 124 فما بعد.

5- ابن بشكوال – الصّلة – مدريد 1883.

أبو الحسن بن سعيد
(1214 م - 1286 م)

هو أبو الحسن علي بن سعيد بن موسى بن عبد الملك بن سعيد، ولـد عام 1214 م في قلعة (يحصب) من أعمال غرناطة، وهو ينحدر من عائلة كان لها شأن في بلاد الأندلس أيّام التواجد العربي بها، فقد كان جـده الأول عبـد الملك رجل علم وأدب، كما كان فارسا مغوارا اشترك في عدّة معارك فاصـلة إلى جانب جيوش المسلمين ضدّ أعدائهم في الأندلس[1] وأمّا جده الثاني موسى فقد كان عاملا على الجزيرة الخضراء في الأندلس، عيّنه عليها ابن هود الـذي انضم موسى إلى ثورته ضدّ الموحّدين، ولما قتل ابن هود هذا في عام 1237 م، لم يؤثر ذلك على موسى وبقي مستقلا بمنصبه في الجزيرة الخضراء، وقد كـان موسى محبا للعلم ومؤلفا، وفي هذا الجوّ الأميري المريح نشأ سعيد الأب فشغف بالعلم والثقافة، وأراد لإبنه أن يكرع من فروع العلم ما استطاع وما راق لـه، وذلك تمشيّا مع تقاليده العائلية ورغبته الشخصية في الوقت ذاته، فبعث بـه إلى اشبيلية التي كانت موطن العلم والثقافة الأول في بلاد الأنـدلس آنـذاك، وفي أشبيلية قضى علي بن سعيد فترة هامة من شبابه يتلقى العلم على أبرز العلمـاء والمفكرين الأشبيليين وغير الأشبيليين الذين أقاموا بأشبيلية قادمين من البلـدان المغاربية ومن المشرق العربي من أمثال: علي الـشلوبين، البطليوسـي، وابـن عصفور، وغيرهم، ولمّا عاد إلى بلده نراه يشترك مع أبيه في إتمام كتاب (المغرب في حلي المغرب) الذي كان جدّه عبد الملك قد شرع في تاليفـه، ولكنـه لم تسعفه الظروف على إتمامه، كما اضطلع وبتكليف من أبيه، بأمور تسيير إمارة أبيه سنوات وذلك قبل أن يسافر مع أبيه إلى الحج في عام 1240م.

وفي طريقة إلى الحجّ حظي ابن سعيد باستقبال جيّد من طرف العلماء في مصر، كما لقي المعاملة المماثلة ذاتها لدى وصوله إلى الحجاز، ورغم ذلك، فقد

(1) كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي، بيروت 1970 ص 6.

فقد كان لابن سعيد حنين إلى الأندلس، بلاده ومسقط رأسه، لا يفارقه، فعبر عنه وهو في مدينة الفسفاط، بالأبيات التالية:

أصبحت أعترض الوجوه فلا أرى — ما بينها وجها لمن أدريــــه
عودي إلى بدني ضلا بينهــــم — حتى كأني من بقايا التيــــه
ويح الغريب توحّشت ألحاظــه — في عالم ليسوا بشبيــــــــه
إن عادلي وطني اعترفت بحقّــه — إن التغرُّب ضاع عمري فيه

كان ابن سعيد كغيره من علماء عصره موسوعة في علوم عصره، فقـــد كان يجمع بين الأدب والمنطق والجغرافيا وغيرها، وقد انعكس ذلك في المعروف من مؤلفاته حتّى الآن، وهي:

1- المغرب في حلي المغرب.
2- المرزمة (ذكر المقري في نفح الطيب أن كتاب المرزمة هذا كان بمثابة حمـــل ضخم بحيث لا يمكن تداوله في الأسواق).
3- نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب.
4- عنوان المرقصات والمطربات.
5- لذة الأحلام في تاريخ أمم الأعجام.
6- الطالع السعيد في تاريخ بني سعيد.
7- الغرّة الطالعة في شعراء المائة السابعة.
8- القدح الملّي في التاريخ المحلّي.
9- النفحة المسكية في الرحلة الملكية.
10- كنوز المطالب في آل علي بن أبي طالب.
11- كتاب ملوك الشعراء.
12- المقتطف من أزهار الطرف.
13- القرائح في مختار المراثي والمدائح.

14- ريحانة الأدب في المحاضرة.
15- الغراميات.
16- حلّ الرسائل.
17- عدّة المستنجر وعقلة المستوفر (وهو يشتمل على رحلته الثانية من تونس إلى المشرق في عام 666 هـ).
18- كتاب المحلّي بالأشعار.
19- حيا المحل وجني النحل (ذكره القلقشندي في صبح الأعشى)
20- تاريخ مرتب على السّنين.
21- المعرب عن سيرة أهل المغرب.
22- الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة.
23- رايات المبرزين وغابات المميّزين.
24- السّلك من حلي العروس الأندلسية.
25- مجموعة الأشعار.
26- كتاب الجغرافيا.

سافر ابن سعيد مرتين إلى المشرق العربي وزار بغداد و البصرة و دمشق والقاهرة والقدس، وكانت له في كل هذه المدن اتّصالات بالعلماء والمفكرين في هذه المدن، كما زار أرمينيا خلال سنوات رحلته الثانية وأقام بها عدة أعوام في ضيافة هولاكو الذي كانت فتوحاته لا تزال أخبارها آنذاك تدوي في الآذان، وتوفي ابن سعيد عام 1283م، على الأرجح، ولا يعرف إن كان توفي بتونس أو في دمشق.

كتاب الجغرافيا:

تحدث ابن سعيد في كتاب الجغرافيا عن الأقاليم و المدن المعروفة للمسلمين في ذلك الوقت، ومن بينها بريطانيا، وذكر لكل إقليم أو مدينة موقعه

على خطوط العرض، وتحدّث عن جزر الكناري المعروفة عند العرب بجزر الخالدات وعن المحيط الأطلسي و كوريا و المحيط الهادي.

وتحدث عن شرق إفريقيا، فذكر أن مقديشو كانت على أيامه مدينة مزدهرة، كما تحدث عن بلاد الأحباش وعن النيل وعن بلاد النّوبة، وتحدث عن القوافل التجارية وكيف تنظم كما ذكر الكثير عن المصاعب التي تعترضها وهي تقطع الصحراء إلى السوادين، وذكر بلاد الزّنج وسفالة وبربرا التي هي مناطق في الشرق الإفريقي وأشار إلى ما يلاقيه المسافرون في تلك البلدان من أعمال يقوم بها السّحرة، تثير الرعب في النفوس، وقد صنّف حديثه عن إفريقيا كما صنفه بالنسبة لبقية الأقاليم على أساس خطوط الطول والعرض، كما كان قد صنفها بطليموس[1]، ففي حديثه عن الإقليم السادس الذي يصف فيه ساحل الشرق الإفريقي مثلا، سجّل لنا ابن سعيد ما يلي "الجزء السادس: فيه على البحر الهندي عمائر السّفالين[2] وما لم يشتهر من مدنهم... وهي صيونة حيث الطّول تسع وتسعون درجة والعرض درجتان ونصف، وهي على خور كبير ينزل فيه نهر من جبل القمر. إلى غربيها جون[3] كبير هي في شرقيّه، طوله من خط الاستواء خمس درجات ونصف، وفي هذه المدينة ملك السّفالين وهم زنج يعبدون الأوثان والحجارة ويصبون عليها دهن السّمك الكبار، وأكثر معاشهم من الذهب والحديد ولباسهم جلود النمور، والخيل لا تعيش عندهم، فعسكرهم رجّالة، وذكر المسعودي أن الزنج يقاتلون على البقر كما تقاتل النوبة على المهاري..).

(1) لبطليموس خريطة على أساس أن الأرض مسطحة ولا يعرف وجهها الآخر، (الأمير كتان)، وقد اعتمد عليها في كثير من الأحيان الجغرافيون العرب القدامى كابن سعيد والمقدسي وابن حوقل.

(2) نسبة إلى سفالا.

(3) خليج.

أهم المصادر

1- كتاب الجغرافيا لأبي الحسن بن سعيد – تقديم وتحقيق إسماعيل العربي، بيروت 1970.

2- The encyclopaedia of islam, Leiden 1995.

3- ابن سعيد، أبو الحسن – المغرب في حلى المغرب – تحقيق أ.د شوقي ضيف، القاهرة 1953.

الحميري ابن عبد المنعم
(توفي في عام 727 هـ)

هو محمد بن عبد المنعم الصّنهاجي، كما يدعى بالصنهاجي الحميري أيضا، ويعرف خاصة بابن عبد المنعم، ينسبه البعض إلى مدينة سبتة، ولا يعرف فيما إذا كان قد ولد بها أو أنّه ولد في إحدى مدن الأندلس وعاش بها ثمّ قضى الجزء الأخير من عمره في سبتة، أمّا كنيته التي عرف بها فهي (أبو عبد الله).

عرف ابن عبد لمنعم الحميري بإطلاعه الواسع على علوم زمانه، فقد ذكر عنه محمد بن القاسم الأنصاري السبتي في كتابه (أخبار الاختصار عمّا كان بثغر سبتة من سني الآثار) ما يلي:

(... الشيخ اللّغوي الحافظ الأنبل، المتفنن في المعارف أوحد زمانه في ذلك، وأمام عصره، أبي عبد الله بن عبد المنعم الصّنهاجي) ، ومن بين مشاهير الأساتذة اللذين أخذ عنهم ابن عبد المنعم الحميري الصّنهاجي ذكر ابن الخطيب اثنين هما:

أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن عيسى الغافقي (ت 716هـ) وأبو القاسم، القاسم بن عبد الله بن الشّاط (ت 723 هـ)

وابن المنعم الحميري هو أحد الجغرافيين الكبار في التراث العربي – الإسلامي، وهو من أوائل من رتّبوا مؤلّفاتهم في هذا الميدان طبقا للحروف الأبجدية، كما هو الشأن في لقواميس، وذلك لتسهيل مهمّة القارئ في الإطّلاع على أي صقع أو إقليم يريد معرفته، فتحت قسم (ت) مثلا يتحدّث الحميري عن مدينة تادمكة في بلاد النيجر حاليا كما يلي:

(تادمكة في بلاد السّودان، وهي أشبه ببلاد الدنيا بمكة شرّفها الله تعالى، ومعنى هذا تادمكة عندهم هيئة أي على هيئة مكّة... وهي أحسن بناء من مدينة غتنة وكوكو، وأهل تادمكة بربر مسلمون، وهم يتنقبون كما يتنقّب بربر

الصّحراء، وعيشهم من اللّحم ومن اللّبن ومن حبّ تنبته الأرض من غير اعتمال... ويلبسون الثياب المصبّغة من القطن والصّوف وغير ذلك، وملكهم يلبس عمامة حمراء وقميصا أصفر، دنانيرهم تسمّى الصّلع لأنها ذهب محض غير مختومة، ونساؤهم فائقات الجمال لا يعدل بهن نساء بلد حسنا، والزّنا عندهم مباح، وهنّ يتلقّين التّجار إذا أقبلوا إلى بلدهم ويتقارعن على الرجل أيّتهن تحمّله إلى منزلها، وبين تادمكة وغانة خمسون مرحلة، وبينهما مدن وعمائر للسّودان والبربر).

ويتحدّث عن تكرور كما يلي:

(تكرور مدينة في بلاد السودان بقرب مدينة صنغانة على النيل[1] ، وهي أكبر من مدينة شلى وأكثر تجارة، وإليها يسافر أهل المغرب القصى بالصّوف والنّحاس والخرز ويخرجون منها بالتبر والخدم، وطعام أهل شلى وأهل تكرور السّمك والذّرة والألبان، وأكثر مواشيهم الجمال والمعز، لباس عامّة أهلها الصّوف، وعلى رؤوسهم كرازيّ الصوف ولباس خاصّتهم القطن والمآزر ومن مدينة شلى وتكرور إلى سجلمانة أربعون يوما بسير القوافل، وأقرب البلاد إليها من بلاد لمتونة صحراء أزقى، وبينهما خمس وعشرون مرحلة).

من تقاليد الجغرافيين والرّحالة العرب مثل المقدسي وابن عبد المنعم وغيرهما أنّهم حينما يتحدّثون عن جهة ما أو مدينة أو إقليم يصفون أيضا النّواحي الاقتصادية والاجتماعية بصورة خاصة، والحميري ابن عبد المنعم، لا يخرج عن هذا التقليد في كتاباته، ولكنّه ربما يمتاز في عدم إهمال هذه العادة في كلّ مدينة أو إقليم يذكره، كما أنه يعطي من التفاصيل قدرا يزيد أحيانا عن أمثاله من المؤلفين في مناسبات عديدة.

---

(1) نهر النيجر.

إن القارئ يجد مثلا لدى الحميري وصفا فيه تفصيل للمشاق التي يتحملها رجال القوافل أثناء عبورهم الصحراء الكبرى باتجاه السودان الغربي ذهابا و إيابا، قد لا يجده عند غيره، فيقول:

(... الصحراء التي يدخل المسافرون منها إلى أودغست وغانة وغيرهما من البلدان قليلة الأنس، لا عامر بها وبها الماء القليل، ويتزوّدونه من مجاباة معلومة، وفي هذه الصحراء حيّات كثيرة طويلة القدود، غليظة الأجسام، والسودان يصيدونها ويقطعون رؤوسها ويرمون بها، ويطبخونها بالماء والملح والشيح ويأكلونها، وهي عندهم أطيب طعام يأكلونه، وهذه الصحراء يسلكها المسافرون في زمن الخريف، فيوفرون أحمالهم في السحر الأخير، ويمشون إلى أن تطلع الشمس فيحطّون رحالهم ويقيّدونها، ويفرشون أمتعتهم ويخيّمون على أنفسهم ظلالا لتقيهم من حرّ الهجير وسموم القائلة، ويقيمون كذلك إلى أوّل وقت العصر، وحين تأخذ الشمس في الميل والانحطاط في جهة الغرب، فيرحلون من هناك ويمشون بقية يومهم، ويصلون المشي إلى وقت العتمة، ويبيتون بقيّة ليلتهم إلى وقت الفجر الأخير، ثمّ يرحلون، وهكذا سير التجّار الدّخالين إلى بلاد السّودان، لأنّ الشمس تقتل بحرّها من يعرض للمشي في القائلة عند شدّة القيض وحرارة الأرض).

أهم المصادر

1- محمد بن عبد المنعم الحميري، الرّوض المعطار في خبر الأقطار – تحقيق إحسان عبّاس، ط 2، بيروت 1984.

2- محمد بن عبد المنعم الحميري، الروض المعطار – تحقيق ليفي بروفنسال، باريس، 1932.

المسعودي

(توفي عام 346 هـ - 956 م)

من أشهر وأقدم الرّحالة والمؤرخين العرب الذين كتبوا في التاريخ و(علم البلدان) ، تحدّث عنه ابن شاكر في وفيات الأعيان بقوله هو (علي بن الحسين بن علي أبو الحسن / المسعودي المؤرخ، من ذريّة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال الشيخ شمس الدين، عداده في البغداديّين، وأقام بمصر مدّة، وكان إخباريا علاّمة، وله من التصنيفات: كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر في تحف الأشراف والملوك، وكتاب ذخائر العلوم وما كان في سالف الدّهور، وكتاب الرسائل والاستذكار بما في سالف الأعصار، وكتاب التاريخ في أخبار الأمم من العرب والعجم، وكتاب المقالات في صفوف الدّيانات، وكتاب أخبار الزمان ومن أباده الحدثان، وكتاب البيان في أسماء الأئمة، وكتاب الخوارج، والله أعلم)[1].

وتحدث عنه ابن النّديم في الفهرست قائلا: (المسعودي هذا الرجل من أهل المغرب واضح الغلط هذا من طرف بن النديم فيما يتعلق بنسبه المسعود إلى المغرب (أي البلدان المغاربية دون تحديد) لأن الرجل مشرقي وبغدادي بالتحديد مصنف لكتب التواريخ وأخبار الملوك)[2] ولخص جرجي زيدان عن مسيرة المسعودي في خصوص الأسفار والتأليف كما يلي:

(هو علي بن الحسين بن علي، من ذريّة عبد الله بن مسعود، ولذلك قيل له المسعودي، نشأ في بغداد، وجاء مصر، ورحل في طلب العلم إلى أقصى البلاد، فطاف فارس وكرمان سنة 309 هـ حتى استقرّ في اصطخر، وفي السنة التالية قصد فارس وكرمان والمنصورة، ثمّ عطف إلى كنباية فصيمور[3] فسرنديب[4]، ومن هناك ركب البحر إلى بلاد الصّين، وطاف البحر الهندي إلى

(1) ابن شاكر – وفيات الأعيان – ج 2 – ص 94.
(2) طبعة القاهرة، ص 219.
(3) أندونيسيا.
(4) سيلان حاليا

مدغشقر وعاد إلى عمان، ورحل رحلة أخرى سنة 413 هـ إلى ما وراء أذربيجان، ثمّ إلى الشام وفلسطين، وفي سنة 332 هـ جاء أنطاكية والثغور الشامية إلى دمشق، واستقرّ أخيرا بمصر، ونزل الفسفاط سنة 345 هـ، وتوفي في السنة التالية، و لم يفتر في أثناء أسفاره عن الاستقصاء والبحث واكتساب العلوم على اختلافها، فجمع من الحقائق التاريخية والجغرافية ما لم يسبقه إليه أحد، وألّف كثيرا من الكتب المفيدة في مواضيع شتّى، وأهمّها في التاريخ).

وفي كتاب (مروج الذهب ومعادن الجوهر)[1] تحدث المسعودي، كما هي عادة المؤرخين العرب القدامى عن تكوين العالم منذ الأزل، كما أسهب في الحديث عن آدم والأجناس المتفرّعة كذلك عن ذريّته، أمّا بخصوص أفريقيا والأفارقة، فيعتبر المسعودي من أوائل من أعطوا تفاصيل عن شرق أفريقيا خاصة، ذلك أنه زار مدغشقر بنفسه ثم جمع كثيرا من المعلومات حول المناطق الأخرى في الشرق الإفريقي امتاز بها عن غيره من الرّحالة والتجار وسجّلها بأسلوبه الممتاز، وممّا قاله في ذلك:

(لمّا تفرّق ولد نوح في الأرض، سار ولد كوش بن كنعان والحبشة نحو المغرب حتّى قطعوا نيل مصر، ثمّ افترقوا، فسارت منهم طائفة ميمّنة[2] بين المشرق والمغرب، وهم النّوبة والبجّة والزّنج، وسار فريق منهم نحو المغرب، وهم أنواع كثيرة، نحو الزّغاوة و الكانم و مركة وكوكو وغانة، وغير ذلك من أنواع السّودان والدّمام، ثمّ افترق اللذين مضوا بين المشرق والمغرب، فصارت الزّنج من المكير والمشكر وبربرا وغيرهم من أنواع[3] الزّنج، وقدّمنا فيما سلف عند ذكرنا للبحر الحبشي الخليج البربري وما عليه من أنواع السّودان واتصالهم في بلدانهم إلى بلاد الدّهلك والزّيلع وناصع، وهؤلاء القوم أصحاب جلود

(1) طبعة القاهرة 1958 وطبعة بيروت (منشورات الجامعة اللبنانية، إشراف شارل بيلا).
(2) أي متجهة
(3) أي أجناس و قبائل.

النمور الحمر، وهي لباسهم، ومن أراضيهم تحنل إلى بلاد الإسلام... وبر الزّنج والأحباش هي عن يمين بحر الهند... ومن أراضيهم يحمل الذّيل من ظهور السّلاحف، وهو الذي تتخذ منه الأمشاط كالقرون).

وبعد هذا يتحدّث المسعودي عن الزرافة وطبيعتها وأصلها، الموجودة في بلاد الزنج على حدّ تعبيره، وكذلك عن الحيوانات الأخرى كالنمور المفترسة، وكذلك أيضًا الأفيال الموجودة بكثرة، وكيف أن أهل بلاد الزنّوج لا يركبونها وإنما يصطادونها ليأخذوا منها العاج الذي يحمل إلى بلاد العرب وإلى الصين والهند كذلك، ويستطرد المسعودي في وصف الحدود الجنوبية لأقاليم بلاد الزنج أو أقاليم السّوادين الشرقية قائلا

(... وأقاصي بلاد الزّنج هو بلاد سفالة، وأقاصيه بلاد الواقواق، وهي أرض كثيرة الذّهب... كثيرة العجائب، خصبة حارّة) ، وفي وصفه لطباع سكّان تلك الأقاليم وحيواناتهم، ذكر ما يلي:

(وليس في أرضهم خيل ولا بغال ولا إبل ولا يعرفونها، وكذلك لا يعرفون الثلج والبرد ولا غيرهم من الأحابيش، ومنهم محدّدة الأسنان يأكل بعضهم بعضا)

لقد بوّب المسعودي الفصل الذي تحدّث فيه عن بلدان الزّنج والسوادين عامة تحت عنوان (فصل في ذكر السودان وأنسابهم واختلاف أجناسهم وأنواعهم، وتبيانهم في دياناتهم وأخبار ملوكهم) ، ويلاحظ استعمال المسعودي في هذا الفصل للاصطلاح الذي كان قد دأب عليه معظم المؤلفين العرب القدامى والمتمثل خاصة في إطلاق اسم الزّنج وبلاد الزّنج على شرق الإفريقي وأقاليمه، وإطلاق اسم السودان وبلاد السوادين على منطقة الغرب الإفريقي بصورة عامة.

كما يلاحظ كذلك أن الجمال، التي يطلق عليها عادة اسم سفن الصحراء، وهو اصطلاح له دلالته العملية دون شكّ، وكذلك البغال والخيل، لم

يكن الأفارقة جنوب الصحراء يعرفونها، وإنما أدخلت إلى السّوادين عن طريق العرب، وتذكر المصادر أن امتلاك الخيل والبغال والجمال، منذ القرن الحادي عشر الميلادي فما بعد، أصبح في متناول الأفارقة إلى الجنوب من الصحراء الكبرى، ولكنّه ظلّ مقصورا على الوجهاء الأغنياء والأمراء وكبار القوم وهذا يتناسب وما ذهب إليه المسعودي في زمانه بهذا الشأن وهو يكتب في القرن العاشر للميلاد.

أهم المصادر

1- المسعودي، علي بن الحسين – مروج الذّهب ومعادن الجوهر، القاهرة 1958.

2- المسعودي، علي بن الحسين – مروج الذّهب ومعادن الجوهر، إشراف شارل بيلا (منشورات الجامعة اللبنانية) (د.ت).

3- دائرة المعارف الإسلامية (النسخة المعرّبة)، طهران (د.ت).

الشريف الإدريسي
1100 – 1166م

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إدريس العالي بأمر الله، وكلمة الشريف تعني انتسابه عائليا إلى الشرفاء أي المتّصل تسلسل نسبهم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، أو أحد أفراد عائلته.

ولد الإدريسي في مدينة سَبْتَه، وربما أكمل دراساته في قرطبة، وتجوّل كثيرا في إسبانيا وفي البلدان المغاربية، ولا نعرف كثيرا عن سيرته ربما لأن المؤلفين المسلمين على أيامه لم يهتمّوا كثيرا بأخباره طالما وأنه عاش حتى وفاته في صقلية وكان بها محظوظا لدى ملكي النورمان (روجر الثاني) ثمّ خليفته (غيّوم) وهما مسيحيان خاصة وأنّ الفترة كانت فترة حروب صليبية.

وقد اشتهر الإدريسي بكتابه (نزهة المُشتاق في اختراق الآفاق) الذي ألّفه استجابة لطلب الملك روجر الثاني، ولذلك جاء في النسخ الستة التي تناهت إلى الأيدي من هذا الكتاب عبارة (كتاب روجي) وعبارة (كتاب روجاري) أيضا كما وضع الإدريسي أيضا خريطة للعالم بناء على رغبة روجر الثاني، ذلك أنّ هذا الأمير أو الملك كان مولعا بالحضارة العربية وبعلوم العرب في الجغرافيا، وقد انتهى الإدريسي في تأليف كتابه هذا في عام 548 هـ الموافق لعام 1154م، وذكر معاصره الصقلّي ابن بشرون أن الإدريسي يكون قد ألّف كتابا آخر للملك (غيّوم الأول) موضوعه في الجغرافيا أيضا، أمّا عنوانه فهو (روض الأنس ونزهة النفس) ، غير أنّ هذا الكتاب لم يُعثر له على أثر حتى الآن.

ويمتاز الإدريسي في كتابه (نزهة المشتاق) بما ذكره عن إقليم مناخي ثامن يقع إلى الجنوب من خط الاستواء، كما يمتاز بما ذكره عن شرق إفريقيا بأنّ زنوجها يستخرجون الحديد ويبيعونه كمادة تصدير يستفيدون منها كثيرا، ولم يشر إلى تجارة الذهب والحديد وأنياب الفيل التي يُصنع منها العاج كما

هو الشائع لدى غيره من المؤلفين وذلك لأنّ هذه المواد الأخيرة كان يعرفها الجميع، فلم يرد أن يذكرها على ما يبدو واكتفى بما رآه جديرا بالذكر، أكثر وهو تجارة الحديد.

ويعتبر كتاب الإدريسي في الجغرافيا وكذلك الخريطة الفضية التي رسمها للعالم عملا في غاية الدقة بالنسبة لعمل الجغرافيين حتى ذلك الوقت، ممّا يدل على براعة الرجل وثقافته، وقد أشار (أبو الفداء) في مقدمة مؤلفه المعروف بـ (تقويم البلدان) إلى (كتاب الشريف الإدريسي في الممالك والمسالك) على حدّ تعبيره، ممّا يدلّ على أنه يكون قد استفاد منه واطلّع عليه، وقد اهتمّ بالإدريسي ومؤلفاته كثير من المستشرقين، فعثروا حتى الآن على عدد آخر من الملّخصات لكتاب (نزهة المشتاق) ممّا يدل على أنّ هناك كثيرين قد استفادوا من المعلومات التي احتوى عليها ولخّصوها، كما عثروا على نسخة غير كاملة ذُكِر أنها من تأليف الإدريسي أيضا، ولكنّ موضوعها في النباتات، وغير غريب على الإدريسي أن يكون اهتمامه أيضا بالنباتات وأنواعها وأسمائها وفوائدها الصّحّيّة، ذلك أن عصره كان عصر الموسوعات وعلى العالم أن يكون ملمّا بجميع أنواع العلوم وإن كان يركّز اهتمامه أكثر بميدان معين منها.

في (نزهة المشتاق) أعطى الإدريسي كثيرا من المعلومات التي لا تزال قائمة حتى الآن في خصوص إفريقيا جنوب الصحراء، فهناك لديه ذكر لكلّ المدن الهامة في الشرق الإفريقي، وخاصة (كلوة) و(مالينـدة) التي وصفها بالمزدهرة، وقال إنّ لها تجارة هامة مع (سفالة)، كما تحدث عن مدينتين في الصّومال الحالي هما (براوة) و(بركة) ، وذهب إلى أنّ تجارة الزنوج في شرق إفريقيا كانت في زمانه منصبّة على الحديد والجلود الحمر اللّينة، وأنّ الزنوج يستخرجون فلزات الحديد من معادنه في داخل القارة وينقلونها إلى جانب الجلود، على رؤوسهم إلى المدن الساحلية، فيبيعونها، وذكر أنّ هناك بين التجار إلى جانب العرب جماعات من الهنود، يشترون هذه البضائع، ومعلوم أنّه في

تلك الفترة كانت للسيوف المصنوعة في الهند شهرتها، وكان الحديد يؤخذ كمادّة أولية من شرق إفريقيا على الخصوص.

أمّا عن غرب إفريقيا، فقد كانت المعلومات التي احتواها كتاب (نزهة المشتاق) أكثر تفصيلا، فقد تحدث الإدريسي عن كثرة التجار المغاربيين اللذين كانوا يرتادون أسواق الغرب الإفريقي جنوب الصحراء في رحلات طويلة وشاقة بقوافلهم العديدة، فيحملون الصوف والقماش والخرز إلى تلك الأسواق ويعودون بالتبرو والرقيق، وتحدّث عن مدن الغرب الإفريقي وممالكه بإسهاب وخاصة ممالك غانا ومالي وغيرهما.

وفيما يتعلق بمملكة غانا خاصة، ذكر الإدريسي أنّ هناك للمسلمين بها مناصب وزارية عديدة أسندت إليهم من طرف ملوكها، وأخرى سامية أيضا، وتحدث عن عاصمتها (كمبي صالح) كما أسهب في الحديث عن مدى الغنى الذي كان يتمتع به أميرها، الذي ذكر الإدريسي عنه أنه كان يتوفر في خزائنه على قطعة ذهبية ذات حجم كبير لدرجة تجعلها فريدة من نواعها عالميا، والجدير بالذكر أنّ هذه القطعة تواردت أخبارها في كثير من المصنفات العربية من تلك الفترة وتحدث عنها خاصة العلامة ابن خلدون، بعد ذلك فذكر أنها بلغت من الوزن أكثر من طن واحد وباعها أحد أمراء غانة (المسرفين) في النهاية إلى أحد التجار من مصر، وذكر الإدريسي أنّ هناك في تلك المنطقة معدنين هامّين يستخرج منهما الذهب بكميات هامة أحدهما يقع ببلاد التكرور في الناحية الغربية، والآخر يقع في "بلاد ونقّار بالناحية الشرقية، و وصف الإدريسي قصر ملك غانا خاصة فقال ما يلي:

((وله قصر على صفة النيل قد أولق بنيانه، وأحكم إتقانه، وزيّنت مساكنه بضروب من النقاش والأدهان وشمسيات الزجاج، له في قصره لبنة من ذهب وزنها ثلاثون رطلا من ذهب، تبرة واحدة، خلقها الله خلقة تامّة من غير أن تسبك في نار أو تطرق بآلة، وقد نقر فيها ثقب، وهي مربوطة لفرس الملك، وهي من الأشياء المغربية التي ليست عند غيره... وهو يفخر بها على سائر ملوك السودان)) .

أهمّ المصادر

1- الشريف الإدريسي – وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية (وهو جزء من كتاب نزهة المشتاق في اختراقه الآفاق) الجزائر 1957.

2- محمد عبد الغني حسن – الشريف الإدريسي (سلسلة أعلام العرب رقم 97) القاهرة 1971.

3- Encyclopédia of islam, leiden, 1991.

القزويـــني
(1203 – 1283م).

هو زكريا ابن محمّد بن محمود القزويني، نسبة إلى بلده قـــزوين. قـــضى القزويني جزء من شبابه في بلده، ثم انتقل إلى دمشق فأتمّ بها ما أراد من معارف عصره، ولقد عاش القزويني تلك الفترة المضطربة جـــدًا في تـــاريخ الخلافـــة العبّاسية، ذلك أنه عاصر الخليفة المعتصم، وقد وظّفته الدولة كقاضي في واسط أوّلا ثمّ في الحلّة.

إن الخليفة المعتصم هو آخر خلفاء بني العبّاس، وفي عهده هاجمت جيوش المغول بغداد وعاثت فيها فسادا، وكان قائدهم كما هو معلوم ذلك الرّجـــل الفظّ (هولاكو)، وفي هذه الفترة ألّف القزويني كتابـــه الـــشهير في الجغرافيـــا والتاريخ معًا وسمّاه (آثار البلاد وأخبار العباد)(1).

ويعتبر كتاب القزويني من أهمّ ما تناهى إلينا من المؤلّفات العربية في علم الجغرافيا، ويظهر من محتواه مدى إطّلاع القزويني على معلومـــات عـــصره في الميدان الجغرافي على الخصوص، وقد أوضح القزويني في مقدّمة مؤلفه هذا أنـــه جمع فيه (كل ما وقع له وعرفه وسمع به وشاهده من لطائف صنع الله وعجائب حكمته المودعة في بلاده).

وقد رتّب القزويني كتابه هذا في سبعة فصول، كل فصل يخصّ إقليما مناخيا معيّنا، وتحدّث في البداية عن الأهمّيّة التي يراها في بناء المدن واستحداثها، وذلك للفوائد الكثيرة التي تنجم عادة عن التّجمع البشري، كما وصف بعض المدن التي عرفها وتاريخها، وتحدّث عن الإنسان، فذهب إلى أن النّاس إنّما يتساوى كلّ واحد منهم مع الآخر، وهم يختلفون فقط فيما يكون كلّ واحد منهم قد اكتسبه من علم أو من صنعة أو تعبُّد لله تعالى.

---

(1) دار صادر – بيروت، طبعة أولى دون تاريخ، وانظر كـــذلك (كتـــاب عجائـــب المخلوقات وغرائب الموجودات) وضمنه (كتاب آثار البلاد وأخبار العبـــاد، غـــوتنجن Gutengen1849.

صدّر القزويني كتابه بخريطة كبيرة مدوّرة الحجم، وضع عليها مناطق الأمم والشعوب المعروفة لديه، غير أن النصف الواقع إلى جنوب خط الاستواء تركه بياضا، كما فعل ابن حوقل وغيره من الجغرافيين العرب القدامى على العموم.

وفي رسم المنطقة الإفريقية جنوب الصحراء الكبرى، أدرج القزويني منطقة السّودان الغربي وبلاد الزنج ضمن الإقليم الأوّل الذي يشمل المنطقة المغاربية أيضا، وذلك لأنّ الجغرافيين العرب كانوا يعتمدون خطوط العرض في تقسيمهم للأقاليم على سطح الكرة الأرضية، كما كان يفعل الجغرافيون الإغريق قبلهم.

لم يزر القزويني أفريقيا جنوب الصّحراء كما لم يزر المغرب ولا الأندلس، ولكن حديثه عن البلدان المغاربية وعن مدن الأندلس كان أكثر دقّة، ذلك لأن البلدان المغاربية والأندلس كانت بالنّسبة إلى المشارقة في ذلك الوقت معروفة أكثر، أمّا إفريقيا جنوب الصّحراء فلم تكن بمثل ذلك.

رتّب القزويني النواحي والبقاع التي وصفها حسب النّظام الأبجدي قائلا على الخصوص: (فلنذكر ما وصل إلينا ببقعة في كلّ إقليم، مرتّبة على حروف المعجم والله الموفّق للسّداد) ، وتحدّث في حرف الباء عن بلاد البجة قائلا هي (بلاد متّصلة بأعلى عيذاب في غرب منه، أهلها صنف من الحبش، بها معادن الزّمرد، يحمل منها إلى سائر الدّنيا، ومعادنه في جبال هناك، وزمردها أحسن أصناف الزمرّد الأخضر). وتحدّث عن بلاد التّبر قائلا (هي بلاد السّودان في جنوب المغرب، قال ابن الفقيه: هي بلاد حرّها شديد جدّا، أهلها بالنّهار يكونون في السّراديب تحت الأرض... وطعامهم الذرّة واللّوبيا، ولباسهم جلود الحيوانات...ومن سجلماسة إلى هذه البلاد ثلاثة أشهر، والتّجار من سجلماسة يمشون إليها بتعب شديد، وبضائعهم الملح وخشب الصّنوبر وخشب الأرز، وخرز الزّجاج والأسورة والخواتم منه، والحلق النّحاسية...). وتحدّث عن بلاد

الحبشة قائلا: (هي أرض واسعة شمالها الخليج البربري وجنوبها البرّ وشرقها الزّنج وغربها البجة، الحرّ بها شديد جدّا وسواد لونهم لشدّة الاحتراق، وأكثر أهلها نصارى يعاقبة، والمسلمون بها قليل... لكن بلادهم قليلة وأكثر أرضهم صحارى لعدم الماء وقلّة الأمطار، وطعامهم الحنطة والدّخن، وعندهم الموز والعنب والرّمان، ولباسهم الجلود والقطن، ومن الحيوانات العجيبة عندهم: الفيل والزرافة، ومركبهم البقر، يركبونها بالسّرج واللّجام مقام الخيل...) ، وتحدّث عن بلاد الزّنج بما نصّه: (بلاد الزّنج مسيرة شهرين، شمالها اليمن وجنوبها الفيافي وشرقها النوبة وغربها الحبشة... وبلاد الزّنج شديدة الحرّ جدا، وحلكة سوادهم لاحتراقهم بالشمس... زعم الحكماء[1] إنّهم شرار النّاس... قال جالوس:

خصّصوا بأمور عشرة: سواد اللون، وفلفلة الشعر وفطس الآنف وغلظ الشّفتين والكعب، ونتن الرائحة وكثرة الطّرَب وقلّة العقل وأكل بعضهم بعضا، فإنّهم في حروبهم يأكلون لحم العدو، ومن ظفر بعدوه أكله، وأكثرهم عراة لا لباس لهم، ولا يرى زنجي مغموما، الغمّ لا يدور حولهم، والطّرب يشملهم كلّهم، قال بعض الحكماء:

سبب ذلك اعتدال دم القلب، وقال آخرون: بل سببه طلوع سهيل عليهم كلّ ليلة، فإنّه يوجب الفرح... والزّنّوج إذا دخلوا بلادنا وألفتهم هذه البلاد، استقامت أمزجتهم... ولهم عادات عجيبة، منها أن ملوكهم إذا جاروا قتلوهم وحرموا عقبة الملك، ويقولون: الملك إذا جار لا يصلح أن يكون نائب ملك السماوات والأرض...) وتحدث القزويني عن بلاد السّودان الغربي قائلا:

بلاد كثيرة وأرض واسعة ينتهي شمالها إلى أرض البربر وجنوبها إلى البراري وشرقها إلى الحبشة، وغربها إلى البحر المحيط، أرضها محترقة لتأثير الشمس فيها، والحرارة بها شديدة جدّا لأن الشمس لا تزال مسامته لرؤوسهم،

(1) المقصود هنا : فلاسفة الإغريق.

واهلها عراة لا يلبسون من شدّة الحرّ، منهم مسلمون ومنهم كفّار، أرضهم منبت الذّهب وبها حيوانات عجيبة كالفيل والكركدن والزرافة، وبها أشجار عظيمة لا توجد في غيرها من البلاد..).

وتحت حرف التاء تحدث القزويني عن تكرور، فقال: (مدينة في بلاد السّودان عظيمة مشهورة، قال الفقيه علي الجنحاني المغربي: شاهدتها، هي مدينة عظيمة لا سور لها، وأهلها مسلمون وكفّار، والملك فيها للمسلمين، وأهلها عراة رجالهم ونساؤهم، إلاّ أشراف المسلمين فإنهم يلبسون قميصا طولها عشرون ذراعا ويحمل ذيولهم معهم خدمهم للحشمة، ونساء الكفّار يسترْن قبَلَهن بخرزات العقيق، ينظّمْنها في الخيوط ويعلّقنها عليهّن، ومن كانت نازلة الحال فخرزات من العظم...).

ويلاحظ أخيرا أن القزويني بالرّغم من ثقافته العالية إلاّ أنه يورد كثيرا من الحكايات غير المعقولة، وخاصة عندما يصف بعض الحيوانات والحيّات وكذلك بعض الأشجار، ويعود ذلك لكونه إنّما كان يجمع أخباره في خصوص إفريقيا جنوب الصحراء، عن الآخرين، وهؤلاء أو بعضهم يعطونه معلومات قد تكون عجيبة، فينقلها عنهم كما هي.

أهمّ المصادر

1- القزويني (زكريا بن محمد) – آثار البلاد وأخبار العباد – بيروت (د.ت.)

2- القزويني (زكريا بن محمد) – عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، وضمنه (كتاب آثار البلاد وأخبار العباد) – غوتنجن 1849.

العمري، شهاب الدين أبو العبّاس

1301 - 1349 م

شهاب الدين أحمد المعروف بالعمري، هو أبو العبّاس أحمد بن يحي بن فضل الله القريشي العدوي، وكلمة العمري في نسبه جاءت من كونه كتب بنفسه تاريخا لعائلته أثبت فيه أنّها تنحدر من نسل الخليفة الثاني لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عمر بن الخطّاب.

ولد العمري في دمشق على أيام المماليك، ونشأ في أسرة ميسورة فتيسر له أن يتعلم ويتثقف ثقافة واسعة، ذلك أنّ أباه كان من ذوي الحظوة والجاه في تلك الأيّام، فأبوه محي الدين يحي بن فضل الله كان في وظيفة كاتب السرّ في ديوانية الأمير، وشغل هذا المنصب في دمشق أولا ثمّ في القاهرة، وبذلك تسنّى لإبنه أحمد أن يدخل الديوان أيضا، وقد عرف العمري بالأنفة وبشيء من قوة الشخصية وعلو النفس ممّا أدّى إلى خلاف حادّ بينه وبين الأمير الناصر بن محمد، لينتهي بإبعاد العمري عن وظيفته، فخلفه فيها أخوه علاء الدين، وحين وفاة أبيهما في عام 1337م، رقي علاء الدين إلى المنصب الذي كان يشغله أبوهما كرئيس للديوان، أمّا شهاب الدين فقد تواصل خلافه مع الأمير ممّا جعل هذا الأخير يأمر بإدخاله السجن، ويبدو أنّ أبا العباس لم تكن له تلك الحذاقة في الوظيف بالقدر الذي كان عليه أبوه وكذلك أخواه الذين كانوا جميعهم من رجالات الديوان، واستمروا فيه طيلة حياتهم، فقد كان أبو العباس كثير الحديث والإنتقاد، يعلن عن رأيه بكلّ صراحة، ولا يهتمّ، وهذا ما جعل المسؤولين الكبار على أيّامه يقدرون ثقافته الواسعة، ولكنهم لا يتحمّلون بعض التصرفات أو الانتقادات التي تصدر عنه في كثير من الأحيان تجاههم، وهذا ما أدّى إلى إقالته من رئاسة ديوان دمشق مرة أخرى واوجد أمامه كثيرا من العداوات، وبقي بعذلك خارج الوظيفة حتى وفاته.

لقد كانت سنوات تواجد شهاب الدين أبي العبّاس خارج الوظيفة غنيّة جدّا بالأعمال، ذلك أنه في خلال سنوات وجوده خارج الديوان نراه يتفرّغ للتأليف، فأوجز كتابه الشهير تحت عنوان (التعريف بالمصطلح الشريف) وهو كتاب في لإدارة بدرجة أولى، أوضح فيه كيف كانت إدارة المماليك تسيّر، وكيف كانت مراسلاتها مع الأقاليم، كما أوضح في هذا الكتاب الكيفية التي كانت عليها العلاقات مع القبائل ورؤسائها في كلّ الجهات الخاضعة لتلك الإمبراطورية الشاسعة التي كان المماليك يحكمونها، كما تطرّق بإسهاب إلى العلاقات التي كانت للإدارة المملوكية مع رجال الدين المسلمين ومع رؤساء الطوائف المسيحية واليهودية، وتحدّث في هذا الكتاب أيضا عن علاقة المماليك في تلك الأيام مع الدّول الإسلامية الأخرى وغير الإسلامية كذلك، وركّز اهتمامه باعتباره كان في وظيفة أمين سرّ، في البداية على محتوى الرسائل والمراسلات وكيفية صياغتها لكلّ الجهات التي كان على الديوان المملوكي تبادل الرسائل معها، سواء في داخل البلاد أو في خارجها، غير أنّ عنايته أكثر كانت مركّزة على المراسلات التي تتداول في الداخل.

أمّا كتابه الثاني الذي يعنينا هنا أكثر، فهو ذلك الكتاب الموسوعي (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار)، وفي هذا الكتاب نجد العمري يتناول بالتفصيل عديدا من المواضيع في الأدب والتاريخ والجغرافيا والفقه أيضا والشريعة، في حين أنه في كتابه الأوّل (التعريف بالمصطلح الشريف) يكون قد وضعه خاصة للعناية بالإدارة وتقاليدها وعملها، أمّا في (مسالك الأبصار) فقد تناول فيه مواضيع شتّى، ومن بينها بشكل خاص تعميما عن المناطق الإفريقية كما عرفها أو تناهت إليه الأخبار عنها، وممّا قاله في ذلك (... الإقليم الثالث مصر، حدّه أرض الحبشة ممّا يلي أض الحجاز إلى البحر الأحمر ممّا يلي الروم... يدخل فيه مصر والاسكندرية إلّى أقصى المغرب والسّودان الذين في البراري)، وقال عن شرق إفريقيا وحدودها أن العمارة بها تنتهي عند جبل القمر، وبعده فهناك فقط خراب وفراغ، ويلاحظ هنا أنّ القلقسندي في كتابه (صبح الأعشى) ينقل كثيرا عن العمري ويقلّده في كثير ممّا كتبه عن إفريقيا الشرقية بشكل خاصّ.

أهم المصادر

1- العمري، شهاب الدين: التعريف بالمصطلح الشريف - القاهرة، 1312هـ.

2- العمري، شهاب الدين: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار - القاهرة 1924 م.

3- ابن حجر العسقلاني: الدّرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة - حيدر أباد 1948.

أبو الفـداء
1273 - 1331م

ولد أبو الفداء وترعرع في عائلة أميرية، ذلك أنّ جدّه كان أحد إخوة صلاح الدين الأيوبي، محرّر القدس من الصّليبيين، فهو من سلالة العائلة الأيوبية التي تولّت الحكم بعد صلاح الدين في كلّ من سوريا و مصر.

وقد أتاحت له هذه النّشأة أن يكون أحد أساطين عصره في الثقافة والإطّلاع، حيث استطاع أن يلمّ بجميع معارف عصره، حتّى إنّه كان يبارز حتّى الأطباء وعلماء النّبات في مجالساته لهم، ويتفوّق عليهم في مجالات اختصاصهم أمام الحاضرين في تلك المجالس، وهذا ما جعل كثيرا من الشعراء الذين مدحوه أو أولئك الذين كتبوا قصائدهم في تأبينه، يشيدون بإمكانياته العلمية بالإضافة إلى الخصائص الأخرى التي يذكرونها عنه.

وأبو الفداء هو اسماعيل بن علي بن محمد بن محمود بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب بن شادي، ويذكر مؤرخو حياته أنه كان دؤوبا على الدراسة منذ صغره، فحفظ القرآن الكريم وبرع في علوم الفقه والأصول والعربية والتاريخ والأدب، وهو لا يزال في مرحلة الصّبا، ثمّ إنه بالنظر إلى الإمكانيات المادية المتوفرة لعائلته، استطاع أن يحصل على معظم الكتب الموجودة في عصره، ذلك أن الكتب كانت في ذلك الوقت لا يَتَوَفّر عليها بسهولة إلاّ الأغنياء والمـُرفّهين لأنها كانت تنسخ باليد، كما أنّ نقلها من بلد المؤلف من أية جهة بعيدة، كان أيضا مكلفا، وقد تمكن أبو الفداء لهذا السَّبب بالإضافة إلى ولعه الدائم بالإطلاع، أن يكون أحد علماء عصره اللاّمعين.

وأبو الفداء كان أيضا مجاهدا، فنجده في عام 1289م، وهو في مرحلة الشباب آنذاك، مع جيش المسلمين الذي حاصر مدينة طرابلس وحرّرها من الاحتلال الصليبي الغربي، وفي السنة الموالية نجده أيضا ضمن الجيش الإسلامي

في تحرير حصْن (سان جان داك) وهو من بين عدة قلاع أخرى على السواحل الشاميّة كانت لا تزال بها فلول من بقايا الصليبيين.

ولد أبو الفداء بدمشق وبقي بها من جملة أمراء دمشق آنذاك، وفي عهد الملك الناصر محمّد بن قلاوون، تمّ تعيين أبي الفداء أميرا على حماة، وتذكر المصادر أنه كان لأبي الفداء تقرّب ومكانة لدى الملك النّاصر قبل ذلك بسنوات، ووعده هذا الأخير بالمنصب في حماة ولـمّا حانت الفرصة بنقل أميرها إلى حلب، بادر الملك الناصر إلى تعيين أبي الفداء على حماه ونواحيها ((وجعله صاحب حماه وسلطانها يفعل فيها ما يشاء ليس لأحد معه كلام، ولا يَردُ عليه مرسوم من القاهرة بأمر و لا نهي)) ، وذلك يدلّ على المكانة المتميزة التي كان يحظى بها أبو الفداء لدى الملك الناصر.

سافر أبو الفداء بمجرد تعيينه إلى القاهرة للخضوع إلى (بروتوكولات) التعيين الرسمي ((وتوجّه من دمشق إلى القاهرة بسبب سلطنته على حماة، فأكرمه الملك الناصر محمد بن قلاوون، وأركبه بشعار السلطنة، ومشى الأمراء والأكابر في خدمته، بمن فيهم الأمير أرغون " النائب بالديار المصرية، وقدم له الملك النّاصر بذلك كلّ ما يحتاج إليه من التشريف والإنعامات بمعبة وجوه الدولة والخيول بالقماش المذهب وغير ذلك، ولقّبه بالملك الصالح، وأمره بالتوجّه إلى محل سلطنته بحماة، فخرج إليها من ديار مصر بتَحَمُّلٍ زائد وعظمة على عادة الملوك)).

ويبدو أن مكانة أبي الفداء كانت تتعاظم باستمرار لدى الملك الناصر، ولذلك تمّ تغيير لقبه السلطاني بعد ذلك حيث (غيّر السلطاني لقبه ولقّبه بالملك المؤيّد)، وقد تمّ ذلك حين حجّ الرجلان في محفل واحد وعادا إلى القاهرة في عام 719 هـ.

ولعلّ من دواعي ازدياد مكانة أبي الفداء لدى الملك الناصر، هو ما عرف به الأول من سمعة طيبة وعلم، ثمّ بالنظر لما كان يقدمه أبو الفداء من

الهدايا الثمينة وفي كل مناسبة ((وكان الملك المؤيد في كل قليل يتوجه من حماة إلى القاهرة ومعه أنواع من الهدايا والتحف للملك الناصر محمد بن قلاوون ويعود إلى محلّ سلطنته، ثمّ في كلّ قليل يُتحف الملك الناصر بالأشياء الظريفة الغريبة))

وطيلة إمارته على حماة ظلّ أبو الفداء معتنيا بالتأليف ومجالسة العلماء، جاء في ملخّص سيرة حياته كما أثبتها ناسخ كتابه المعروف بـ (تقويم البلدان) الذي أخذنا منه الاقتباسات السابقة أيضا ما يلي:

((ولم يزل المذكور بحماة منكبّا على الإشتغال والتصنيف، وحضرته رجال أهل العلم من كلّ فنّ، ومنزلا للشعراء والفضلاء، على أنه إمام بارع، مفنن ماهر في الفقه والتفسير والأصول والنحو والتاريخ وعلم الميقات والفلسفة والمنطق والطب مع الإعتقاد الصحيح والعروض والأدب والنثر، وكان للشعراء به سوق نافق)).

من أهمّ التآليف التي أنجزها أبو الفداء ما يلي:

1- المختصر في تاريخ البشر،
2- نظم الحاوي في الفقه،
3- الكنّاش، وهو كتاب في عدة أجزاء،
4- كتاب الموازين،
5- تقويم البلدان.

وربما هناك مؤلفات أخرى لأبي الفداء لم نسمع عنها، أمّا التي تباهى إلينا ذكر عناوينها، فإن الذي وصلنا كاملا حتى هذه الساعة هو كتابه (تقويم البلدان) وهو في الجغرافيا ومعرفة المسالك والشعوب والتجارة والعادات والتقاليد والنقود المستعملة لدى الشعوب، وتعيين المواقع والبلدان طبقا لخطوط الطول والعرض.

وصفه أحد مؤرّخي حياته بقوله:

((كان عالما سخيا جواداً ممدّحا عاقلا ديّنا خيّرا، ذا رأي وتدبير، ومعرفة وسياسة مع العلم والرياسة، صاحب معروف وصدقات ذكيا، فاضلا، ذا همّة عالية ونفس زكية محبّا لأهل العلم والخير، كثير الإكرام لهم، يعطي العطايا الجزيلة، ويجيز على المدائح بالجوائز السنية))، ولقد كان الشعراء كما هو معروف بمثابة وسائل الإعلام اليوم، وهذا ما جعل الكثير من الأمراء والسياسيين، ومنهم أبو الفداء طبعا، يقربون الشعراء ويجيزونهم على المدائح أحسن الجزاء في غالب الأحيان، ومن هنا كثرت بأيدينا القصائد التي مدح فيها عديد الشعراء أبا للفداء، كما تكاثرت تلك القصائد التي أبّنه بها عديد منهم حين وفاته.

إفريقيا في (تقويم البلدان)

تحت (ذكر الجانب الجنوبي من الأرض، وهو بلاد السودان) أفرد أبو الفداء إفريقيا بفصل خاص في كتابه الكبير (تقويم البلدان)، وكل التفاصيل لديه كانت عن الشرق الإفريقي والمحيط الهندي وباب المندب في جانبه الإفريقي، أمّا الغرب الإفريقي، فلم يعط حوله أي تفصيل باستثناء ما نقله عن ابن سعيد قوله (إنّا إذا ابتدأنا في بلاد السودان من الغرب فأول ما نجد فيه من المدن التي للسودان العراة المهملين الذين هم كالبهائم). أمّا الشرق الإفريقي فقد أسهب أبو الفداء في إعطاء كلّ التفاصيل المتعلقة بمدنه وسواحله، وخاصة (مقديشو) و أرض الصومال والحبشة، ثمّ تحدث عن (موباسا) وتجارتها، وتحدث عن جبل (القمر) وموقعه، وقال عن الحبشة (وللحبشة مدن كثيرة) ونقل عن ابن سعيد في خصوص سكان التّكرور فقال هم قسمان قسم حضر يسكنون المدن، وقسم رحّالة في البوادي، وفي كلّ التفاصيل التي أعطاها عن المناطق والمدن، حدّد أبو الفداء المسافات الفاصلة بينها جميعا.

لقد أوفى أبو الفداء بجمع كثير من التفاصيل عن إفريقيا الشرقية وسجّلها بدقّة، خاصة وأن تلك المنطقة أصبحت معروفة للعرب في زمانه، ويرتادها الكثير من التجار وأصحاب القوافل مرورا بمصر أو انطلاقا من اليمن وبلاد (اليعافر) جيبوتي الحالية، وأهمّ من نقل عنهم معلوماته كان يتمثّل في كلّ من ابن حوقل والإدريسي وابن سعيد.

أهم المصادر

1- أبو الفداء – تقويم البلدان – طبعة باريس 1840.

2- Encyclopedia of islam.

5- M.REINAUD, extrait des historiens arabes, relatifs au guerres des croissades, paris 1829.

ابن خلدون 1332 م – 1406م

هو عبد الرحمان بن أبي زيد، ولقبه هو (وليّ الدّين) ولد بتــونس 732 هـ - 1332 م وتوفي بالقاهرة في عام 808 هـ - 1406م.

اشتهر ابن خلدون بتأسيسه لعلم العمران (أي دراسة السكان وتطــوّر عوامل القوّة أو الضّعف لمن يحكمهم طبقا لظروفهم وحنكته)، وهو ما يسمي بعد ذلك بـ (علم الاجتماع). أما استمرار الحكم في يد عائلة أو فــرد فــإنّ ذلك يعتمد، حسب ابن خلدون، على العصبية القبلية أو العصبية المصلحية لمن يوظفهم الأمير لديه أو يقرّبهم منه.

وقد تولّى بن خلدون عددا المناصب في كلّ من المغرب الأقصى والمغرب الأوسط، وبعد ذلك تولّى منصب قضاء المالكية في مصر، غير أنه قبل انتقاله إلى مصر، كان قد اختار قرية بني سلامة الهادئة قرب مدينة تيهرت بالجزائر فألف فيها كتابه الشّهير (المقدّمة)، وربما جزء من كتابه الكبير في تاريخ البربر والعرب والتفرّعات القبلية في البلدان المغاربية، امّا الجزء الآخر من هذا الكتاب فربمـا يكون قد ألفه وهو في ضيافة أصدقائه في يسكرة، بالجنوب الجزائـري، وهــم الأمراء من بني مُزْني اللذين كانوا يحكمون تلك المنطقة، فقد إلتجأ ابن خلدون اليهم مرتين، وفي كل مرة كان يقيم لديهم لمدّة، ثمّ يعاود اتصالاته بـسلاطين الشّمال.

وقبل وفاته بخمس سنوات، جهّز السلطان ناصر، حاكم مصر آنــذاك جيشا كبيرا وذهب به إلى دمشق ليفكّ عنها حصار تيمور لنك، واستدعي ابن خلدون لمرافقته، وفي احدى الليالي تسلّق ابن خلدون بمفرده ســور المدينــة في مكان ما منه، وتحادث مع تيمور لنك وجها لوجه، كمحاولة من هذا السياسي العالم لتسهيل فكّ الحصار عن دمشق، ولا يعرف فيما اذا كان ذلك بناء على

اتّفاق مسبّق مع السّلطان الناصر أم لا، غير أنّ محاولة ابن خلدون هذه لم تنجح.

ينحدر ابن خلدون من أسرة أندلسية هاجرت إلى العدوة الجنوبية (أي بلدان المغرب) بعد طرد المسلمين من الأندلس، وقد عرفت هذه الأسرة بالعلم والثقافة لأجيال عدّة، ولمّا وصلت إلى البلدان المغاربية تولّى العديد من أفرادها مناصب هامّة في القضاء والادارة وذلك بالنّظر لما كانوا يتمتعون به من ثقافة وخبرة بشكل خاصّ.

يعتبر أبو زيد عبد الرحمان بن خلدون أحد الأساطين اللذين تفتخر بهم الثقافة العربية ذلك أنّ له آراء رائدة في التربية وعلم العمران وفي السياسة، وفي الحنكة الإدارية على الخصوص، كما أنّ له مساهمات في الفكر الزراعي الاقتصادي كذلك.

- لم يزر ابن خلدون افريقيا جنوب الصحراء، ولكنّه كتب عنها الكثير، لأنّ هذه المنطقة الفسيحة والواقعة إلى الشمال من خطّ الاستواء قد كانت في زمانه امتدادًا للعالم الاسلامي، وقد كثر بها التجار المسلمون من مختلف الجهات وخاصّة من بلدان المغرب و مصر، وكانت القوافل التجارية يجهّزها باستمرار أولئك التجار المتعاملون مع بلدان السودان الغربي، وقد ذكر ابن خلدون أنّ القوافل السنوية التي يتمّ تجهيزها مرورا وانطلاقا من منطقة ورقلة في الجنوب الجزائري على أيامه كان يبلغ عدد جمالها ثلاثة آلاف.

- تحدّث ابن خلدون في (المقدمة) عن اللون الأسود الذي يمتاز به أهل السوادين، واثبت أنه راجع إلى المناخ الحارّ في منطقتهم، وليس مردّه أبدا إلى أصولهم العرقية كما ذهب إليه البعض، وممّا قاله في ذلك ما يلي على الخصوص:

(فتعميم القول في أهل جهة معيّنة من جنوب أو شمال بأنهم من وُلّد فلان المعروف لما شملهم من لون أو نحلة أو سمة وجدت لذلك الأب، إنما هو من الأغاليط التي أوقع فيها الغفلة عن طبائع الأكوان والجهات).

وتحت عنوان (أثر الهواء في أخلاق البشر) تحدّث ابن خلدون عن تلك الظاهرة الشائعة في أيامه بين الناس حول سكان السوادين وكونهم خفيفيّ الروح ومحبّين للطّرب ومولعين بالرّقص بشكل يمتازون به عن غيرهم، فأرجع ذلك إلى تأثير المناخ الخاصّ بمنطقتهم قائلا

(قد رأينا من خلق السودان على العموم الخفّة والطيش وكثرة الطّرب، فتجدهم مولعين بالرّقص على كلّ توقيع موصوفين بالحمق في كلّ قطر، والسبب الصّحيح في ذلك أنّه تقرر في موضعه من الحكمة، أو طبيعة الفرح والسرور هي انتشار الروح الحياتي وتفشّيه وطبيعة الحزن بالعكس، وهي انقباضه وتكاثفه، وتقرر أنّ الحرارة مفشيّة للهواء، والبخار مخلخلة له زائدة في كميّته، ولهذا يجد المنتشي بالفرح والسرور ما لا يعبّر عنه، فيتفشّى الروح وتجيء طبيعة الفرح... ولمّا كان السودان ساكنين في الاقليم الحارّ واستولى الحرّ على أمزجتهم وفي أصل تكوينهم، كان في أرواحهم من الحرارة على نسبة أبدانهم وإقليمهم، فتكون أرواحهم... أشدّ حرًّا، فتكون أكثر تفشّيا، فتكون أسرع فرحا وسرورا وأكثر انبساطا) [1].

وفي كتاب (التاريخ) الذي يعتبر حتّى أيام ابن خلدون المرجع الأوّل عن بلدان المغرب العربي وقبائله، خصّ ابن خلدون أيضا فصلا هامّا لبلدان افريقيا جنوب الصحراء تحت عنوان (الخبر عن ملوك السودان المجاورين للمغرب من وراء هؤلاء الملثمين [2] ووصف أحوالهم والإلمام بما اتّصل بنا من دولهم)،

(1) المقدّمة ص 110 – 111 – طبعة الجزائر 1991.
(2) الطوارق وسكان الجنوب الصّحراوي عموما.

ففي هذا الفصل جمع ابن خلدون معلومات كثيرة عن شعوب بلدان الـــسوادين وعن تاريخهم بداية من المحيط الأطلسي حتى المحيط الهندي، مستندا في ذلك على ما كتبه من سبقه في العناية بهذا الموضوع وخاصّة المسعودي وابن سعيد، كما أنه أضاف إلى ذلك ما سمعه من رجال ثقة لديه تحدّثوا إليه وأفادوه بما عرفـــوا عن المنطقة وتاريخها وعادات شعوبها وسياسة ملوكها وتقاليدهم في الحكم.

أهم المصادر

1 - ابن خلدون – المقدمة – الجزائر 1991.

2 - ابن خلدون – تاريخ ابن خلدون– بيروت 1968.

المقريزي

766 - 845 هـ

لا ينافس المقريزي في بعد النظر الذي انعكس على كتاباته في التاريخ إلاّ ابن خلدون، وتجلّى ذلك في كتبه ورسالاته التي أوفت على المائتين، فقد كان شديد الحرص على التأليف في مختلف المواضيع التي عاشها عصره ومعاصروه، وقد اتّهمه بعض معاصريه بالمبالغة فيما تصدّى له من تراجم لرجال عاشوا ي عصره. وقد تكون لأولئك المنتقدين بعض التحفّظات على بعض المترجم لهم باعتبارهم عرفوهم عن كتب أو تنافسوا معهم أو غاروا منهم، وفي غير ذلك فإن المقريزي يعتبر أحد الفطاحلِ في زمانه فيما يتعلق بالكتابة التاريخية الرزينة التي أهّلته لمكانته المرموقة في كلّ ما ألّفه في هذا الميدان.

والمقريزي هو تقي الدّين أحمد بن علي بن عبد القادر المقريزي، وكلمة المقريزي هي نسبة إلى الحي الذي كانت تسكنه أسرته في مدينة بعلبك اللبنانية، وكان أبوه رجل علم وفقه، انتقل بأسرته إلى القاهرة وفيها تسنّى له أن ينال وظيفة سامية في الإدارة العليا بمصر، وذلك نظرا لثقافته الواسعة بمفهوم زمانه، وفي القاهرة ولد تقيّ الدين المقريزي وتأتّى له بفضل ما كان لأبيه من إمكانيات ماديّة وعلميّة أن يتثقف ثقافة عالية، فألّم بجميع علوم عصره كأبناء الأسر الكبيرة والغنية مثله، فحفظ القرآن الكريم، وتعمّق في علوم الحديث والتفسير التي كان جدّه من الأم بارزا فيهما، وهو شمس الدّين بن الصائغ الحنفي، ويلاحظ أن المقريزي بعد أن أتمّ دراساته تحوّل كليا إلى المذهب الشافعي بعد أن كانت أسرته على المذهب الحنبلي، وربما كان ذلك علامة على طموحاته الخاصة للحصول على وظيفة سامية في الديوان الأميري بمصر التي كان المذهب الشافعي هو الأكثر انتشارا بين سكانها.

وقد نال المقريزي ما كان يطمح إليه، فأعطيت له وظيفة تليق بمكانته العلمية من طرف السلطان (برقوق) في الديوان الأميري، حيث ظلّ به منتقلا

من وظيفة سامية إلى أخرى، ثمّ خلفه السلطان الناصر بن برقوق، فحافظ للمقريزي على مكانته السامية ايضا في ديوانه، وانتقل معه إلى دمشق أيضا فتولّى عددا من المسؤوليات السامية بها، وسواء بالقاهرة أو بدمشق، فقد كان المقريزي ينتصب للتدريس إلى جانب عمله بالديوانيات الأميرية وذلك لما كان يتمتع به من ثقافة عالية وحبّ للإفادة.

لقد كان المقريزي يقبل كلّ المهمّات التي يسندها له الأمير دون تردّد، فلمّا أسندت له مهمّة القضاء رفضها بإصرار، ولا نعرف إذا كان ذلك جريا على عادة الكثيرين من رجال العلم الذين تناهت إلينا أخبار رفضهم لهذا المنصب قبل ذلك، في أيام العباسيين على الخصوص، وذلك لخوفهم من يوم الحساب في القضايا التي قد يصدرون أحكاما فيها، ولا يتوفقون في دقّة الصواب لسبب أو لآخر، أم أن رفضه هذا كان لأسباب أخرى خاصة به، لقد قبل وظيفة الحسبة قبل رفضه وظيفة القضاء، والحسبة أيضا فيها من الدقّة في التعامل شيء كثير من الأمور المشابهة لمهمّة القضاء، ولكنّها أقلّ وأخفّ من وظيفة القاضي فيما يتعلق بإصدار الأحكام على الناس والبتّ في القضايا الشائكة وغير الشائكة بينهم وبالعدل كما هو المطلوب من القاضي أن يفعل، وهو مسؤول عن ذلك كلّه أمام الله، ومن الوظائف التي شغلها المقريزي هي نظارة جامع الحاكم بالله، وهي وظيفة معتبرة لا يتولاّها إلاّ المشاهير في ذلك الوقت، وكان يجمع إلى جانبها خطبة الجمعة بالجامع العتيق في الفسطاط، فكان بذلك يجمع بين الوجاهة الدينية والوجاهة السياسة في آن واحد، هذا إلى جانب التأليف، الذي لم ينقطع عنه طول حياته.

تآليف المقريزي التي انتهت إلينا شملت العديد من التراجم لمشاهير الفقهاء والمحدّثين والمؤلفين في زمانه، كما شملت البضائع الموجودة في الأسواق وأسعارها، وحنكة التجار في العناية بها وتصريفها، كما شملت المحليّة منها والمستوردة، وكيفية استيرادها وأماكن تواجدها وربما كانت وظيفة الحسبة التي تولاّها هي التي ألفتت انتباهه أكثر للعناية بموضوع المكاييل والموازين، فأعطاها

ما تستحقّه من تدوين إلى جانب عنايته كذلك بأنواع السلوك في الأسواق، وفي الوقت ذاته نجد المقريزي يؤلف في مواضيع الأدب والشعر بإطلاع واسع، لا يستطيعه إلاّ المثقفون الكبار من أمثاله، ذلك أنه كان يعدّ أيضا من الأدباء الكبار في أيامه، وقد نعته معاصره ابن حجر بقوله: ((و له النظم الفائق والنثر الرائق)).

في السنوات الأخيرة من أيامه عاد المقريزي إلى القاهرة واستقر بها نهائيا بعد أن كان وهو في دمشق قد رحل إلى الحجاز وجاور هناك لعدّة سنوات كان أثناءها متعبّدا ومؤلفّا في الوقت ذاته، ذلك أنّ بعض كتبه التي وصلتنا قد ألّفها وهو في الحجاز، وأثناء استقراره الأخير بالقاهرة نراه يترك الوظائف نهائيا ونيشتغل فقط بالتأليف، ومؤلفات المقريزي تختلف في أحجامها، ولكنها كلّها ذات خصوصية من حيث الأسلوب اللغوي السّلس ودقة العبارة ومحتواها التاريخي الهام للباحثين والقراء عموما، فهناك الرسالة الصغيرة مثل: (النزاع والتخاصم بين بني أمية وبني هاشم)، وهناك الكتاب الكبير الحجم مثل (السلوك في معرفة دور الملوك)، وهناك الرسالة المتوسطة الحجم مثل (اتّعاظ الحنفاء) التي هي في تاريخ الفاطميين بمصر إلى جانب (إغاثة الأمة بكشف الغمّة) وهو كتاب متوسط الحجم، موضوعه انتشار المجاعة وانتشار الأوبئة في أيام الاضطرابات السياسية والاجتماعية في مصر، أمّا أكبر كتبه حجما فهو كتاب (الخطط) فقد شمل مواضيع عديدة وجاء في حجم كبير جدّا.

و لم يقتصر اهتمام المقريزي في مؤلفاته على مصر وحدها، ولكنّه شمل الكثير من المواضيع خارج مصر، ومن مؤلفاته في هذا الصدد نجد له مثلا كتابات في (بناء الكعبة الشريفة) وآخر في (ملوك الإسلام بأرض الحبشة).

وفيما يتعلق بالجانب الإفريقي في مؤلفات المقريزي العديدة نجد لديه معلومات قيّمة جدّا وهامّة ومفصّلة، لم يهتمّ بها غيره إلاّ لماما.

وتشمل هذه المعلومات بلاد الحبشة على وجه الخصوص، لقد كان للأحباش كما هو معروف، اتصال بالعرب منذ ما قبل الإسلام، وهذا بحكم الموقع الجغرافي على الأقل، فلمّا جاء الإسلام ودخل إلى الحبشة في وقت مبكر من تاريخه، أصبح للمسلمين تواجد مطرّد في الحبشة وخاصة في الأجزاء الشرقية والجنوبية والوسطى من تلك البلاد، فقد تشكلت في تلك المناطق إمارات إسلامية عديدة كثيرا ما كان بينها وبين المملكة المسيحية في الشمال الغربي للبلاد بصورة خاصة خلافات ومعارك عديدة، وكان السبب الأساسي دائما هو محاولات الأمراء المسيحيين بسط نفوذهم على الأمراء المسلمين الذين كانوا منتظمين في إمارات صغيرة عديدة و لم يكن بين تلك الإمارات في غالب الأحيان اتحاد، فكلّ إمارة كانت تجابه منفردة مملكة الأحباش المسيحية التي كانت أكبر الإمارات هناك، وفي بعض الأحيان تنتصر هذه الأخيرة ويخضع الغير لها لفترة قد تطول أو تقصر حسب الظروف، وقد تصدّى المقريزي لواقع الإمارات الاسلامية والمسلمين عموما في الهضبة الحبشية، وسجّل لنا صورة عن تلك الخلافات والمعارك التي كانت تجري هناك، فكان لمساهمته هذه قيمتها التاريخية الهامة جدّا والتي لم يكن قد سبقه إليها غيره ممن تناولوا موضوع الحبشة بشكل خاص.

أهم المصادر

1- مخطوطات للمقريزي عديدة بالمكتبة الوطنية في باريس Ancien Fonds N° 688 et 672.

2- المقريزي: الإلمام بمن بأرض الحبشة من ملوك الإسلام ـــ القاهرة 1908.

3- يوسف أحمد ـــ الإسلام في الحبشة ـــ القاهرة 1930.

4- عبد المجيد عابدين ـــ بين الحبشة والعرب ـــ القاهرة 1947.

القلقشندي أبو العباس
(توفي عام 1418 م)

القلقشندي هو أبو العباس شهاب الدين، أحمد بن عبد الله بن أحمد القلقشندي نسبة إلى بلده قلقشند التي هي إحدى القرى في مديرية القليوبية بمصر، وقد أفاد هو نفسه أنه ينحدر من أصل عربي، وأن نسبه ينتهي إلى بني بدر بن فزارة من قيس عيلان.

وقد درس القلقشندي أبو العباس على أشهر علماء عصره في كل من القاهرة والاسكندرية وتخصص في الفنون الأدبية وفي الفقه على مذهب الإمام الشافعي، وهو المذهب الذي كانت عليه الأغلبية من المصريين ولا تزال، وتذكر المصادر التي تناهت إلينا عنه أنه أثناء دراسته يكون قد برع بشكل خاص في علوم اللغة العربية وخاصة من بينها البلاغة والانشاء.

وفي عام 778 هجري أجازه الشيخ ابن الملقن، وقد تحدد مجال تلك الاجازة في الافتاء والتدريس على مذهب الامام الشافعي رحمه الله، ومعلوم أن الاجازة كما كانت تعطى كانت لها تقاليدها الخاصة، ذلك أنه لا يعطي أستاذ لأحد تلاميذه الإجازة إلا بعد أن يكون ذلك التلميذ قد أوفى السنين في الدراسة مع أستاذه ومطالعة أمهات الكتب في الموضوع أو الموضوعين أو الثلاثة التي يكون أستاذه متضلعا فيها، ولما يتأكد لديه أن تلميذه قد بلغ من التمكن شأوا مرضيا جدا، يكتب له حينئذ الاجازة بخط يده، ويحدد فيها الموضوع، كما يحدد أنه انما أجازه في كل ما يحق له، أي في الحدود التي يتقنها ذلك الاستاذ في المادة موضوع الاجازة.

انخرط القلقشندي بعد تخرجه في بعض الوظائف الادارية، ثم ارتقى في عام 791 هـ إلى ديوان الانشاء، وذلك في عهد السلطان المملوكي الطاهر بن

برقوق الذي امتد حكمه من 784 إلى عام 801 هـ). ويقال أن وصول القلقشندي إلى ديوان الانشاء جاء بعد أن ألفت إليه الأنظار فيما يتعلق بجدارة حنكته الانشائية، ومعلوم أن ديوان الإنشاء كان يعتبر أهم الأقسام في ديوانيات السلاطين المماليك، حيث أنه تمتد مهامه في كل ما هو مراسلات رسمية سواء مع الولاة داخل البلاد، أو مع سلاطين ورؤساء البلدان الأجنبية، ولقد كان لتلك المراسلات صيغ وأساليب في التعبير خاصة كما أن الديباجة والتنميق كانت تتنوع حسب نوعية ودرجة المرسل إليهم بالإضافة إلى تنوع نص الرسالة ومتنها حسب موضوعها من رد مثلا على مراسلة سابقة أو طلب لشيء معين، أو تعبير عن امتعاض أو تشكي من معاملة ما يكون المرسل اليه قد أساء أو أنه لم يُحْسِن التصرف في شأنها، إلى غير ذلك.

وقد استفاد القلقشندي من وظيفته تلك في ديوان الانشاء، فاطلع على كل تلك الأساليب التي يجري بها لعمل في المراسلات الواردة والصادرة وأتقنها جميعا، كما أنه عكف على كل أنواع المراسلات التي احتوتها الارشيفات السلطانية في ديوان الانشاء، ورغم هذه المعارف الكثيرة بدواوين الانشاء ومحتوياتها، ورغم السنوات العديدة التي عمل خلالها في ديوان الانشاء، فإن أبا العباس لم يستطع الارتقاء إلى رئاسة ديوان الانشاء وظل به موظفا فقط، ولا تعرف أسباب ذلك، غير أن المقريزي في كتابه (إغاثة الأمة بكشف الغمة) وتحديدا في المقالة التي عنوانها في ذلك الكتاب (ولاية الخطط السلطانية) يذكر أن ولاية الخطط السلاطانية والمناصب الدينية كذلك، كان الوصول إليهما يتم عن طريق الرشوة، وربما يكون ذلك هو السبب في عدم وصول القلقشندي إلى رئاسة ديوان الانشاء رغم عمله لسنوات به وتضلعه في الاحاطة بجميع طرق وفنيات العمل فيه.

- ألف القلقشندي في موضوعات كثيرة في كل ما يتعلق بديوان الانشاء من أنواع المراسلات سماه (صبح الأعشى في كتابة الانشاء)، وقد بدأ تأليفه وهو موظف في الديوان، ثم أتمه بعد خروجه من تلك الوظيفة، وفي هذا الكتاب

نجد جميع أنواع الرسائل وكيفية تحريرها باختلاف الأشخاص المرسلة إلــيهم، وهم عديدون جدا، فيهم السلطان القوي الشكيمة وفيهم الأمير الضعيف، كما أن رجل الدين وشيخ القبيلة، وفيهم الوالي على ولاية ما داخل مصر أو في بلاد الشام، كما أن هناك أيضا من بينهم سلاطين البلدان الأجنبية بما في ذلك بعض الأمراء المسيحيين من بقايا الحملات الصليبية في البعض من جهــات الــشام وفلسطين.

كما اشتمل هذا الكتاب أيضا على كثير من العادات والتقاليد التي تناهى لأبي العباس مجال المعرفة بها في زمانه عن كل الأوطان التي تحدث عنها بالمناسبة، وكذلك أنواع المكاييل والموازين المستعملة، وأنواع البضائع والمنتوجات الخاصة بكل بلد تحدث عنه، وفي كل ما ذكره عن كل بلد أو شخص، نجد القلقشندي يلتزم بالأمانة العلمية إلى أقصى حد، فهو يستند إلى كتب سابقيه من المؤرخين والجغرافيين، وينسب لكل منهم ما يكون قد أخذه عن كل أحــد منــهم في الموضوع المعين، وفي أحيان أخرى نجده يذكر بعض الرجال مــن ذوي الثقــة لديه، فيقول حكى لي فلان أو سمعت من فلان مثلا، أما فيما يتعلق بالرســائل الانشائية وأنواعها وكيفية تحريرها، فهو المرجع بذاته، وليس عليه أن يستند إلى غيره، لأنه صاحب التجربة الكبيرة والواسعة في الموضوع.

في خصوص أفريقيا جنوب الصحراء تحدث القلقشندي باسهاب عــن الممالك الموجودة بها، ناقلا عن أبن سعيد وعن ابن خلدون وعن العمري، كما أتي بإضافات أخرى متعددة، تحصل عليها من أناس آخرين، فكان بــذلك في تأليفه هذا قد جمع آخر ما هو معروف عن تلك المنطقة في أيامه.

لقد تحدث القلقشندي عن ممالك السودان الغربي بتفصيل قد لا يكون قد سبقه فيه غيره من المؤلفين في احيان كثيرة، ففي حديثه عن مملكة مالي مــثلا، ذكر القلقشندي أن منسى موسى أمير مالي كان أثناء مروره بالقاهرة في طريقه إلى آداء مناسك الحج، قد رفض أن يركع أمام الأمــير المملــوكي، قــائلا أن

السجود لا يكون إلا لله وحده، ولكنه في الأخير وبعد الحاح شديد قد قبل ذلك، ويذكر القلقشندي بعد هذا أن الرجلين تبادلا هدايا كثيرة وغالية الثمن، سواء أثناء مرور منسى موسى إلى ديار الحجاز أو أثناء عودته منها في الطريق إلى بلاده، ويسهب القلقشندي في ذكر تلك الهدايا بتفصيل، دون أن يغفل واحدة منها، وتحدث عن مملكة بورنو، ومملكة الكانم كل منهما على حدة، وذلك قبل أن يتم ضمهما إلى بعضهما على أيام إدريس علومة كما هو معروف، وذكر أن مملكة البورنو كانت أقوى من مملكة الكانم وأنه كان لها جيش كبير، وهناك رسالة واردة من سلطان بورنو إلى سلطان القاهرة يرجو فيها سلطان بورنو من الأمير المصري العمل على إرجاع أفراد من أبناء بورنو، لهم قرابة بالعائلة الحاكمة في ذلك البلد، كان بعض الأعرب من قبيلة (جذام) قد اختطفوهم ليبيعوهم كعبيد، ويذكر عن مملكة بورنو أن أهلها كلهم، وأميرها يقوم بحملات مستمرة على الممالك الوثنية المحاذية لبلاده ليدخل أهلها في الاسلام، أما في حديثه عن مملكة الكانم، فقد تناهى للقلقشندي ان تلك المملكة أرضها صحراء جذبة، وأن أميرها لا يظهر للناس إلا مرة واحدة في السنة وأنه لا يكلم الناس إلا من وراء حجاب، وذلك بالرغم من أن بلاده فقيرة جدا وجيشه على غاية من الضعف، أما سكانها فهم مسلمون، وفي حديث القلقشندي عن ممالك الغرب الإفريقي جنوب الصحراء نجده يصف بدقة حدود كل مملكة، ففي حديثه مثلا عن مملكة البورنو أتي بما يلي (ملك البورنو... بلاده تحد بلاد التكرور من الشرق، ثم يكون حدها من الشمال بلاد أفريقيا، ومن الجنوب الهمج... وملكها يزعم أنه من ذرية سيف بن ذي يزن ملك اليمن، على ما ورد به كتابه في أواخر المائة السابعة).

والقلقشندي هو أول من ذكر أن مدينة (سيراف) على شاطئ الخليج كان يرد عليها خشب الساج من شرق أفريقيا بكميات كبيرة، وأن أهلها من عاداقم العناية ببناء البيوت الكبيرة، وذلك مما يدل على وضعهم الاقتصادي الجيد في ذلك الوقت وحسب تعبير القلقشندي في هذا الصدد: (ينفق أهلها

(أي مدينة سيراف) إلى ثلاثين ألف دينار أو أكثر وبناؤهم بالساج يحمل اليهم من بلاد الزنج).

والقلقشندي هو أول من تحدث عن الممالك الاسلامية جميعا وغير الاسلامية كذلك في أفريقيا جنوب الصحراء، ذلك أن غيره من المؤلفين الذين سبقوه، كانو يتحدثون في الغالب عن الممالك الإسلامية فقط، وهي واقعة في الشمال أما الممالك غير الاسلامية وهي دائما إلى الجنوب، فقد كانوا يشيرون إليها إشارة عامة فقط، وقد أفرد القلقشندي للحديث عن الممالك الاسلامية والوثنية معا فصلا ضخما عنوانه كما يلي (الفصل الثالث في الممالك الجنوبية وما اشتملت عليه من بلاد السودان، من مملكة البورنو ومملكة الكانم، ومملكة مالي، ومملكة الحبشة وبلدان ما وراء من ذلك بيد ملوك المسلمين، وما منه بيد ملوك الكفر).

وعن ممالك المسلمين في بلاد الأحباش، أفاد القلقشندي، بأنها عدة ممالك، وبها مساجد كثيرة، تقام فيها صلوات الجمعة كغيرها من بلدان الإسلام، ولتلك الممالك علاقات جيدة ومراسلات مع مصر، إلا أن تلك الممالك كانت كلها تخضع إلى سلطة ملك الأحباش جميعا، وهو غير مسلم، وهي لا تستطيع الخروج عن طاعته.

وتحت عنوان (المملكة السادسة من ممالك بلاد السودان مملكة الحبشة) ذكر عنها ما يلي: (... هي مملكة عظيمة جليلة المقدار، متسعة الأرجاء، فسيحة الجوانب، قال في (مسالك الأبصار) وأرضها صعبة المسالك لكثرة جبالها الشامخة وعظم أشجارها واشتباك بعضه ببعض، حتى أن ملكها إذا أراد لخروج إلى جهة من جهاتها، تقدمه يوم مرصود لاصلاح الطرق بالآلات لقطع الأشجار وإحراقها بالنار، قال: وهم قوم كثير عددهم و لم يملك بلادهم غيرهم من النوع الإنساني لأنهم أجبر بني حام وقتالهم انما يكون عريا من غير لأمَة (أي عدة للحماية) تدفع عنه ولا عن خيلهم، ثم وصفهم بعد ذلك بأوصاف

لولا ما هم عليه من الشرك لكانوا في الرتبة العليا من مراتب ابن آدم ثم ذكر: (أن المشهور عنهم رغم ما هم عليه من المجاعة أنهم يقبلون الحسب ويصفحون عن الجرائم، ومن عاداتهم أن من رمى سلاحه في القتال حرم قتاله، ويكرمون الضيف ولا ينقض الصديق منهم عن صديقه وإذا أحبوا أظهروا المحبة، وإذا أبغضوا أظهروا البغض، والغالب عليهم الذكاء والفطنة وصدق الحدس، ولهم علوم وصناعات خاصة بهم ولهم قلم يكتبون به من اليمين إلى الشمال كما في العربي، عدد حروفهم، ستة عشر حرفا، لكل منه سبعة فروع، فيكون عددها مائة واثني عشر حرفا... ومع كونهم جنسا واحدا، فلغاتهم تزيد على خمسين لسانا).

يمكن أن يعتبر ما كتبه القلقشندي في القرن الرابع عشر ميلادي عن دول وشعوب أفريقيا جنوب الصحراء هو بمثابة موسوعة جامعة لكل ما كان قد اكتسبه العرب والمسلمون عموما من معرفة وتعامل مباشر مع تلك الدول والشعوب، وهذا بالنظر لما ذكره القلقشندي من مراجع تناولت محتوى معظم مؤلفات من سبقه من المؤلفين، بالإضافة إلى ما تمكن هو شخصيا من معرفته في هذا الخصوص.

أهم المصادر

1- القلقشندي – صبح الأعشى في ديوان الانشاء، طبعة بيروت (15 جزءا، 1987) ج 5 صفحة 291 فما بعد.

2- الدكتور مصطفى جواد – في التراث العربي، ج1، نشر وزارة الاعلام العراقية.

3- أبو العباس القلقشندي وكتابه صبح الأعشى – تأليف نخبة من الاساتذة – نشر الهيئة المصرية للكتاب.

إدريس علومة أمير بورنوكانم بين 1565 و1595 م

هو الحاج ادريس بن علي بن ادريس بن علي بن محمد بن عثمان ابن إدريس، وهو ينتسب إلى عائلة (سيفاوة ماقومي)، الذين يزعمون أنهم يعودون في أصلهم الأول إلى اليمني (سيف بن ذي يزن) ، وهو أمير يقال أنه كان قد هاجر بجماعته، فقطع باب المندب ودخل إفريقيا متجها نحو الغرب، و لم يوقفه في رحلته الطويلة هذه إلا المحيط الأطلسي، وعندئذ عاد باتجاه الشرق، فسكن مع جماعته هذه مكانا ما في أفريقيا جنوب الصحراء.

تعتبر مملكة (بورنو) من أقدم الممالك في الوسط الإفريقي، وهي تحتل مكانا استراتيجيا هاما بالنسبة لتجارة القوافل باتجاه فزان ومنها إلى طرابلس وبقية بلدان الشمال الإفريقي، وخاصة تونس على أيام إدريس علومة بالذات، حيث كان للبايات والباشوات ولجميع المواطنين الأتراك في طرابلس وفزان وتونس بشكل خاص تعليمات لتابعيهم كي يتعاملوا مع مملكة بوتو بكل ود وصداقة [1]، وكانت تجارة القوافل في نشاط مستمر بين طرابلس ومملكة البورنو، ومن طرابلس إلى تونس، وكانت تجارة العبيد قد ازدهرت في تلك الفترة نظرا لتوفرهم في مملكة البورنو لأن أميرها إدريس علومة كان لا يتوقف إلا قليلا عن مهاجمة الممالك الوثنية إلى الجنوب والشرق من مملكته، ولا تعود حملاته تلك إلا بالكثير من العبيد، أما القوافل العائدة من طرابلس أو تونس فكانت تحمل الكثير من البضائع المصنعة، وخاصة الأقمشة وكذلك الخيول التي كان امتلاكها في أفريقيا جنوب الصحراء وفي بلاد البورنو، لا يتوفر عليه إلا الأمراء والأغنياء، حيث كانت قيمة الحصان الواحد يدفع في مقابلها خمسة عشر عبدا أو أكثر في بعض الحالات.

(1) أصدر تلك التعليمات السلطان مراد الثالث، بعد ان استقبل بقصره في اسطمبوال وفدا ارسله إليه إدريس علومة.

لقد حكمت أسره (سيفاوة) ثمانمائة سنة في بلاد الكانم أولا ثم في بلاد البورنو والكانم معا بعد ذلك، وبلغ عدد الأمراء اللذين توالوا في الحكم سبعا وستين أميرا، غير أن الذي اشتهر عهده أكثر بالازدهار والقوة بين أولئك الأمراء جميعا سواء من سبقوه في حكم تلك البلاد أو الذين جاءوا بعده، إنما هو إدريس علومة، وذلك يعود للأسباب التالية:

1- استطاع إدريس علومة بعد أن تخلص من آل عبد الجليل (بولالا) الذين هم فرع في ا لأسرة السيفاوية، وحاولوا في البداية انتزاع حق لهم في تولي الملكية، فحاربهم دون هوادة وتغلب عليهم، ثم استطاع أن ينظم إدارة مملكته ويعين على كل ناحية منها رجالا مخلصين له، وبهذه الطريقة توصل إلى فرض الطاعة لحكمه وتأمين الطرق التجارية مما جعل البلاد تشهد ذلك الازدهار الإقتصادي الذي عرفته البلاد طيلة سنوات حكمه لها،

2- تمكن إدريس علومة من تطبيق الشريعة الإسلامية، فكان للعدالة وجودها بين الناس في بلاده مما جعلهم يعتبرونه أمير المؤمنين وينقادون لما يريده منهم،

3- أحدث إدريس علومة رباطات على حدود بلاده مع الممالك الوثنية التي كانت تناصبه العداء، و لم يتوقف عن الجهاد، فكان يقود الحملة تلو الأخرى ويحقق الكثير من الانتصارات عليهم،

4- نظم إدريس علومة جيشه لمواجهة الأعداء وردّهم، واستطاع ببراعته أن يحصل على الأسلحة النارية من الأتراك في طرابلس، وبذلك فقد كان جيشه أول من يستعمل الأسلحة في وسط أفريقيا إلى الجنوب من الصحراء ويفرض التفوق على الجيوش المتواجدة في منطقته وحولها.

لقد أصبحت مملكة الكانم – بورنو على أيام إدريس علومة مملكة اسلامية كبيرة وجزء من العالم الاسلامي، وقد عمل إدريس علومة على توثيق علاقتها بالدولة العثمانية بشكل خاص، كما أرسل وفدا إلى أمير الدولة

السعدية (أحمد المنصور) في مراكش، إلا أن هذا الأخير كانت لـــه نظريتـــه الخاصة باتجاه السوادين، وهي تلك النظرية التي أدت به إلى مهاجمـــة مملكـــة الأساقي فيما بعد، وذلك في عام 1591م كما هو معروف، وتتلخص تلـــك النظرية في أن يعترف له أمراء السوادين بكونه خليفة للمـــسلمين، بـــالنظر إلى كونهم لا تتوفر فيهم شروط الخلافة لأنهم لا ينحدرون من ســـلالة (شـــريفة) قريشية، وهذا ما جعل إدريس علومة لا يستمر في الاتصال به بعد ذلك، خاصة وأن مثل ذلك الاعتراف تترتب عليه واجبات أخرى ثقيلة، ومنها بشكل خاص تقديم الجباية السنوية لأحمد المنصور، من ذهب وغيره.

لقد كان لإدريس علومة مجلس يستشيره، ويتركب خاصة مـــن قائـــد الجيش ورؤساء النواحي والوزير الخاص في قصره، وأكثر جلسات هذا المجلس كانت تنعقد لتنظيم وتقرير الحملات العسكرية التي كان إدريس علومة يقـــوم بها، وأولى تلك الحملات كانت قد تم تخصيصها لضم الكانم الواقعة إلى الشمال الشرقي من بحيرة تشاد إلى البورنو الواقعة إلى الغرب من تلك البحيرة الكبيرة، وبهذا يعتبر إدريس علومة موحدا لبلاد الكانم - بورنو وحامي حماها، فقد قـــام إدريس علومة بخمسة حملات كبيرة ضد سلطنة (بولالا) تحت زعامة السلطان عبد الجليل في بلاد الكانم، ونجحت الحملة الخامسة بالقضاء على تلك السلطنة وضمنها إلى البورنو نهائيا، ثم تفرغ بعد ذلك إلى تنظيم الحملات الأخرى ضد الإمارات الوثنية فتغلب على العديد منها وأدخل الاسلام عليها.

ويلاحظ أنه بمجرد الانتهاء من ضم الكانم إلى البورنو وعودة إدريـــس علومة بجيشه إلى عاصمته (قمبرو) التي كان قد أسسها في السنين الأولى لتوليه العرش، أقام احتفالا كبيرا لتلك المناسبة الكبيرة لديه، وجلس أثناءهـــا لتلقـــي البيعة من جميع ذوي النفوذ في دولته بما فيهم القـــادة العـــسكريون ورؤســـاء النواحي والقضاة والعلماء، وكانت تلك البيعة تتضمن القسم الشديد المعظـــم بطاعتهم له، والإلتزام بأوامره، وذلك ما لم يفعله غيره من قبل، مما يدل على أن ضم الكانم والقضاء على (بولالا) كان بالنسبة له بمثابة توحيد الـــبلاد الـــذي

شكل لديه أولى المهام التي يجب انجازها وقد شارك في تلك البيعة أعداد غفيرة أيضا من المواطنين العاديين، رجالا ونساء على السواء، وكـان ذلـك يومـا مشهودا في البلاد.

جـاء في نـص للجغـرافي الإيطـالي جيوفـاني لـورنزو أنيانـا GiovaniLoronzoAniana كتبه في عام 1582 عن مملكة بورنو علـى أيـام إدريس علومة ما يلي:

"توجد بورنو على ضفاف نهر للزنوج، حيث هناك بحيرة كبيرة يكونهـا النهر المذكور فهي مدينة كبيرة جدا وكثيرة الحركة، وعليها ملكها الذي له اليد الاحتفالية في التعامل تشبه تلك التقاليد التي يتعامل بها ملك تمبكتو، سواء مـع مواطنيه أو مع الأجانب، فيركع الناس أمامه ويرمون التراب على رؤوسـهم، وحوله كثير من الخدم تحت إشارته، يتكونون في مجملهم من عبيـد وشـابات نسوة قد تم تعقيرهن بواسطة بعض النباتات). ثم ذهب جيوفاني إلى القول

(وهو يستعمل اللغة العربية في مراسلاته مع الأمراء الأجانب، وهذا مـا أكده له جيوفاني دي فيستي Giovani Di Vesti وهو شخصية معروفة لـه جدا كان قد خضع للعبودية لدى ابن أحد كبار الأتراك، فقـد شـاهد (أي جيوفادي دي فيستي) بنفسه رسالة لملك بورنو كان قد بعث بهـا إلى باشـا طرابلس مملوءة بالرقة والسلاسة الفنية)، ويستطرد الجغرافي لورانزو في نصه هذا متحدثا عن ما تناهى إليه من معرفته عن إدريس علومة قائلا:

(إن هذا الأمير قوي جدا لدرجة أنه في عديد المرات كان يجهز في حملاته العسكرية ضد ملك (كوبي)[1] مائة ألف رجل، ولذلك فإن السـود، على ما يروى، يعتبرونه بمثابة الأمبراطور، وذلك لقوته الكبيرة جدا، فهو يتوفر علـى أنواع عديدة، من الخيول حملها له العرب من بلادهم وهم يجنون من وراء ذلك

(1) إحدى ممالك (الحوصا) إلى الغرب من مملكة البورنو.

فوائد كثيرة حيث إنهم يبيعون الرأس الواحد منها مقابل الألف والسبعمائة أوقية على الأقل).

وبعد أن يتحدث لورنزو عن التجارة المربحة للأتراك والمغاربة مع بـــلاد البورنو التي يؤكد أن سكانها مسلمون جميعا يستطرد قائلا

(يأتي من هناك كل سنة أعداد كثيرة من التجار السّود حاملين معهـــم كميات من الجلود العالية الجودة التي يبدو أنها تعتبر ذات قيمة عالية في فزان، ثم يعودون إلى بلدهم صحبة قوافل التجار السود ومعهم أعداد كبيرة من الخيول).

وتؤكد كل الوثائق الموجود حتى الآن على أن مملكة البورنو – كانم قد بلغت شأوا بعيدا من القوة والازدهار على أيام إدريس علومة، كما أن هــذا الأمير عمل ما استطاع على نشر الاسلام وتوسيع مجالاته في بلاده وفي المناطق المحيطة بها أيضا، وقد أسند إليه مؤرخ عهده الإمام (أحمد بن فورتوه) صفة أمير المؤمنين وخليفة المسلمين في بلاد بورنو.

أهم المصادر

1- أحمد بن فورتوه – كتاب شأن بورنو، وكتاب شأن بلاد كانم، تحقيق ونشر بالمر.

2- Lange, D, Contribution à l'histoire dynastique des KANEM – BORNO (thèse, université de la sorbonne, 1974)

3- MARTIN, B. G. MAI IDRISS of Borno and the Ottman Turks 1957 – 1978 «International Journal of middle EASTERN Studies, 1972 –

4- LANGE, D; L'interieur de l'Afrique occidentale d'après G. L. ANANIA (XVI) siècle ».

Cahier d'histoire mondiale, Unesco, 1972.

لامينوكال كعوة

يشغل الطوارق مساحة واسعة في جنوب الصحراء الكبرى، وتمتد مساكنهم إلى الجنوب من الصحراء أيضا حتى الحدود الشمالية لجمهورية الطوغو الحالية، ومن الغرب فهم يشغلون مساحة واسعة من جمهورية مالي الحالية ابتداء من تمنكتو غربا حتى الشرق من جمهورية النيجر الحالية بما في ذلك أقدس رندر، ويذكر المؤرخ المغربي اليفراني أن قبائل الصحراء الجنوبيين يرجعون كلهم في النسب إلى لمتونة، ومعلوم أن لمتونة هي إحدى قبائل التفرعات البربرية الكبرى في بلدان المغرب الكبير، غير ان قول اليفراني فيه تعميم بصيغته تلك، لأن سكان الصحراء الجنوبيين قد اختلطت معهم في أيام اليفراني وقبل أيامه أيضا قبائل عربية أخرى مثل البرابيش وبني حسان وغيرهم أيضا كالمعاقيل وسواهم.

يتفرع الطوراق إلى قبائل عديدة، غير أن لغتهم واحدة، وتقاليدهم متقاربة، كما أن لديهم حروفا كتابية خاصة بهم هي التافيناق – أو التافيناغ – حسب اللهجات المتداولة لديهم، والمرأة لديهم تحظى بمكانة خاصة واحترام، وهي ربة العائلة وزعيمتها، وإليها يعود زمام المبادرات في شأن عائلتها، كما أن الكتابة بالتافيناغ هي التي تتقنها في الغالب وتسجل بها ما تشاء.

لقد وصل الإسلام في أول الأمر إلى بلاد الطوارق منذ القرن السابع الميلادي، ويذكر ابن عبد الحكم أن عقبة ابن نافع وهو في برقة أرسل وفدا من جنوده إلى الغرب فقبل السكان هناك الدعوة التي جاءهم بها أولئك النفر، وأسلموا، وقد حقق أحد الباحثين الكبار فيما ذكره ابن عبد الحكيم فتبين له أن منطقة جبال

الطومو في جمهورية النيجر الحالية هي المكان الذي يكون قد إنتهى إليه أولئك الدعاة الذين أرسلهم عقبة أثناء غزوته الأولى لبلدان المغرب[1]

لاشك أن الإسلام وصل إلى التوارق في وقت مبكر نسبيا فاستمسكوا به، ونجد في مآثر سلاطينهم ما يثبت هذه الحقيقة بشكل مستمر.

الأمينوكال في لغة الطوارق تعني الأمير أو السلطان، ولا تتم الإمارة لأحد بالبيعة وإنما تتم بالإرث أو بالتغلب، ذلك أن الطوارق قوم محاربون، فقد تضعف عائلة حاكمة لسبب من الأسباب فتخلفها عائلة أخرى، ويتولى أمراؤها ما دامت قوية، وهكذا.

كان يغلب على حياة الطوارق القبلية التنقل في متاهات الصحراء الجنوبية، وكانت الحروب بين القبائل تكاد لا تتوقف فيخضع المغلوبون للغالبين ويقدمون لهم الإتاوات، واستطاعت إحدى قبائلهم الشهيرة وهي قبيلة إيوليميدان Iwelemeden أن تتغلب على عدد من القبائل الأخرى وتشكل منها كونفدرالية شملت أيضا عشائر سودانية أيضا، عرفت لدى المؤرخين بكونفيديرالية إوليميدان.

لقد كانت هذه الكونفدرالية على طول منحنى نهر النيجر في القرنين السابع عشر، والثامن عشر، وربما كانت موجودة في القرون السابقة أيضا، فهنالك من المؤرخين من يذكر وجودها في القرن السادس عشر ولكن الوثائق الإثباتية على ذلك لا تكاد توجد بما لا يؤكد ذلك يقينا حتى الآن.

كانت هذه الكونفدرالية تشمل كل المناطق الممتدة حول منحنى نهر النيجر، بما فيها تمبكتو بعد ان انتهى إلى الضعف أمر بقايا الجيش المغربي الذي كان قد أرسله المنصور الذهبي في عام 1591م. ثم تخلى عنه، وإلى الشـــرق

(1) هو الباحث بردونشويك، أنظر أ.د. عبد القادر زبادية، مملكة سنغاي في عهد الاسيقيين، الجزائر 1973، وكذلك للمؤلف نفسه (الحضارة العربية الإسلامية والتأثير الأوربي في أفريقيا جنوب الصحراء) ، الجزائر 1989.

كانت حدود هذه الكونفدرالية تمتد إلى حدود أقدس Agades في جمهورية النيجر الحالية، أما إلى الجنوب فقد امتدت حدودها حتى شمال نهر فولتا العليا (أي عند الحدود الشمالية لجمهورة بوركينا فاسو حاليا).

كان نظام هذه الكونفدرالية يترأسه الامينوكال، فهو قائد الجيش وإمام البلاد، وله وزراء ومسيرون عسكريون ومدنيون، من بينهم رجال دين يتولون الفتوى.

ويشتشيرهم الامينوكال في القضايا التي تتطلب استشارتهم فيها، وذلك كي تنسجم تصرفاته المدنية والعسكرية مع الشريعة الإسلامية.

تعتبر فترة حكم الأمينوكال (كعوة) أزهى فترات هذه الكونفدرالية، وذلك بالنظر للقوة التي ظهر بها الجيش في عهده، فقد تمكن هذا الأمير من فرض الطاعة لحكمه على عدد من القبائل الطارقية والسودانية التي شملها حكمه، كما أمن الكافي من الضرائب على جميع الجهات في البلاد، مما جعل خزانته تغطي بما فيه الكفاية كل الحملات والمعارك التي كاد لا ينهزم في واحدة منه جيشه، وكان يقود معظم المعارك بنفسه، وقد توفي في إحدى تلك المعارك بعد نهايتها، فقد رماه بسهم رجل من الجيش المعادي كان يختبئ وراء جذع شجرة كثيفة، غير بعيد من تواجد الامينوكال أو "2 أمير العقال" كما يسمى في الوثائق العربية.

كانت فترة حكم الامينوكال كعوة قد امتدت بين 1773 و1816 على الأكثر، وربما كان يعتبر آل كنته وخاصة سيدي المختار الكبير وابنيه سيدي المختار الصغير ثم أخيهه سيدي محمد، على رأس من كان يستفتيهم في المسائل الشرعية، وخاصة تلك التي تتعلق بالحروب التي يخطط للدخول فيها كي تكون أعماله في هذا الشأن متطابقة ومتطلبات الشرع.

وعائلة كنته كانت لهم زاوية في أزواد، ويحظون بتقدير كبير في المنطقة نظرا لما كانوا يباشرونه من تعليم وتعلم، ويعتبرهم الناس في المنطقة كلها ذوي

علم و ورع، وقد عرف أن الأمينوكال كعوة طلب الفتوى من سيدي المختار كما طلبها من إبنه سيدي محمد، غير أن الفتوى التي طلبها من هذا الأخير كانت على درجة كبيرة من الأهمية، ذلك أنه ظهر في المنطقة أحد الداعيين للجهاد كي يتم إرجاع الناس إلى الجادة الدينية الصحيحة، وهو الأمينوكال عبد الجليل رئيس قبيلة إبراك أورايان Ibrak Urayan فتبعه كثيرون، فطلب كعوة من سيدي محمد إعطاءه فتوى للتصدي لعبد الجليل هذا، وقد جاء في تلك الفتوى ما يحث كعوة على مقاتلة الرجل خاصة، إذا دخل الأراضي الواقعة تحت حكمه، ويقال أن سيدي محمد كان يخشى من تفاقم الأمور في لمنطقة كلها فيتكاثر أتباع عبد الجليل ويدفعه ذلك إلى الادعاء بأنه المهدي المنتظر.

ومهما يكن، فقد خاض كعوة معركته الأخيرة ضد عبد الجليل وأتباعه، وكانت إحدى معاركه الكبرى لعام 1816 ووافته المنية في تلك المعركة كما سلف الذكر.

يتحذر الأمينوكال كعوة من أسرة نبيلة ذات قوة وسلطات بين قبائل الطوارق طيلة القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، فأبوه هو الأمير محمد كاديدو، وأمه هي الأميرة تاطنانيت، التي تذكر بعض المصادر أنها ربما تولت حكم تلك الكنفيدرالية لفترة قصيرة بعد وفاة زوجها محمد، ثم تولى كعوة حكم تلك الكنفيدرالية بعد ذلك مباشرة، أي بمجرد بلوغه السن القانونية حسب التقاليد -

لقد بقيت كنفيدرالية إيويليميدان قائمة حتى بعد 1908 بكل تأكيد، وكان لأمرائها في بدايات القرن شأن في مجابهة المحتلين الفرنسيين شاركتهم فيه قبائل الطوارق الأخرى، أيضا ويذهب المؤرخون إلى أن الأمينوكال كعوة وعهده يحتلان الصدارة والمقام الأول، وذلك فيما يتعلق خاصة بحنكة الرجل في التسيير مما أدى إلى اكتسابه عناصر القوة لمملكته.

هناك وثائق عديدة في أماكن متفرقة بالعربية وبلهجات محلية أخرى لا تزال في حاجة إلى متابعة الباحثين حول هذا الموضوع.

أهم المراجع:

1. تذكرة النسيان (نشر هوداس 1901)
2. السعدي – تاريخ السودان – نشر هوداس 1900.
3. A. Richer, Les Ollimindin, Les Touareg du Niger, Paris 1924.
4. Iwillimeden – Tradition Historiques, Présenté par Altinine Ag Arias, Niamy 1970.
5. Nicolas F., Les Ollimeden de l'est, Paris 1950.
6. Trimingham, gham, A Historiy of Islam in West Africa, Oxford, 1962.

ممادو (محمد) لمين درامي

يذهب كثير من المؤرخين في الشأن الإفريقي إلى أن الإسلام، وخاصة في غرب أفريقيا وشرقها و وسطها كذلك، كان من أهم العوامل في خصوص المقاومة الإفريقية ضد الاحتلال الأوربي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، كما كان كذلك من أبرز العوامل التي ساهمت في يقظة الشعوب الإفريقية وقيامها للمطالبة بالتحرر والاستقلال، بداية من نهاية الحرب الكونية الثانية فما بعد.

لقد تواجد الفرنسيون في ساحل السنغال الحالية قبل القرن التاسع عشر في مركزهم التجاري المحصن (سان لويس)، وكانوا فيه منذ البداية يمارسون التجارة بالعبيد وبالبضائع التي يتبادلونها مع الأهالي وخاصة الزعماء من بينهم، مقابل العبيد الذين كانت تحملهم السفن باكتظاظ شديد انطلاقا من جزيرة كوري Coré، فيموت البعض منهم وترمى جثثهم في المحيط فتلتهمها الحيتان، أما عند وصول البقية الباقية منهم إلى الأميركيين، فإنهم يباعون للمزارعين الكبار بصورة خاصة، بأثمان عالية تغطي جميع التكاليف والأتعاب، وتوفر فوق ذلك لأولئك التجار أرباحا كبيرة.

ومنذ ما قبل منتصف القرن التاسع عشر فما بعد اندفعت الدول الأوربية في إستراتيجية كبيرة للاستعمار، فلم تعد تكتفي بالمراكز التجارية ولكنها أصبحت تعمل على احتلال البلدان بأكملها، وقد وجد الفرنسيون وهم يعملون على احتلال الغرب الإفريقي كله مقاومة قوية من الزعماء المسلمين في منطقة الكايور بصورة خاصة، التي كانت من أهم الإمارات في المنطقة آنذاك، وكان من بين الذين أبلوا البلاء الحسن في القتال ضد تلك المطامح الاستعمارية محمد لمين درامي Mamadou Lamine Dramé وقد سبقه في الدفاع عن ذلك البلد لات ديور ديوب Lat diour Diop وجاء بعد درامي لمين علي بوري

ندايي Ali Bouri Ndaye الذي كان له شأن كبير في مقارعة الضابط الاستعماري الفرنسي أرشينو Archinaud على الخصوص.

ولد ممادو لمين درامي في قرية قريبة من مدينة قايس، وذلك في عام 1840 على الأرجح، وقد اشتهر بثقافته الواسعة مما جلب إليه العديد من الأتباع، وقد تولى حكم الكايور بعد عودته من الحج ومروره بتركيا التي طالت زيارته لها باعتبارها مقرا للخلافة الإسلامية سعيا لكسب الإطلاع الواسع على الثقافة الإسلامية بصورة خاصة فأعطت ذلك مكانة أكثر اعتبارا لدى الناس، ولكن كل ذلك أثار عليه أمير سيقو وهو أحمادو بن الحاج عمر، الذي خشي على ملكه نظرا للشهرة الواسعة التي تمتع بها محمد لمين بعد عودته وتسنمه إمارة الكايور فكثر أتباعه في المنطقة وأخذ لنفسه صفة الإمام، وبما أنه سونكي، فقد أصبح الخلاف قبليا بين السوننكية والتوكولورين Toucolorine الذين هم قبيلة احمادو أمير سيقو، (وهذه التسمية كما هو معلوم محرفة عن كلمة التكرور) وقد ألقى أحمدو بمحمد لمين في السجن لست سنوات كاملة مما أدى بالأخير إلى أن يصبح ضد التوكونوربين وضد الأمير أحمادو بمجرد تسلم حكم الإمارة في الكايور، فتم الهجوم على (سمالة) أحمادو وعلى مركزها العسكري في كونديورو Koundiourou وهذا ما دفع به إلى تجريد حملة عسكرية للانتقام تتكون من عشرة آلاف مقاتل، وذلك في شهر أفريل من عام 1886م. وقد وقع الهجوم على قلعة بأقل Bakel التي كان ممادو لمين متحصنا فيها، فأبدى الطرفان تصميما كبيرا على محاولة الانتصار، وانتقل القتال إلى الشوارع، وكاد جيش ممادو لمين يحرز على الانتصار لولا ما حدث في آخر تلك المعركة من سقوط قنبلة على الحصن، فتم تخريبه على الرؤوس وجرح ممادو لمين وانفرط جنوده فارين بما فيهم ممادو ليمين نفسه.

لقد كان الفرنسيون بقيادة الضابط قاليني Galieni يراقبون تطور الخلاف بين ممادو لمين وغريمه أحمادو محاولين الاستفادة منه بقدر الإمكان،

فعملوا على تقوية الفتنة بين الجانبين، فساعدوا أحمادو ضد ممادو فترة ثم عملوا الشيء نفسه مع ممادو.

اتجه ممادو لمين بعد انكساره في معركة بأقل إلى منطقة غمبيا والكازامانس وضغط على قبيلة السيرر في تلك المنطقة، فراح الفرنسيون يهاجمون القرى التي كان سكانها يناصرونه، وبقي على موقفه تجاههم حتى ضعف جسمه نتيجة للجروح التي لحقت به في المعركة وللضعف الذي كان يحيط بجيشه الذي لم يكن يتوفر على المدافع التي كان الفرنسيون يدكون بها القرى والفلاع بكل فعالية من حيث التخريب.

ويشير المؤرخون بإعجاب إلى تلك الشجاعة التي اظهرها ابن ممادو لمين المسمى صوهيبو (صهيب)، حين تمكن الفرنسيون من إلقاء القبض عليه وأعدامه، أما أبوه ممادو لمين، فقد قضى سنواته الأخيرة هاربا من مكان إلى آخر، وكان سكان منطقة الكازامانس ضده، وكان يساعدهم في متابعته وأتباعه من مكان إلى آخر حليفهم من الأهالي المدعو موسى مولو Moussa Mollou الذي كان له أتباعه في تلك الأثناء وكان الفرنسيون في مساعدته بالسلاح بشكل خاص، وقد تمكن في الأخير من إلقاء القبض على ممادو لمين، فقطع رأسه بعد قتله وحمله رجاله في كيس إلى الضابط الفرنسي في المنطقة.

ويتفق المؤرخون على أن فشل المقاومة ضد الاحتلال الفرنسي في الغرب الإفريقي كانت ظروفها متشابهة وتتمثل في قيام رجالها مثل ممادو ليمن وساموري توري وغيرهما أيضا في القيام بفتح جبهات قتالية متعددة في آن واحد، فهناك القيام بمجابهة المحتلين الغربيين وفي الوقت ذاته هناك الوقوف في وجه الغرماء المحليين، والقيام بغزو الوثنيين لإدخالهم في الإسلام، وكل ذلك في وقت واحد.

هناك وثائق عديدة بالعربية وبلهجات افريقية عن الموضوع لا تزال في حاجة إلى التحقيق والمتابعة من طرف الباحثين.

أهم المراجع

1- Prof. Ki – Zerbo, Histoire de l'Afrique Noire, Paris, 1972.

2- Ford, D, And Kaberry, P, (editors) West Africa Kingdoms in the Nineteenth Cenury, 1967.

3- Brunchwic, H, Mythes et réalités de l'impérialisme colonial français 1871-1914, 1960.

4- R. et M. Cornevin, Histoire de l'Africaine des origines à la 2ème guerres mondiale, Paris 1964.

الشيخ عبد الكريم
مؤسس سلطنة وضاي الإسلامية

هناك من السلطنات الواقعة عند المشارف الجنوبية الغربية لجمهورية السودان الحالية عدة ممالك أو سلطنات كما كانت تسمى ومن بينها سلطنة الباقريمي Paguirmi الواقعة في الجنوب الشرقي من جمهورية تشاد الحالية، وتليها إلى الجنوب الشرقي مملكة دارفور، وهذه السلطنات أو الإمارات كثيرا ما كانت بينها علاقات متنوعة من اقتصادية وبشرية، تقوى أو تضعف حسب الظروف من فترة إلى أخرى، وبما أن الإسلام كان موجودا بشكل واسع في تلك الجهات بالرغم من التواجد الملحوظ لبقايا التقاليد الوثنية أيضا، وذلك نظرا لقلة الدعاة والمثقفين بما يكفي في خصوص العمل على نشر ثقافة الإسلام، فقد كان هناك باستمرار مجال فسيح لمن يرتدي تلك الجهات، من فقهاء ودعاة لهذا السبب، ومن بين هؤلاء الدعاة العلماء نجد الشيخ الفقيه العلامة عبد الكريم بن الجمعي، وبالاستناد إلى ما كتبه عنه عثمان بن فودي فإن عائلة الشيخ عبد الكريم تكون قد جاءت من مكة ثم سكنت في منطقة النيل الأزرق، أما ابنها عبد الكريم فإنه لما أتم تعليمه على يد شيوخ بارزين في منطقته فإنه انتقل إلى وضاي، التي كانت آنذاك تحت حكم العائلة الطونجورية، ويضيف ابن فودي أن وضاي كانت حين وفد عليها الشيخ عبد الكريم وبدأ دعوته بها بعيدة كل البعد عن الإسلام أولا وجود للإسلام بها أصلا، ولكن جل المؤرخين يشكون في قول ابن فودي هذا، وربما يكون قد قصد من ورائه أن الإسلام لم يكن معروفا بالصورة الإصلاحية الصحيحة التي كان الشيخ عبد الكريم يعمل على نشرها بين الناس كداعية مصلح لشؤون الإسلام في البلاد، أما أن يكون الإسلام غير معروف إطلاقا فهذا قول غير دقيق بالمرة، ذلك أنه منذ فتح المسلمون الإسكندرية في عام 641م

عرف أن هناك قبائل عربية في منطقة الإسكندرية وفي المناطق المحيطة بها وفي جنوبها كانت تنزح باستمرار نحو الجنوب، وهـي بدوية، تطـلب الرعي

وتشارك في القوافل، وهي على شيء قليل أو أكثر من الإسلام، وفي عام 1504م تم إسلام النوبة التي كانت قبل ذلك مسيحية، وتم على إثرها إنهاء مملكة علوة، وكل ذلك ساعد على انتشار نحو الجنوب أكثر للقبائل العربية المتنقلة ،وحين بدأ الشيخ عبد الكريم دعوته في وضاي كانت عشائر قبيلة المحاميد موجودة في بلاد وضاي وقامت بمساعدته.

لقد عرف أن الشيخ عبد الكريم حين بدأ دعوته لنشر الإسـلام علـى الأسلوب الصحيح كما يراه، كان يزور الجهات والقرى والمدن، وكان يصحبه في تلك الزيارات إتباع كثيرون من طلاب ومحبين، وحين يقتنع سكان الجهـة التي يقصدها يقوم ببناء مسجد بها، ويؤم الناس فيه لأيام قبل أن يغادر لزيـارة جهة أو مدينة أو قرية أخرى، وهكذا، فقد زار وأقام وبنى في ألبيسة وفي دمبي وفي ملانقا وفي مدالة وفي إيدالكانم، أما أكبر مسجد فقد بناه في أوراة.

لا نعرف الصورة التي تم بها القضاء على حكم العائلة التونجورية في عهد الأمير داوود، ولكننا نعرف بدقة ان الشيخ عبد الكريم قد بدأ دعوته للإسـلام في بلاد وضاي في بدايات القرن السابع عشر، ثم تولى حكم تلك البلاد وجعل منها مملكة إسلامية، واستمر حكمه حوالي ربع قرن، وبالاستناد إلى ما أثبتـه الرحالة الألماني بارث Barth فإن الشيخ عبد الكريم يكون قد وصل إلى بـلاد وضاي بين عامي 1611-1612م، فقضى على حكم التونجوريين وكون مملكة وضاي الإسلامية واستمر حكمه لها بين عامي 1635 و1655. ويثبـت لنـا الرحالة نوشتيقال Noshtigal أن الشيخ عبد الكريم قد توفي في عـام 1555م، وكان عمره آنذاك 66 سنة.

ربما تكون الطريقة التي سار بموجبها الشيخ عبد الكريم هي التي مكنته من الحصول على رضى سكان وضاي في غالبيتهم، ومن ثم استطاع بمساعدتهم إنهاء تواجد الأسرة التونجورية في الحكم، فأسلوبه في الدعوة والإرشاد كـان ذكيـا

جدا، ولما حصل على اكتساب ود أتباع كثيرين حوله في كل جهات البلاد، فإنه استطاع بواسطتهم أن يحقق ما كان يصبوا إليه فيما يتعلق بافتكاك حكم البلاد لنفسه على حساب الأمير الطونجوري داوود الذي هو سادس الأمراء المنحذرين من تلك العائلة وهناك من الوثائق الحولية Chronicals الخاصة ببلاد إمارة وضاي، وخاصة تلك التي اكتشفها واعتنى بتحقيقها وترجمتها الأستاذ الباحث بالمر Palmer ما يثبت أن وصول عبد الكريم إلى الحكم في سلطنة وضاي كان قد تم بتآمر وتقاتل في النهاية بين أتباع الشيخ عبد الكريم وأتباع السلطان التونجوري داود، وهذا على الرغم من أن الأمير داود يكون قد استقبل الشيخ عبد الكريم حين وصوله أول مرة إلى مملكة وضاي بحفاوة بالغة وزوجه ابنته عائشة أو عيشة كما جاء في الحولية، كما نصت تلك الوثيقة بالذات على أن عيشة هذه تكون قد تآمرت على أبيها وساعدت زوجها في الوصول إلى الحكم، وبمجرد انتصابه حاكما على وضاي فقد عمد إلى نفي داود وعائلته وضيق عليهم في السجون حتى النهاية.

وقد امتاز حكم الشيخ عبد الكريم في بلاد وضاي بالالتزام الكامل بالشريعة الإسلامية وأحكامها، فحسن إسلام الناس، وامتلأت المساجد المنتشرة في كامل البلاد بالمصلين ومرتلي القرآن الكريم، وقد اتخذ الشيخ عبد الكريم من مدينة أوارا Ouara عاصمة لسلطنته، وبنى بها مسجدا كبيرا كان يؤم الناس فيه في أيام الجمعة، وهي تقع في إقليم كادوي Kadoi وقد اختلفت الروايات حول تاريخ تأسيسها، فيرجعها البعض إلى فترة ما قبل التونجوريين وبعضهم ينسب تأسيسها إلى التونجوريين، وهناك من ينسب تأسيسها إلى الشيخ عبد الكريم الذي ازدادت الإمارة ازدهارا في عهده.

أهم المراجع

1. Marie josé Tubiana, un document inédit sur les sultans du wadday, cahier d'études Africaines, 1960.

2. محمد بن عمر التونسي، رحلته إلى وضاي (ترجمة Perron) باريس 1851 – ومعلوم أن النص الذي هو بالعربية في الأصل مفقود –

3- Barth, H., travels in north and central Africa, London 1854.

4- Nashtigel, G., Sahara and Sudan, V.IV, traduction de prof.H.J. Fichier, London, 1971.

أمادو (أحمد) دان باسا

كانت البلاد داماقارم DAMAGARM في جمهورية النيجر الحالية يتولى الحكم فيها عدد من الأمراء القبليين، غير أن أكبر الإمارات فيها هي إمارة زندر Zinder التي مكنها موقعها الجغرافي من الوقوع في طريق تجاري بالغ الأهمية، ذلك أن الطريق الذي تستعمله القوافل الكبيرة بين طرابلس وفزان، وكانو وكذلك سوقوطو والبورنو، يمر في هذه المنطقة، وله تفريغ باتجاه شمالي وشرقي نحو مصر، كما أن له تفريعا آخر باتجاه الغرب حيث تمبكتو وجني وغاو.

ولقد تولى أمادو دان باسا منصب السلطنة في زندر عام 1899 وكان عمره آنذاك 18 سنة تقريبا وتلقى مساعدة هامة من الفرنسيين عسكريا وماديا فتغلب بها على السلطان Anadou DAGA أبادوداقا الذي كان من سوء حظه أن وقع بيد الفرنسيين فأهانوه وقتلوه بعد الانتصار عليه وعلى أتباعه.

كان أحمادو باسا آنذاك يتمتع بطموح وذكاء، فحاول التوسع في المنطقة وكان الفرنسيون يتابعون نشاطاته تلك فلم يعملوا على الحد منها، خاصة وإنه كان قد نجح في بسط نفوذه بذكاء وقوة على السكان جميعهم في سلطنته، في وقت كان الفرنسيون لا يزالون يسعون إلى الوصول إلى اتفاقية 1904 مع الأنكليز التي أتاحت لهم الحق في استعمار المنطقة والاستيلاء عليها بما فيها تشاد إلى الشرق من النيجر كما هو معروف، وبعد وصولهم إلى تحقيق تلك الاتفاقية مع الانكليز وجدوا أن طموحات احمادوا باسا لم تعد في صالحهم واتجهوا إلى العمل على تغييره والمجيء بشخص آخر يحل مكانه ولا يتمتع بأي طموحات أخرى غير البقاء رمزيا على رأس السلطنة تحت الحكم الفرنسي للبلاد، وهذا بعد ان أصبح أحمادو باسا غير مرغوب فيه من طرف غالبية السكان، وذلك نظرا لما فرضه عليهم من ضرائب وما قام به من تحركات مدنية وعسكرية معا لإخضاع كل السكان وفرض سلطانه عليهم بالقوة، فتدنت رغبة السكان فيه بعد ثلاث سنوات فقط من حكمه، وبسبب هذين العنصرين: الاتجاه الفرنسي الجديد نحو

تنحيه عن السلطنة، وعدم رضى رعيته عنه، أصبح وضعه السلطني لا يريحه، إلا أن الإتجاه الفرنسي نحوه كان الأكثر تأثيرا عليه، فقرر التحرك قبل فوات الأوان، واستشار في ذلك مستشاريه المقربين من العلماء رجال الدين ومن كبار التجار، فأقروه على ما كان قد عزم عليه من القيام بثورة وإجبار الفرنسيين الأجانب على الرحيل عن البلاد، ونظم لذلك جيشا من الفرسان والرماة كان عدد رجاله لا يقل عن مائة ألف مقاتل، وفي تلك الأثناء كان قتال رابح فضل الله في المنطقة ضد الفرنسيين الدخلاء لا يزال له صداه، كما أن التحركات الدفاعية الأهلية ضد الانكليز في الشمال النيجيري كانت معروفة في النيجر بحكم الجوار ومحبذة من طرف الأهالي بشكل خاص، في كل أنحاء النيجر وسعيا من أحمادو باسا لتحضير الثورة بكل فعالية ضد الفرنسيين فقد راسل عددًا من العلماء والأمراء في البلدان المجاورة للاستئناس برأيهم ومطالبتهم بالدعم اللازم بعد القيام بالثورة ضد الفرنسيين المحتلين لبلاد المسلمين، وبعث لكل واحد منهم أحد من مستشاريه الكبار، فوجد من الجميع التشجيع والمساندة له بقدر الإمكان، فبعضهم وعده بتجهيز وحدات عسكرية للقتال إلى جانبه، وبعضهم وخاصة كبار العلماء دعا له بالنجاح وبارك سلفا خطوته لرد الفرنسيين وطردهم من بلاد المسلمين.

لقد أثبتت جميع الوثائق الفرنسية أن تحضير أحمادو باسا للثورة ضدهم كان تحضيرا جيدا إلى حد كبير، غير أن اكتشاف الأمر قبل إعلان الثورة عجل بالفشل، ذلك أن زوجة أحد الجنود في جيش الرماة الفرنسي، والأكثر أنها من أهالي السنغال، أوصلت خبر التحضير للثورة عليهم، فقام الفرنسيون في الحال بالبحث والتنقيب فتوصلوا في النهاية إلى اكتشاف كل الحقائق بتفاصيلها الكاملة، وطبقوا في الحال أحكامهم القاسية على السلطان أمادو باسا، فنفوه إلى مستعمرتهم في ساحل العاج بعد القيام بتنحيته في الحال عن السلطنة، وأصدروا في الوقت نفسه أحكاما تتراوح بين السجن الشاق والنفي عن البلاد، فطبقوها على جميع مستشاريه والمتعاونين معه.

لم يعد أحمادو باسا إلى زندر حتى عام 1922 وتوفي بها في فيفري 1950.

أهم المراجع:

1. André Salifo, « Conjuration Manquée du Saltan de Zinder (Niger) 1906» Africa Zamani N° 3-1974, P.P 69-103.

2. Archives de Dakar, Dossiers 17-G 54 et G 306.

البوشيري

لقد تأتى لسكان السواحل الإفريقية الشرقية ازدهار اقتصادي وحضاري طيلة العصور الوسطى واستمر ذلك الازدهار حتى وصول البرتغاليين في القرن الخامس عشر، ثم الانكليز والألمان في نهاية القرن التاسع عشر.

لقد جاء البرتغاليون بعد اجتيازهم لرأس الرجاء الصالح في حملات اكتشافيه عسكرية ما لبثت أن آل أمرها إلى الضعف والتلاشي كنتيجة لمقاومة الأهالي وسلطنة عمان، أما الانكليز والألمان فقد فرضوا استعمارهم بوسائل سياسية وعسكرية معا طيلة نصف قرن تقريبا غير أن الألمان لم تكن فترة احتلالهم لتتجاوز عددا من السنين، نتيجة لانهزامهم في معاركهم الأوربية، فحل محلهم الانكليز حتى الستينات من القرن العشرين.

تعود أسباب الازدهار الاقتصادي والاجتماعي لسكان الساحل الإفريقي الشرقي بالدرجة الأولى إلى عامل التجارة الذي اشتركوا فيه مع بلدان آسيا الشرقية والجنوبية بصورة خاصة، فتكون هناك مزيج من الجاليات العربية والهندية والإيرانية أو الشيرازيون كما كان يطلق عليهم، وذلك نسبة إلى شيراز في الجنوب الشرقي الإيراني، والاندونيسية وحتى الصينية (بدرجة أقل) وكذلك الزنجية التي هي مجموعة السكان الأصليين كما يشير إلى ذلك المسعودي في كتابه (مروج الذهب) بصورة خاصة.

وبامتزاج وتعايش تلك المجموعات العرقية المتنوعة تكونت في المنطقة الساحلية تقاليد مشتركة يشير إليها المؤرخون بالحضارة والتقاليد السواحيلية، فكانت هناك لغة مشتركة هي اللغة السواحيلية التي تشتمل مفرداتها على ما يناهز الخمسين في المائة من المفردات الموجودة في لغة العرب.

لقد كان للجاليات العربية وجود قديم في المنطقة ا الساحلية للشرق الإفريقي قد يعود إلى بدايات العصر الوسيط على الأقل، وتدعم ذلك الوجود في العصر الحديث، خاصة لما انتقل إليها السيد سعيد، أمير سلطنة عمان، واتخذ من جزيرة زنجبار عاصمة له، وذلك منذ عام 1840 فما بعد، فقد تصاهرت عديد من العائلات العربية مع رؤساء من العائلات الزنجية، واشترك البعض من الجانبين في تجارة القوافل التي امتدت لتشمل تابورا وأوجيجي في تترانيا الحالية على ضفاف بحيرة طانقانيكا، وامتدت تلك التجارات لتشمل منطقة كاتنقا Catanga أيضا في جمهورية الكونقو الديمقراطية حاليا.

لقد كوّن العرب مستقرات عائلية لهم في تلك المناطق الداخلية المذكورة وكانت تلك المستقرات تمارس التجارة والزراعة معا، ومن بينها مزرعة آل البوشيري، وكلمة البوشيري تعني البشير أو آل البشير في لغة السّواحليّين، ولقد كان رؤساء تلك المستقرات واضعين أنفسهم تحت السلطة العليا لسلطان زنجبار، ولكنهم يتمتعون بالحرية المطلقة في أملاكهم الجهوية، وكانت عائلة البوشيري من أقدم العائلات التي هاجرت من عمان إلى الشرق الإفريقي خلال القرن الثامن عشر، فسكنت في زنجبار في البداية، ثم كان لها خلاف مع السلطان لم تنجح في تنحيته والإحلال محله في السلطنة، فانتقلت إلى بنقوانا Bangwana حيث اتخذت بها مستقرا لها.

ينحدر البوشيري من هذه العائلة، وجدهم الأول الحارثي، أما إسم أبيه فهو سليم، وأمه إفريقية، وكان معروفا بالشجاعة وعدم الخضوع، وفي عام 1885 أعلن الألمان الحماية على زنجبار وأملاكها في الداخل وعلى الساحل، فكان لذلك أثر مفزع على السكان خاصة وأن الألمان استعملوا كي يفرضوا سلطتهم على المتمردين ضدهم كل أنواع القسوة، ولقد كان من أبرز الثائرين البوشيري، وقد علل الأسباب التي أدت به إلى القتال ضد الألمان قائلا:

"في الوقت الذي كنا فيه نحن العرب نمارس، كما كنا في السابق، تجارتنا في أفريقيا الاستوائية ولا يقلقنا أحد، جاء الأوربيون من ناحية الغرب والجنوب والشرق، وهم يخترقون حاليا ليتملكوا البلاد، وبعملهم هذا فقد أضروا وأساءوا لمصالحنا بدرجة فضيعة، وضد هذه الخسارة التي يلحقوها بنا، فـنحن نقاتـل، وليس أمامنا أية مساعدة ننتظرها من سلطان زنجبار، لأنه خان إفريقيا الشرقية لصالح الألمان، إن الألمان قد استولوا على الأراضي في الساحل زاعمـين أنهـم موظفون لدى سلطان زنجبار، وبما أنهم يضعون علمهم في مكان علم السلطان في الولايات، ويدخلون تجديدات متعددة وذات أهمية، فقد تأكد لـدينا أنهـم يريدون أن يكونوا هم السادة في البلاد كلها... إنني بوشيري بـن سـليم، لا تحالف لي مع السلطان في زنجبار منذ ثمان عشرة سنوات، نظرا لما كان لي مـن خلاف مع السلطان السابق، ولهذا السبب فإن الغاضبين قد اختاروا أن أكـون قائدهم، وسأجعل الأوربـيين يـدركون أن لي قبـضة حديديـة) – ينظـر O.Baumann, in Deutch östafrica.

لقد قدر الألمان جيش البوشيري في البداية ما بين خمسمائة إلى سـتمائة ألف وتأتى له ذلك من الثقة فيه الحاصلة لدى رؤسـاء العـشائر في المنطقـة وكرههم للاحتلال الألماني، إلا أن عدم توفره على الأسلحة الكافيـة وعلـى المؤونة الكافية كذلك لمثل هذا الجيش العرمرم، جعـل الألمـان ينتـصرون في النهاية، فألقوا القبض على البوشيري وأعدموه.

يتحدث المؤرخون عن البوشيري كثائر وطني شجاع، وقد الحق بالمحتلين الألمان خسائر فادحة واستجاب لدعوته إلى القتال الكثيرون من عرب وزنوج، ولكن الألمان انتصروا في الأخير لعدم التكافؤ في الأسلحة بشكل خاص، ونجح منذ البداية في توحيد الصفوف ضد الألمان، حيث التحق به عدد وافرٌ من الزعماء ورؤساء القبائل، إلا أن عمله هذا كثائر وطني لم يحظ بالتقدير اللآزم بعد استقلال تنزانيا لاعتبارات عرفية بحتة لدى الرئيس جوليوس نيريري زعيم تنزانيا الأول في فترة الاستقلال وتدبيره أيضا القضاء على العرب في زنجبار دليل

واضح على ذلك، يضاف إلى ذلك أن الرئيس نيريري كان قسيسًا قبل أن ينغمس في أمور السياسة بعد ذلك.

هناك وثائق عديدة لا تزال في حاجة إلى المتبعين الباحثين حـــول هـــذا الموضوع.

أهم المراجع:

1. Jackson, R. et Al editors-resistance to the German invasion of the Tanganika, N. York, 1970.
2. Kirnan, J., Abushiri and the germans, Nairobi, 1970.
3. Baker, A., Deutschlands grösters, Afrikanneo B. 1977.

رابح فضل الله

ينحدر رابح فضل الله من عائلة متوسطة الحال، كانت تقيم في قرية صغيرة في نواحي مدينة الخرطوم، والأرجح أنه قد انخرط في الجيش المصري وهو في سن العشرين من عمره، وبعد مدة استغني عن خدماته في ذلك الجيش بعد أن حدث له ضرر في عظام أصابعه، ثم تعرف بعد ذلك على الزبير باشا الذي كان من أكبر تجار منطقة بحر الغزال بما فيها دارفور وسنار وكردوفان، وأضبح لذلك السبب نائبا للوالي المصري بها، ومعلوم أن احتلال السودان من طرف الجيش الذي جرده محمد علي والي مصر تم في عام 1820 ثم احتلال مصر من طرف الإنكليزي عام 1882م فأصبحت السودان تابعة لمصر ولإنكلترا منذ ذلك التاريخ.

في عهد الخديوي إسماعيل عزم هذا الخديوي على تنفيذ السياسة الانكليزي فيما يتعلق بمنع تجارة العبيد فأدى ذلك إلى خلاف مع الزبير باشا في المنطقة، ودخل إبنه سليمان في حرب مع الجيش الخديوي والانكليز، ولما انهزم سليمان ونفذ فيه حكم الإعدام مع عدد من مساعديه وضباطه، كان من بين من رفضوا الإستسلام الضابط رابح فضل الله، الذي فر باتجاه الجنوب الغربي مع عدد من الرجال حوله وبدأ في تشكيل جيش خاص به، كان جيشا متنقلا في البداية ثم ما لبث أن اتسعت ملكاته وقويت شوكته، فغزا سلطنات دارفور وياقرمي ووضاي وكردفان وسنارودار فوت وأخضعها كلها لحكمه، مما جعل المؤرخين ينعتون مملكته الواسعة هذه بالإمبراطورية (إمبراطورية رابح فضل الله).

لقد شملت إمبراطورية رابح هذه كل مناطق أفريقيا الوسطى إلى الجنوب والجنوب الشرقي من بحيرة تشاد، ولقد تعلم رابح كيف يسيرها بحنكة مشهود له بها، فكان يشرف بنفسه على تدريب الجيش، مما جعله لا يقهر أمام الجيوش التابعة لكل السلاطين في المنطقة، وكان قد قسمه إلى وحدات، ويعهد بقيادة كل وحدة إلى ضابط ممتاز لديه، كما كان يشرف بنفسه على مالية إمبراطوريته

فيعقد الاتفاقيات مع القبائل والبلدان المجاورة كي يؤمن السير الحسن لأمور القوافل التجارية وجلب الأسلحة النارية لجيشه بمختلف الوسائل المتاحة، وهذا ما جعل جيشه يواجه الحملات العسكرية الفرنسية بكفاءة عالية يشير إليها المؤرخون بكثير من الإعجاب ويشير إليه بعضهم كأحد رجال أفريقيا الكبار الرافضين للاحتلال الأوربي حتى النهاية كساموري توري وباهنـــزين وغيرهما، وقد عرف أن رابح فضل الله حينما رفض الاستسلام إلى جانب سليمان وأتباعه، كان عدد رجاله معه فقط ستمائة رجل، أما بعد ذلك فقد أصبح رجال جيشه ومساعدوه يعدون بعشرات الآلاف.

في عام 1881 أعلن محمد أحمد في السودان أنه المهدي "المنتظر"، ودعا إلى العودة إلى الإسلام الصحيح، وقد خلفه ابنه عبد الله في عام 1885 تحت اسم خليفة المهدي، ويعتبر المؤرخون أن ثورة المهدي هي عبارة عن دعوة في قالبها الديني لإثارة الشعور الوطني لدى السودانيين لأنها كانت بمثابة الثورة ضد المصريين والانكليز معا.

لقد كاتب خليفة المهدي رابح فضل الله كي ينضم إلى حركته ثلاث مرات متتالية (الأولى في عام 1886 والثانية في عام 1887 والثالثة في عام 1888) فلم يرد رابح على الرسالتين الأوليتين، أما ردة على الرسالة الثالثة فكان غامضا، وبذلك يثبت أن رابح كان مشغولا بإدارة مملكته الواسعة و لم يكن يرى التحاقه بحركة أخرى كحركة المهدي وخليفته ما يستوجب الاهتمام.

بعد انتصاره على إمارة البورنو وضمها إلى مملكته بقي رابح فترة قصيرة بها ثم نقل عاصمته إلى كوكوا حيث بقيت هي عاصمة مملكته حتى النهاية، وقد اعتنى بتجميلها، فأنشأ بها عديد المنشآت وسيّجها وحصّنها، وقد كان رابح معروفا بين رجاله بالبساطة وبالحكمة في التسيير، وكان قد اكتفى طيلة أيام إمبراطوريته بلقب الأمير، و لم يزد على ذلك، وقد اشتهر بالورع والتقوى،

وكان أتباعه والمقربون منه يقلدونه في جميع سلوكاته، وخاصة فيما يتعلق بالأمور الدينية.

كان الوقت في آخر القرن التاسع عشر وقت تكالب أوروبي على الاستعمار في أفريقيا، وكان هناك تنافس على منطقة تشاد بين الانكليز والفرنسيين في البداية، ثم تم الإتفاق على إعطائها للفرنسيين، فقاموا بعدة محاولات وردهم رابح بكل اقتدار ثم عمد الفرنسيون في عام (1899) إلى تجريد ثلاث جيوش مرة واحدة (الجيش الأول قدم من مالي والجيش الثاني قدم من الكونقو برازافيل، والجيش الثالث قدم من الجنوب الجزائري)، وقد اشتركت تلك الجيوش الثلاث في المعركة الأخيرة (معركة مارس 1900) فتغلب بمدافعها على جيش رابح بعد قتال عنيف لمدة ليست بالقصيرة، فقطعت رأسه وحملته على خشبة وأطلق ضباطها العنان لجنودهم كي ينهبوا ويسلبوا ويسلبوا الناس أمتعتهم كما يشاؤن.

- هناك وثائق عديدة بالعربية وبلهجات افريقية أخرى لازالت في حاجة إلى متابعة الباحثين حول الموضوع.

أهم المراجع:

1. Holt (P.M) , A Modern History of the Sudan, London, 1961.
2. Gentil, P., La conquête du Tchad, Vincennes, 1970.
3. Zeltner, J.C, Histoire des arabes sur la rive du lac Chad, Madison 1972.
4. Brenner, L., The Shehus of Kukawa.

الفصل الرابع

خاتمة للإحاطة بالجوانب الأخرى حول الموضوع:

1- محتوى الخرائط والمؤلفات العربية الإسلامية وصداها في أوروبـــا العصر الوسيط.

2- الطرق الصوفية ودورها الديني والحضاري لـــدى الأفارقـــة إلى الجنوب من الصحراء.

3- رجال الصوفية (الأقطاب) وتأثيرهم.

4- عبد القادر الجيلاني (ت.عام 1166هـــ.)

5- احمد التيجاني (ت.عام 1815م.)

6- السنوسي محمد بن علي (ت.عام 1859م)

7- أحمد بمبامباكي ت.عام 1927م.)

1- المؤلفات والخرائط:

يلاحظ أن المؤلفين العرب والمسلمين، تكاثرت أحاديثهم عن المناطق الإفريقية إلى الجنوب من الصحراء، حتى نهايات القرن الخامس عشر للميلاد، ثم بدأت تقل بعد ذلك، وربما تفسر هذه الظاهرة بأن المناطق الإفريقية إلى الجنوب من الصحراء أصبحت معروفة بما فيه الكفاية، فقد وصل المسلمون بمعرفتهم عن إفريقيا إلى الجنوب من الصحراء إلى المناطق الاستوائية وما بعدها أحيانا، وأصبحو يتعاملون مع السكان داخل القارة بشكل عادي ويتبادلون معهم منتوجاتهم، وخاصة عند الالتقاء بهم في مناطق الاتصالات الكبرى مثل (تمبكتو وجني وأقدس) في الوسط والغرب، ومثل (مقديشو وممباسا وأوجيجي) في الشرق والجنوب، ومعروف أن مؤلفات المسلمين المعروفة في الغالب تحت عنوان (المسالك والممالك) كأن مؤلفوها يهدفون من خلالها إلى تسهيل مهمات الرحالة والتجار، ويهدفون أيضا إلى إطلاع القراء على البلدان والأقاليم، وخاصة الإسلامية منها أو تلك التي يتعامل المسلمون معها باستمرار كالهند والصين أو بلاد الخزر وما إلى ذلك.

وهناك كثير من المؤلفين في موضوع (المسالك والممالك) أرفقوا كتبهم بخرائط عن المناطق والأقاليم الإسلامية منها وغير الإسلامية مثل ما فعل ابن حوقل والادريسي، وهناك من ذهب إلى وضع خريطة خاصة بالبحار أيضا كما فعل البيروني، ونجد في كل الخرائط التي وصلت إلينا أن إفريقيا جنوب الصحراء موجودة بكثرة، وذلك نظرا للمعرفة التي كانت للعرب بأفريقيا، ومعروف أنه خلال العصر الوسيط كأن لبلدان أوروبا الجنوبية تعامل تجاري، وبأساليب عدة، مع البلدان العربية، وهذا بالرغم من فترة الحروب الصليبية، وكذلك القرصنة التي كانت شائعة في البحر الأبيض المتوسط بشكل خاص، وكان للأوروبيين في تلك الفترة شغف كبير لشق طريقهم نحو ما وراء البلاد العربية للحصول على البضائع الثّمينة كما كانوا يعتقدون من مصادرها بأنفسهم،

وعلى رأسها التوابل التي تنتج في الهند والصين، والذهب الذي كانوا يتخيلون أنّه (يتواجد بكميات خيالية) في إفريقيا إلى الجنوب من الصحراء، كما عرفوا وأن هناك بلدا مسيحيا يترأسه (القديس المدعو يوحنا) يقع إلى ما وراء بلاد المسلمين، واتجهت رؤاهم إلى استهداف الوصول إليه والتحالف معه (لضرب المسلمين من الخلف).

وقد عرف الأوروبيون خلال العصر العديد من كتب "السالك والممالك" وما احتوت عليه من الخرائط، فذهب أصحاب رسم الخرائط لديهم، إلى رسم الخرائط المشابهة لتلك التي وضعها الجغرافيون المسلمون والإغريق، واحتوت كثير منها على تلك الأفكار السائدة لدى الأوروبيين آنذاك عن إفريقيا جنوب الصحراء وبلدان الشرق الأقصى، التي كانت تضع البلدان الإسلامية أمامهم بموقعها حاجزا يصعب اختراقه، فقد احتوت كثير من الخرائط التي تم رسمها في أوروبا العصر الوسيط، وخاصة في جزر الميورقة، خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر، صورا خيالية تملأ تلك الخرائط، وأحيانا تتوسطها، تمثل ملكا زنجيا جالسا على صخرة من الذهب، وعلى رأسه تاج ترصيعه من الذهب، كما أن جميع ملابسه مرصعة بالذهب، وكذلك سيفه وعصاه.. إلخ... وذلك لما كانوا يتخيلونه عن أفريقيا جنوب الصحراء من كونها مملوءة بالذهب، وهي غنية به وأن المسلمين يجلبون لهذا السبب منها، أموالا طائلة، وغالبا يكتبون تلك الصور الخيالية لديهم عن ذلك الملك الزنجي (ملك غانا) ، لأن اسم مملكة غانا هو أول ما اشتهر لديهم من أسماء بلدان ما وراء الصحراء الكبرى، الغنية بالذهب، والبعض من تلك الخرائط على كثرتها، كان يحمل أيضا اسم ملك الحبشة JOHANIUS (جوهانيوس أو يوحنا).

أهمّ المصادر:

(أ) – يراجع حول هذا الموضوع، للمزيد من الاطلاع، ما يلي بصورة خاصة:

- الدكتور زاهر رياض – استعمار افريقيا – القاهرة 1965.
- الدكتور زكريا قاسم – الأصول التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية – القاهرة 1975.
- فضلو حوراني – العرب والملاحة ي المحيط الهندي – القاهرة 1958.
- أغناطوس كراتشوفسكي – تاريخ الأدب الجغرافي عند العرب – (ترجمة صلاح عثمان القاهرة 1963).

2- الصوفية:

لقد نشأت الصوفية والتصوف خلال عهود متقدمة في تاريخ الإســـلام، ولا شك أن هدف الصوفيين منذ البداية كان يتمثل في التعبد والورع والتنـــزه عن حطام الدنيا كما يقول الصوفيون، وبهذه الصورة اســـتطاعوا أن يلحقـــوا ويدرجوا الحركة الصوفية ضمن مفاهيم الإسلام، وقد التصق بالحركة الصوفية أثناء العهدين العباسي المتأخر والعهد العثماني بصورة خاصة كثير من البـــدع والخرافات مما حدا بعدد من المصلحين في القرنين التاسع عشر والعشرين بصورة خاصة مثل الإمام عبد الحميد ابن باديس بالجزائر والإمام محمد ابن عبد الوهاب بالجزيرة العربية إلى اعتبار العديد من الأفعال والأقوال التي يقـــوم بهـــا بعـــض الصوفيين يتبنونها خارجة عن نطاق الإسلام، ويذهبون إلى أنها مستمدة أو تعود في أصولها إلى مصادر غير إسلامية إجمالا وأصلا.

إن التطورات التي رأتها الحركة الصوفية أدت إلى أنه لا يقتصر دورهـــا على المجال الفردي الخاص بالشخص المتصوف، وإنما يتعدى ذلك إلى اســـتلهام الكثيرين لسلوكه الخاص في التعبد واعتبار ما يصدر عنه من أقوال وأفعال بمثابة الطريقة التي يجب اتباعها والإقتداء بها ومن هنا تشعبت الحركة الصوفية الـــتي كانت في البداية فردية وخاصة، إلى ما يشبه الفئات أو الأحزاب) فلكل منـــها (الذكر) الخاص بها، وكذلك أسلوبها في التنظيم الاجتماعي والسياسي أيضا.

ويذهب المؤرخون إلى أن انتشار الحركات الصوفية وأخْذ الناس بها يعود سببه الأساسي إلى الخلل الذي حصل في جسم الدولة الإسلامية أثناء فتـــرات ضعفها، مما جعل أمام الناس في كل ناحية الأخذ بأقوال وسلوك من يتصلون به من العلماء المتعبدين في مناطقهم وذلك كي تستقيم أمورهم مـــن النـــاحيتين الدينية والأخلاقية على الأقل، وقد يتجاوز الأمر هاتين النـــاحيتين إلى المجـــال السياسي أيضا، فيثور أتباع طريقة صوفية ما متضامنين للوصول إلى هـــدف أو للحصول على مكسب سياسي أو اجتماعي معين.

وفي افريقيا جنوب الصحراء كان للطّرق الصوفية دورها الكبير جدا لدرجة أن جميع الأفراد كانوا لا يزالون يربطون إسلامهم بالانتساب إلى إحدى الطرق الصوفية، والسب في ذلك أن الإسلام كان قد وصل إلى أفريقيا جنوب الصحراء بواسطة رجال الصوفية، ومن هنا أُصبح من العادة أن يكون الفرد الإفريقي إلى الجنوب من الصحراء فقط مسلما قادريا، أو مسلما تيجانيا أو مسلما مريديا أو مسلما سنوسيا، ولكن من غير العادي في الغالب أن يكون مسلما غير منتسب لإحدى الطرق الصوفية الكبرى المعروفة في المنطقة أو إلى إحدى الطرق الصوفية الصغيرة المتفرعة عن إحدى تلك الطرق الصوفية الكبيرة.

ويجد المتتبع لما كتبه العلماء الأفارقة بالذات من تراجم لفقهائهم ولرجالات العلم لديهم ضروبا من الإيمان بخوارق العادات لدى هؤلاء العلماء وبالإيمان بـ (التّجلّيات) التي يلصقونها بأولئك الفقهاء والعلماء، لدرجة أن يصبح لكل واحد منهم صفته ونصيبه الخاص به من المعجزات التي تؤهله إلى إيمان الناس بعمله وبكونه من (أولياء الله) المعترف لهم بـ (اصطفاء الإله) لهم، وتمكينه لهم كي يصبحوا من الأولياء الصالحين بحيث يتبرّك الناس بهم عن جدارة واستحقاق.

ونتتبع فيما يلي أهم رجالات الطرق الصوفية الأربع الكبرى فقط التي كان لها التأثير الواسع والكبير في أفريقيا جنوب الصحراء، وذلك حسب التسلسل التاريخي لوصول كل واحدة منها إلى المناطق الإفريقية وانتشارها فيها، وهم:

1) عبد القادر الجيلاني (صاحب الطريقة القادرية)،

2) محمد بن علي السنوسي (صاحب الطريقة السنوسية)،

3) أحمد التيجاني (صاحب الطريقة التيجانية)،

4) أحمد بامبامباكي (صاحب الطريقة المريدية).

- فهؤلاء السادة، لم يذهبوا بأنفسهم إلى أفريقيا جنوب الصحراء (باستثناء أحمد بامباماكي الذي هو من أبناء المنطقة والسيد محمد علي السنوسي الذي كان قد توغّل هو الآخر في الصحراء دون شك ولكنه لم يتجاوزها، وإن أتباع تلك الطرق الأربع هم الذين كان لهم المجال الكبير في نشر الإسلام إلى الجنوب من الصحراء والعمل المستمر على أقناع الناس به، ومما يمكن ملاحظته هنا، أن هؤلاء " الأقطاب " كما يشير إليهم في العادة كثير من أتباعهم، كانوا كما سيجد المتتبع هنا لسيرة كل واحد منهم، رجال صوفية مستقيمين وفقهاء متعبدين ولكن أتباع الطرق التعبدية التي سار عليها أولئك الرجال في حياهم، وأنواع الأذكار التي كانوا يتلونها، هي التي أدت بأتباعهم، مع تقادم الزمن، إلى نسبة كثير من البدع والخرافات إلى أولئك الرجال، واعتبارها بمثابة (المعجزات) التي خصّهم الإله الأعظم بها، والمبالغة في اعتبار قبورهم مزارات للتبرك وللشفاعة في الآخرة وطلب العون في الدنيا أيضا كالمساعدة على الإنجاب أو على الشفاء من الأمراض... إلى غير ذلك، وذلك كله، مما لا ينسجم ومفهوم الإسلام الخالي كما هو معروف من البدع والخرافات.

رجال الصّوفية (الأقطاب)

- عبد القادر الجيلالي (ت.1166م)
- أحمد التيجاني (ت.1815م)
- السنوسي محمد بن علي (ت.1859م)
- BAMBA M'BAKI أحمد بمبامباكي (ت.1927م)

عبد القادر الجيلاني
471 هـ 1078 م / 561 هـ 1166 م

هو محي الدين أبو محمد بن أبي صالح جنجي دوست، وكلمة جيلاني هي نسبة إلى جيلان التي ولد بها، وهي تقع إلى الجنوب من بحر قزوين.

تلقّى عبد القادر الجيلاني تعلّمه على عدد من أبرز العلماء والمحدّثين على أيامه، كان من بينهم العلاّمة الفقيه التبريزي (توفي عام 502 هـ - 1109 م) كما درس على المعتزلي الشهير أبي الوفاء ابنِ العاقل (توفي في عام 513 هـ - 1121 م)، ودرس أيضا على أبي سعيد المُخرَّمي الذي كان أحد القضاة اللاّمعين آنذاك، وأخذ علوم الحديث بصورة خاصة على الصوفي أبي محمد جعفر المعروف بالسّرّاج وصاحب كتاب (مصارعِ العشاق)، لكنّ الذي علّمه الصّوفية والتصوّف هو أبو الخير حمّاد الدبّاس المتوفّى في عام (523 هـ - 1131 م).

تحدّث ابن الأثير عن المخرّمي أبي سعيد فنعته بذلك (الصوفي المتعبّد والمتعالي عن متاع الدنيا والزّاهد فيها)، وجاء ذكر المخرّمي على أنه هو الذي خلع على عبد القادر الجيلاني (الخرقة الصوفية) حينما بلغ هذا الأخير درجة التّمكّن الكامل من فهم الصوفية وأتمّ كذلك تعلّمه وإحاطته بمختلف علوم زمانه.

بدأ عبد القادر الجيلاني طريقه في الوعظ والإرشاد وهو في سنّ الخامس عشرة من عمره، وبعد ذلك بسّت سنوات أصبح رئيسا لمدرسة المخرّمي وكان في الوقت ذاته يتلقّى المساعدات المالية لتسييرها وإدارتها، من الأغنياء والمحسنين، كما هي العادة لدى المسلمين في ذلك الوقت تجاه الزّوايا ورجالاتها، كما أنّ الفقراء من الناس كانوا كثيرا ما يتطوّعون أيضا للقيام بالأعمال التي تحتاجهم إليها مراكز الزوايا (أو التّكيات) الصوفية ورجالها.

وبعد مدّة تكاثر توارد مساعدات الناس على عبد القادر الجيلاني واتّسعت سمعته بين الناس في الوعظ والإرشاد والتّربية والتعليم، وهي الأعمال التي كان الرّجل يقوم بها بكلّ ما كان يستطيعه من جهد وإخلاص، وهذا ما ساعده على أن يستقلّ بعد ذلك بنفسه وينشئ له مركزا لطريقته في الوعظ والإرشاد والتعليم والتوجيه، وبذلك نشأت الطريقة القادرية الصوفية نسبة لصاحبها (عبد القادر الجيلاني)، ويقال أن هذا الصوفي الكبير يكون قد استطاع بطريقته هذه ونزاهته أن يجلب لها أيضا عددا من المسيحيين واليهود، فاعتنقوا الإسلام على يده.

من أهمّ مؤلّفات عبد القادر الجيلاني كتابه (الغُنية لطالبي الحق) ويظهر من محتويات هذا الكتاب إيمان الرجل بالأولياء والصالحين، كما هي العادة الشائعة دائما لدى الصوفيين بصورة عامة، كما يظهر أيضا إيمان الرجل بمسألة التجلّي التي تعني الوصول إلى المراحل العليا فيما يسمّى لدى الصوفيين بـ (الإلتحام الوجداني الذاتي بالرّوح القدس)، وذلك إثر الجهد الكبير الذي يبذله المتعبّد الصوفي في الذكر والتوسّل لله سبحانه وتعالى.

قضى عبد القادر الجيلاني جزء هامّا من حياته في بغداد التي انتقل إليها بعد أن سبقته إليها طريقته في التصوّف والأذكار، وأصبح له أتباع كثيرون من خارج منطقته المحدودة في الجنوب من بحر قزوين. وفي بغداد ازدادت تعاليمه وشهرته اتّساعا، واستمرّ هو على طريقته في الوعظ والإرشاد، ممّا جعل الناس يحبّونه كثيرا ويقبلون على توجيهاته بالمزيد من التقدير.

توفي عبد القادر الجيلاني ببغداد، وسمّي أحد أحيائها الشهيرة باسمه كما أنّ قبره لا يزال محلّ زيارة لعامّة الناس حتى اليوم، ونظرا لمكانة الطريقة القادرية لدى العامة بصورة خاصة، فقد اهتمّ السّلطان سليمان العثماني بمقام هذا الصوفي الشهير، فأعاد بناء قبره الموجود في بغداد وكذلك المسجد الموجود إلى جانب ذلك القبر، وهو مسجد جامع حتّى الآن.

تعتبر الطريقة القادرية من بين أقرب الطرق الصوفية إلى مذهب أهل السنة والجماعة، وقد انتشرت انتشارا واسعا في كلّ البلدان الإسلامية، غير أن انتشارها في بلدان المغرب العربي ربما كان الأوسع، أمّا في افريقيا جنوب الصحراء فإنّ للطريقة القادرية ولرجالاتها دورا كبيرا في نشر الإسلام بين الأفارقة والعمل على تثبيت دعائم وجوده، فقد كانت أسبق الطرق الصوفية انتشارا في كلّ السّوادين، وقام رجالها والمتزعّمون باسمها من فولانيين وسراكوليين وماسينيين بصورة خاصة بحركات جهادية لنشر الإسلام بين الوثنيين السّود من جهة، ولوعظ وإرشاد وتوجيه وتعليم المسلمين منهم من جهة أخرى كي يستقيم فهمهم للإسلام وينسجم سلوكهم طبقا لتعاليمه الصّحيحة بقدر الإمكان.

وحينما ظهرت الطريقة التيجانية في السوّادين خلال منتصف القرن التاسع عشر وقام الحاج عمر الفوتي بحركته الجهادية لنشرها وإقامة دولة إسلامية مركزية في السودان الغربي تحت زعامته وبناء على تعاليم الطريقة التيجانية، قاومه زعماء الطريقة القادرية التي كانت الطريقة الوحيدة في المنطقة قبل ذلك، بكلّ ما استطاعوا سواء بواسطة الحجّة الفكرية والثقافية أو بواسطة القتال والسّيف، وقد أسفر ذلك النّزاع المرير عن انحصار نفوذ الطريقة التيجانية في الجزء الغربي، في حين بقيت المناطق الوسطى والشرقية تحت زعامة رجال الطريقة القادرية، وممّا يذكر هنا أنّ ذلك النزاع بين جيوش رجالات هاتين الطريقتين، قد أضعف السودانيين المتنازعين إلى حدّ كبير، وساعد على تسهيل مهمّة الفرنسيين بصورة خاصة في احتلال المنطقة كلّها مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

أهم المصادر

1- عبد القادر الجيلاني، الغنية لطالبي الحق – القاهرة 1304 هـ.

2- السنتوفي – الفتح الرباني – القاهرة 1302 هـ.

3- أ – د. عبد القادر زبادية – الحضارة العربية والتّأثير الأوروبي في إفريقيا الغربية جنوب الصحراء – الجزائر 1989.

4- Encyclopaedia of islam, leiden; 1979

5- AFTABUD – DIN AHMAD, FUTUH AL GHAYB, LAHORE, N.D.

أحمد التيجاني 1150 هـ / 1737 م
1230 هـ – 1815 م

هو أحمد بن محمد بن المختار بن سليم التيجاني، كنيته أبو العباس، ولد في قرية عين ماضي الواقعة على مقربة من مدينة الأغواط، في الوسط الغربي من الوطن الجزائري، وتبعد عنها بحوالي 72 كم، وتنتسب عائلته إلى قبيلة أولاد سيدي الشيخ الكثيرة العدد والبأس في تلك المنطقة، وقد توفّي والده في طاعون عام 1166 هـ الموافق لعام 1753.

درس أحمد التيجاني في البداية ببلدته عين ماضي، فتلقى ما تيسّر له بها من المبادئ في العلوم وخاصة منها اللّغوية والفقهية وحفظ القرآن الكريم، وفي عام 1171 هـ الموافق لعام 1753م انتقل الرجل إلى مدينة فاس (عاصمة المملكة المغربية) آنذاك، والتي كانت عاصمة شهيرة للعلم والثقافة في ذلك الوقت، فواصل دراساته بها لعدد من السّنين ذهب بعدها إلى مدينة البيّض في الغرب الجزائري حاليا التي كان بها أيضا عدد من الأئمّة والوعّاظ فمكث بها خمس سنوات، كان خلالها يأخذ ويعطي في الوقت نفسه، ثمّ ما لبث أن غادرها إلى مدينة تلمسان، التي كانت في ذلك الوقت تنافس مدينة فاس فيما يتعلق خاصة بالازدهار العلمي والثقافي بها.

وفي عام 1186 هـ الموافق لعام 1773 م أخذ طريقه لزيارة مكّة المكرّمة والمدينة المنوّرة، فاستغرقت هذه الزيارة من وقته عددا من السنين، ذهب بعدها إلى القاهرة، وكان في كلّ هذه الزيارات يجتمع إلى العلماء والفقهاء ويذهب لمقابلتهم ويناقشهم ويستفيد ما استطاع من آرائهم في المسائل، ويقال إنه في إحدى تلك الجلسات، يكون قد اقترح عليه أحد العلماء وهو الشيخ محمد الكردي أن يؤسّس طريقته الخاصة به في التصوف، فأخذت هذه الفكرة مكانا لها في فكره منذ ذلك الحين، وربما كانت تلك الفكرة موجودة لديه قبل

ذلك، فيكون اقتراح الشيخ الكردي قد ثبّتها لديه أكثر، أو أنه شجّعه أكثر على تنفيذها.

وتتفق كلّ الوثائق المتوفرة على أنّ أحمد التيجاني كان قبل ذلك قد انخرط في وقت مبكّر في الطريقة القادرية، وهي التي كانت منتشرة في بلدان المغرب العربي بشكل واسع آنذاك، ولا تنافسها في ذلك الانتشار غيرها من الطرق إلاّ قليلا جدّا، كما يقال أيضا أنه انخرط بعد القادرية في الطريقة الطيبية، بعد أن يكون قد رأى في أذكارها وفي التلاحم بين منخرطيها بعض الإمتياز الذي لا يتوفّر لدى منخرطي الطريقة القادرية الكثيرين، وخاصة في ذلك الانتشار الذي كان لها في الأوساط العامية ممّا جعلها لا تكاد تتوفّر على تلك المعطيات من المعاني المرتبطة بتصوّف (الخاصّة) من الناس، ذلك أنّ رجال التصوّف كانوا منذ البداية يعتبرون أنفسهم من خاصّة الخاصّة، ورجالهم الكبار قد أُعطوا من (التجلّي) ما لم يحظ به غيرهم، فإذا كان الشيخ الكردي قد اقترح على أحمد التيجاني أن يؤسس لنفسه طريقة خاصة به، فيكون ذلك لما رأى في الرّجل من صفات هذه (الخاصيّة) في (التجلّي) الصوفي وفي التفقه والعلم كذلك.

وانطلاقا من هذا الأساس انخرط أحمد التيجاني أيضا في الطريقة الخلواتية التي كانت على أيّامه منتشرة كثيرا بين علماء الأزهر، وذلك بعد أن كان قد جلس إلى الكثيرين من بينهم واستمع إليهم، وحينما أسّس طريقته (التيجانية) أكّد على أنها جزء من (الطريقة الخلواتية) أو هي امتداد لها.

ويفهم من هذه التنقلات بين الطرق الصوفية التي قام بها أحمد التّيجاني قبل تأسيس طريقته الخاصّة به، أنّ الرجل ربما كان يبحث عن شيء ما يقنعه أو أنه كان يسعى إلى التجديد حينما أسّس طريقته الخاصة به، ويتّضح ذلك فيما كان أتباعه يصرّحون به من هذا التجديد، وخاصة على أيام تلك المعركة

الكبيرة لهم ضد أتباع وزعماء الطريقة القادرية في الغرب الإفريقي بصورة خاصة.

ومن القاهرة عاد أحمد التيجاني إلى بلدان المغرب، فزار فاس ثمّ زار تلمسان، وفيها إلتقى أيضا بأعداد من العلماء والمفكّرين، ثمّ ذهب في عام 1196 هـ الموافق لسنة 1782 م إلى (أبو سلغوم) ، وهي واحة تقع إلى الجنوب من مدينة (البيّض)، وفيها صدر عنه تصريح بأنه تلقّى تعليمات من الرسول (صلى الله عليه وسلم) كي يعمل على الدّعوة لطريقته، ففعل، وهنا اقترح عليه أحد أتباعه وهو علي حَرَّازم أن يعود إلى فاس لأنها المكان الأفضل لإنتشار الطريقة ومعرفة الناس لها أكثر، فذهب إلى فاس في عام 1213 هـ الموافق لعام 1798م.

وفي فاس أعطاه الملك بيتا للإقامة به ونشر طريقته وقد عرف ذلك البيت باسم (حوش المرايات) وكان هذا البيت نظرا لموقعه وكبره، بمثابة قصر فاره، فاتخذه مقرّا لـ (زاويته)، ومن هناك رأت طريقته انتشارها الكبير وأصبح لها ممثّلون يعد ذلك في كلّ البلاد الإسلامية تقريبا ومن بينها بصورة خاصة إقليم الحجاز الذي خلع فيه (الغالي) ممثّلها في الحجاز الخرقة الصوفية على الطريقة التيجانية، على الحاج عمر الفوتي، وكلّفه بأن يكون (مقدّم) الطريقة ورئيسها على كامل بلاد التّكرور.

اتخذ أحمد التيجاني (حوش المرايا) هذا مقرّا لزاويته، ولكنه كان يتنقّل من حين لآخر إلى عدد من المناطق داعيا لطريقته ومنظّما لزاويته ومسيّرا لشؤونها وشؤون فروعها، ووافاه الأجل بمدينة فاس، حيث واروه التراب في زاويته بها.

ومن مبادئ التيجانية ما يلي:

1- إنّ أُتْباع ومُريّدي الطريقة التيجانية كما أقرّها أحمد التيجاني يسمّون أنفسهم بـ (الأحباب).

2- لا يجوز لأي مريد في الطريقة التيجانية الإنخراط في أية طريقة أخرى غيرها.

3- للطريقة التيجانية كغيرها من الطرق (ذكرها) الخاص بها، ويتطلب من المريد أن (يقرأه) مائة مرّة في اليوم، وذلك في أوقات معيّنة من كلّ يوم.

4- يتحتّم على المريد في الطريقة التيجانية احترام وطاعة حُكْم البلد الذي يكون فيه المريد وهذا ما جعل صاحب الطريقة ومؤسسها يحظى بتقدير الحكّام في فاس لطريقته، وذلك بالرذغم من أنّ (حسّاده) من العلماء في فاس، قاموا ضدّه بعديد المناوشات وناصبوه العداء.

أهم المصادر

1- علي حرّازم: جواهر المعاني وبلوغ الأماني في فيض الشيخ التيجاني، المعروف أيضا باسم (الكنّاش) والذي قيل إنه كان إملاءً مباشرًا من الشيخ المؤسس على علي حرّازم، نشر بالقاهرة في عام 1345 هـ.

2- LEVI – Provençal, les historiens des chorfa, paris 1922.

3- Abun – Nasr, the tijancyya, Oxford Univer Sity Press 1962.

4- SHORTER ENCY. Of islam, Leiden 1974.

السنوسي، محمد بن علي
(1202 هـ / 1787 م – 1267 هـ / 1859 م)

هو محمد بن علي السّنوسي الخطّابي الإدريسي، ولد في قرية "الواسطة" بولاية مستغانم "، في الجزائر، تنسب عائلته نفسها إلى الشّرفاء المنحدرين من أولاد الحسن بن علي، غير أنّ المعروف عنها أنّها عائلة توارث أفرادها طلب العلم لعدّة أجيال. توفّي أبوه وهو صغير فاحتضنته جدّته وخالته وأشرفتا على تربيته، ويقال أنه قد أتم حفظ القرآن الكريم في قريته (الواسطة) وهو ابن ثمانية أعوام، وحينما بلغ العاشرة من عمره انتقل إلى مدينة مستغانم حيث التحق بالزّاوية الموجودة بها لدراسة علوم عصره، وبعد أن أخذ ما استطاع وما أمكنه تحصيله من علماء زاوية مستغانم، ذهب إلى مدينة فاس، فأقام بها سبع سنوات قضاها أيضا في الدراسة والتّحصل، ومنها أخذ الإجازة للتّعليم والإرشاد كما هي العادة في تلك الأسّام، وقد باشر الرّجل مهمّة الوعظ والإرشاد بعد تخرّجه لمدّة، ثمّ أخذ طريقه إلى الحجاز لأداء فريضة الحجّ فوصل إلى مكة المكرمة في عام 1820م، وأقام بها وبالمدينة المنورة عشرين سنة كاملة.

كان القرنان الثامن عشر والتاسع عشر ميلاديين هما فترة بروز التّطاول الأوروبي على البلدان الإسلامية. فقد ظهر خلالهما اختلال التوازن بشكل واضح كنتيجة للتّطوّر الحاصل لدى الأوروبيّين فيما يتعلق بصناعة السلاح بصورة خاصة. وهكذا غزا نابليون مصر وبلاد الشام بين عامي 1789-1801 كما أنّ الإسبان تمركزوا بمدينة وهران فارضين احتلالهم لها حتى عام 1791م، وهذا ممّا جعل العديد من المفكرين والمثقفين في البلاد البلاد الإسلامية، ومن بينهم محمد علي السنوسي، يسعون يعمدون إلى التفكير في إيجاد الطرق والوسائل التي قد تؤدّي إلى إصلاح حال المسلمين وتجديد الثقة لديهم واسترجاعها في أنفسهم، كي يواجهوا التحدّيات التي تجاههم وهذا ما حاول أن

يساهم به محمد بن علي السنوسي أيضا كأحد المفكرين في عصره ولذلك تمتاز الطريقة السنوسيّة بكونها تعتمد على التنظيم العسكري إلى جانب التنظيمات الأخرى الروحية والعلمية والتجارية أيضا، ذلك أنّ الإخوان في الطريقة السنوسيّة ينتظمون في مجموعات كلّ منها لا تنفصل في عملها عن الأخرى إذ تشكل جميع المجموعات خلية متكاملة كالبنيان المرصوص، والهدف من ذلك هو تمكين المسلمين من النّهضة ومجابهة طوارئ العصر. وقد دعا مؤسّس الطريقة السنوسيّة إلى الاجتهاد أيضا كي يواجه المسلمون متطلبات كل فترة بما يتلاءم وإصلاح حالهم، كما دعا وعمل على أنّ ينظّم المسلمون أنفسهم ليكونوا على استعداد للجهاد كلّما دعت الحاجة، حتّى يحافظوا على كرامتهم بين الأمم.

في عام 1843 م، أنشأ محمد بن علي السنوسي أول مقرّ لطريقته السنوسية على جبل أبي قبيس في مكة المكرمة، ثم عاد إلى المغرب، وأثناء تواجده في طرابلس لقي معارضة من واليها العثماني الذي يقال أنّه أراد إلقاء القبض عليه لمَا كان يدعو له من وجوب الإصلاحات في حياة المسلمين كي ينهضوا، و لمَ ينته هذا الأمر إلاّ بطلب السنوسي مقابلة شخصية مع الوالي كان من نتائجها تراجع هذا الأخير عن المضايقة التي كان على وشك القيام بها ضده، وبما أنّ حرب الأمير عبد القادر آنذاك كانت على أشدّها في مقارعة الجيش الفرنسي المحتلّ، فقد تلقّى محمد السنوسي أنباء على أنّ الفرنسيين كانوا سيلقون القبض عليه إذا عاد للجزائر، فما كان عليه إلاّ أن استقرّ في ليبيا، وأقام بها أوّل زاوية له ولأتباعه في بلدة البيضاء بالجبل الأخضر، قرب مدينة درنة الواقعة في ناحية منطقة بنغازي، ثمّ تعدّدت الزّوايا في عدّة مدن أخرى، نظرا إلى تكاثر المريدين وانتشار الطّريقة السنوسية وشهرتها في التجديد والاجتهاد والإصلاح، بالإضافة إلى تنظيماتها العسكرية لتهيئة المسلمين للدفاع عن أنفسهم أمام الأخطار المحدقة والمحيطة بوجودهم.

وفي عام 1855 أنشأ محمد بن علي السنوسي زاوية جغبوب في أقصى صحاري برقة، جمع فيها كثيرا من العبيد الذين تمّ تحريرهم، وهيّأهم للعمل على

نشر الإسلام بين الوثنيين وحماية القوافل التجارية، وهذا ما دعا أمير وضّـــاي (الشريف) الذي كان محمد بن علي السنوسي قد ألتقى به أثنـــاء إقامتـــه في الحجاز، وكان الشريف أثناءها في زيارة للحجّ أيضا، أن يطلب من الـــسنوسي العمل على تأسيس زاوية سنوسية في بلاده، وقد لبّى السنوسي طلب الأمـــير، وأنشأ زاوية في واحة كفرة إلى الجنوب من جغبوب، مقرّ السّنوسي الأخـــير، بحوالي ستمائة كيلومتر إلى الجنوب، فكانت بذلك بمثابة رباط عنـــد لحـــدود الشمالية للوثنيين في تلك المنطقة.

الآثـــــــار

- ألّف محمّد بن علي السنوسي نحوه 40 من الكتب ومن الوصايا والمذكّرات التي تحتوي على مجمل أفكاره في الإصلاح والإجتهاد، من أبرزها ما يلي:

1- الدرر السنية في أخبار السلالة الإدريسية.
2- إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقرآن.
3- بغية القاصد.
4- شفاء الصدر.
5- الكواكب الدرية في أوائل الكتب الأثرية.
6- الشموس الشارقة لنا من أسانيد المغاربة والمشارقة.
7- التحفة في أوائل الكتب الشريفة.
8- أنواع الورد: بكسر الواو، وهو في الأذكار الخاصة بالطريقة السنوسية.
9- الشّر يا لطيف: في التصوف.

ويلاحظ أخيرا أن الطريقة السنوسية لم تسالم المستعمرين الأوروبيين في يوم من الأيام فقد حاربت الإنكليز وحاربت الفرنسيين والإيطاليين بكل صبر وجلد.

أهم المصادر

1- محمد بن علي السنوسي: المجموع المختار من مؤلفات الأستاذ الأعظم الإمام سيدي محمد بن علي السنوسي، نشر دار الكتاب اللّيبي، بيروت 1968.

2- الزّركلي، الأعلام،م 6، ص299، ط 14، دار العلم للملايين، بيروت 1999.

3- Deveryrier, la confrérie musumane de Sidi Mohamed Ben Ali Es-Sanoussi et son domaine géographique en l'année 1300 de l'Hégire : 1882 de notre ère; paris, 1884.

4- Evans – Richard, the Sanoussi of Cyrenaica, Oxford, 1949.

5- Ziadi, N, Saousiya, a study of revivalist in islam, leiden, 1968.

أحمد بمباماكي (1850 – 1927م)

كانت مدينة "سان لويس" هي العاصمة القديمة للسنغال، وكانت بلـــدة (مباكي باؤول) مقاطعة إدارية صغيرة تابعة لها، وفي هذه البلدة الصغيرة ولـــد الشيخ أحمد بن أحمد بن حبيب اللّمباكي لأسرة تنتمي لأحد فـــروع قبائـــل الفلان، المنتشرة بكثرة في افريقيا الغربية إلى الجنوب من الصحراء والوســـطى كذلك، وكانت أسرة الشيخ أحمد بامبا مباكي قد هاجرت إلى هذه الجهة من منطقة (فوتاتورو) في أزمنة سابقة، كما هي عادة كثير من العائلات وحـــتى الفروع القبلية الفولانية في التنقل لأسباب مختلفة، وفي أزمنة متلاحقة، فتجـــد البعض منهم مرّات في أعلى السنغال، وبعد سنوات تجدهم في أعالي النيجر، أو في تشاد مثلا، وهكذا، وأسباب ذلك كانت تعود في الغالب إمّا للتجـــارة أو جريا وراء الرعي لمواشيهم، أو طلبا للأمن وهروبا من الاختلافات والحـــروب القبلية.

أمّا أمّ الشيخ أحمد بامبا مباكي فهي السيدة (فولوني)، تنتسب إلى عائلة من جنوب السنغال قريتها هي (بْروخانْ) في دائرة سان سالوم، وقـــد درس الشيخ أحمد ببلده – مباكي باوولْ – في البداية كغيره من أبناء المنطقة، فحفظ القرآن الكريم وهو صبيّ، ثمّ تصدّى لدراسة علوم عصره من فقـــه وتوحيـــد وتفسير وبلاغة ونحو، وما الى ذلك من علوم الدين واللغة، وبعد ذلك ذهب الى بلاد غنّار أو ما كان يعرف ببلاد البيضان، للمزيد من دراسة العلوم.

وفي هذه الفترة كان للهجوم الفرنسي على الجزائر واحتلال عاصـــمتها في عام 1831 صداه لدى السكّان في كلّ بلدان الغرب الاســـلامي المـــسلم، وخشي الناس خاصّة من المخطّط الفرنسي لاحتلال كلّ الغـــرب الافريقـــي، وكان لوجود الفرنسيين على الساحل السنغالي خاصّة وتدخّلهم في شؤون ذوي

الأمر بصورة مباشرة أو غير مباشرة، ممّا بعث آنذاك على عدم الاطمئنان لدى الناس والخوف من الاحتلال الاستعماري الفرنسي في أيّ وقت.

وكانت الطريقة القادرية هي السّائدة أذكارها وتقاليدها في السنغال، وبقية الغرب الافريقي إلى الجنوب من الصحراء، وقد انخرط أحمد بامبا كغيره من مواطنيه في هذه الطريقة في وقت مبكّر، وأنخرط في تنظيماتها بحماس ودعوة للانخراط فيها، وكان ممّن أسلموا وأنخرطوا فيها على يده الأمير (لاتجور) أمير قبائل (الْولوفْ) اللذي تبعته كلّ القبائل والعشائر الخاضعة لحكمه، وكانوا قبل ذلك وثنيّين، وقد نتج عن ذلك ازدياد شهرته بين القبائل واحترامها لعمله وسلوكه وربّما بتأثير من أحمد بامبا مباكي عارض الأمير (لاتجور) المشروع الفرنسي المقترح آنذاك بمدّ خطّ السكة الحديدية من سان لويس إلى داكار، لأنّ الأمير كبقية الناس كانوا يرون فيه مقدّمة وامتدادا للاستعمار الفرنسي في البلاد، وبما أنّ الفرنسيين مرّروا مشروعهم هذا بالرغم من معارضة الأمير، ببلاد الولوف، فإنّ هؤلاء ازداد شعورهم بكره الفرنسيين وأقبلوا أكثر على الاسلام تعويضا عن الهزيمة التي الحقت بأميرهم من طرف الفرنسيين.

وقد أدّى كلّ ذلك الى جوّ عامّ من الريبة وقلّة الثقة بين الفرنسيين والسكّان في المنطقة ونتج عنه انّ الفرنسيين بدأوا يعملون على إضعاف الطريقة القادرية ورجالها بقدر ما يمكن، ويعتبرونها امتداد للحركة الجهاديّة في نيجيريا وماسينا، ويخشون أن يؤول الأمر بأتباعها إلى مثل ذلك في السّنغال، وأصبحوا يرون في الشيخ أحمد بامبا رأس الحربة مادام السكّان يحترمونه ويسمعون لتوجيهاته ويعتبرونه بمثابة الزعيم الروحي لهم، في مثل تلك الظروف.

وبمجرّد ان نظّم الفرنسيون أمورهم في المنطقة طردوا الشيخ أحمد من بلده (مباكي باوول)، فأسس وهو في مكان إبعاده (دار السلام) وذلك في عام 1882م. وقد تحولت بسرعة إلى قرية عامرة تكاثر فيها حوله أتباعه بها وجاءه الناس من كلّ مكان، وأزدادت شعبيته فيها أكثر من السّابق، ممّا دفع

بالفرنسيين إلى نفيه إلى الغابون، وذلك عام 1895 وقد بقي بمنفاه بالغابون إلى سنة 1902. وحين أطلق سراحه وسمح له بالعودة إلى بلاده وجد الفرنسيون اللذين كانوا يظنّون أنّ سنوات المنفى الطّويلة هذه ستجعل النّاس ينسون ويتخلّون عن هذا الشيخ أنّ ما حدث كان على العكس تماما ذلك أنّه بمجرّد عودة هذا الشيخ أقبل عليه الناس إقْبَالاً كبيرا كما كانوا يفعلون قبل نفيه، وهذا ما دفع بالفرنسيين إلى نفيه مرّة أخرى إلى موريطانيا، فبقي منفيّا بها من سنة 1903 إلى 1907، وحدث أنّه التقى في موريطانيا مع أستاذه القديم من بلدان البيضان (الشيخ سيديا) فوقع بينهما خلاف كبير، كان من نتيجته تخلّي الشيخ أحمد عن الطّريقة القادرية وتأسيسه لطريقة جديدة هي (الطريقة المريدية)، وهي تشبه في محتوياتها الطريقة القادرية إلاّ أنّها تنحو في اتّجاه إقليمي بعض الشيء فلا ترى ضرورة للارتباط لدى المسلمين الأفارقة بإخوانهم من المسلمين العرب، وهو ما كانت تؤكّد عليه الطريقة القادرية[1].

ولمّا أسّس الشيخ أحمد طريقته المريدية هذه غيّر الفرنسيون من موقفهم ضدّه فأصبحت علاقاته بهم طيّبة، ولا ندري ما إذا كان هناك للفرنسيين من وسائل خفية في التأثير على الشيخ أحمد فيما يتعلّق بتأسيس الطريقة المريدية، خاصّة وأنّ السياسة المعروفة للفرنسيين كانت تتمثل في إبعاد الأفارقة السّود عن العرب والعربية بقدر الإمكان، والتّأسيس للفرنسية كي تحلّ محلّ اللغة العربية.

وكانت قضية إنخراط المسلمين في الجيوش الفرنسية قد أثيرت وكثر حولها الجدال في جميع البلدان الخاضعة للاستعمار الفرنسي، فسمح الشيخ أحمد بامبا السينيغاليين بالانخراط في الحبس الفرنسي وكرّمه في مقابل ذلك المقيم الفرنسي العام بوسام الاستحقاق الفرنسي، وأنخرط السينيغاليون في الجيوش الفرنسية خلال الحرب العالمية الأولى بأعداد كبيرة فبلغ عددهم حوالي سبعين ألف مقاتل.

---

(1) كان عدم التفاهم مع الشيخ سيديا ربما يعود في ذلك الظرف أيضا إلى تعامله وصداقته للفرنسيين في هذه المرحلة، وكان مباكي في هذه الفترة غير محبّ للفرنسيين وعلاقته بهم لا تزال غير جيّدة كما سيحصل في الأخير.

وبعد عودة الشيخ بامبا إلى بلاده وتحسّن علاقتـــه بالفرنـــسيين، نجـــده يؤسّس قرية خاصّة به أطلق عليها اسم (طوبى)، وعند وفاته في عام 1927 دفن بمسجده في مدينة (طوبى) هذه، وقد إتّخذ المريدون من جميع الأنحـــاء مدينـــة طوبى حيث قبر الشيخ (بامبا) مزارا يحجّون إليه أفرادا وجماعات في شهر صفر من كلّ سنة، وبأعداد كبيرة، ممّا جعله من أكبر المزارات في العالم حتّى الآن.

وللشيخ بمبا مباكي مؤلّفات عديدة في لتّصوّف والفقه والفتاوي لا يزال معظمها في انتظار من يسهر على التّحقيق، وأغلبها موجود في مكتبة "إيفـــان" التابعة لجامعة داكار، وفي (طوبى) أيضا.

أهم المصادر

1- موسى كه: جزاء الشكور في مدح الشيخ أحمد مبامبـــا، (طـــوبى) ؟ دون تاريخ.

2) D. Cruiser O'brien, the Mourids of Senegal: the Political and economic organization of an Islamic brotherhood, oxford clarendon Press, 1971.

3) V. Leonardo Al Fonso, Islamic society and state power in Senegal, Cambridge university Press, 1995.

4) F. Dumant, la Pensé religieuse d'amadou BAMBA, DAKAR, 1976.

الجغرافي الأندلسي أبو عبد الله البكري
1014 – 1094م

أبو عبد الله البكري هو عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن أيوب بن عمرو وهو أحد الجغرافيين العرب الكبار، مثل المسعودي وغيره.

ولد البكري في الأندلس بمدينة سالْتيس، وتوفي في قرطبة سنة 1094م، ولم يزر البكري أفريقيا إلى الجنوب من الصحراء، ولكنه كان أول من كتب عن مملكة غانا، وإلى حد الآن لا يوجد بين أيدي الباحثين هن تلك المملكة وتقاليد حكامها ودور المسلمين في العمل في إدارتها سوى ما كتبه البكري في القرن الحادي عشر للميلاد كما هو معروف، وقد استقى المعلومات التي دونها في هذا الخصوص من رجالات القواقل الذين كانوا يقطعون الصحراء للمتاجرة مع البلدان السودانية إلى الجنوب منها مثل غانا ومالي وغاو... إلخ ذلك ومما كتبه البكري عن غانا القديمة[1] وما تناهي إليه عن سيرة ملوكها تجاه المسلمين بشكل خاص، ما يلي:

(غانا سمة ملوكهم، واسم البلد أوكار، واسم ملكهم اليوم، وهي سنة ستين وأربعمائة تنكامين، وولي (أي تولى الحكم) سنة خمس وخمسين، وكان اسم ملكهم قبله بسي، ووليهم (أي تولى عليهم) وهو ابن خمس وثمانين سنة، وكان محمود السيرة محبا للعدل، مؤثرًا للمسلمين وعمي في آخر عمره فكان يكتم ذلك عن أهل مملكته...) وعن طريقة تولي منصب المكبة بالإرث تبعا للرابطة الأنثوية المتمثلة في الأخت كتب البكري ما يلي:

---

(1) غانا القديمة تقع في أقصى الجنوب الغربي لموريطانيا الحالية، وعندما استقلت بلاد ساحل الذهب في عام 1956 أطلق عليها الزعيم نكروما اسم غانا تيمنًا منه بالازدهار الذي كانت عليه غانا القديمة وإحياء لذكراها التاريخية، وقد كانت عاصمة غانا القديمة هي أودغست Audghost أما عاصمة غانا الحالية فهي أكرا، كما هو معروف.

(ومذهبهم أن الملك لا يكون إلا في ابن أخت الملك لأنه لا شك فيه أنه ابن أخته، وهو يشك في ابنه ولا يقطع على صحة اتصاله به)[1]

لقد كانت مملكة غانا على أيام البكري لها علاقات واسعة مع المسلمين، وكانت مزدهرة كما أن ملكها كان ذا سطوة في المنطقة وفي بلاده بالطبع، وكان يتخذ من المسلمين كتابا وموظفين ذوي خبرة وكفاءة.

ففي حديثه عن تلك المملكة والتواجد الهام للمسلمين بها، سجل لنا البكري ما يلي:

«وتنمامين هذا شديد الشوكة، عظيم المملكة، مهيب السلطان، ومدينة غانا مدينتان سهليتان، أحدهما المدينة التي يسكنها المسلمون وهي مدينة كبيرة فيها اثنا عشر مسجدًا أحدهما يجمعون (يصلون الجمعة) فيه، ولها الأئمة والمؤذنون والراتبون، وفيها فقهاء وحملة علم، وحواليها آبار عذبة منها يشربون وعليها يعتملون الخضروات». وفي حديثه عن مدينة الملك، كتب البكري ما يلي:

«ومدينة الملك على ستة أميال من هذه (أي المدينة التي يسكنها المسلمون)، وتسمى بالغابة والمساكن بينهما المباني متصلة (أي بين المدينتين)، ومبانيهم بالحجارة وخشب السنبط وللملك قصر وقباب، وقد أحاط بذلككله حائط كالسور، وفي مدينة الملك مسجد يصلي فيه من يفد عليه من المسلمين، على مقربة من مجلس حكم الملك، وحول مدينة الملك قبال وغبابات وشعــراء

(1) جرت محادثة تنافسية في الشؤون العلمية بين عالمين كبيرين في الأندلس أمام الأمير، وفي نهايتها تغلب أحد على الآخر، فما كان من المغلوب إلا رمي الغالب بالقول أنت ابن فاجرة، فرد عليه الغالب ، إن النساء لسن مؤتمنات على الفروج، وكانت القاعدة لدى ملوك غانا القديمة أن الملك يعين من يخلفه في الحكم من أبناء أخته لأنه يشك في أن يكون أبناؤه كلهم من صلبه، سببها أن القصر أو البيت الملكي يحتوي عادة على العدد الكبير من النساء والخدم والعساكر... إلخ ومن ثم فإنه لا يكون من السهل التثبيت من أن كل مواليد البيت الملكي بهذه الصورة، هم فعلا من صلب الملك وحده.

يسكن فيها سحرتهم، وهم الذين يقيمون دينهم، وفيها دكاكينهم وقبول ملوكهم، ولتلك الغابات حرس، ولا يمكن لأحد دخولها ولا معرفة فيها، وهناك سجون الملك فإذا سجن فيها أحد انقطع عن الناس خبره، وتراجمه الملك من المسلمين وكذلك صاحب بيت ماله وأكثر وزرائه».

يتحدث البكري عن عادات الناس وتقاليدهم في اللباس وغيره، فيسجل لنا ما يلي:

«ولا يلبس المخيط من أخل دين الملك غيره وغير ولي عهده وهو ابن أخته، ويلبس سائر الناس ملاحف القطن والحرير والديباج على قدر أحوالهم وهم اجمع، يحلقون لحاهم، ونساؤهم يحلقن رؤوسهن، وملكهم يتحلى بحلي النساء في العنق والذراعين ويجعل على رأسه الطراطير المذهبة عليها عمائم القطن الرفيعة».

وهكذا يتحدث البكري عن مملكة غانا ونباتاتها وتجارتها وذهبها وتقاليد ملكها في الخروج والتجول، وكيف يجلس للمظالم، وكيف يتعامل مع وزرائه وكبار رجالات مملكته، كل ذلك وغيره بتفصيلات لم يسبقه في شأنها غيره، كما أثبت لنا أن تلك المملكة كان يتعايش فيها الوثنيون والمسلمون، والكل يحترم الآخر ولا يظلمه، كما تحدث بإسهاب أيضا عن المواطن الواقعة على مقربة من غانا والمسافات إليها... إلخ.

من أشهر مؤلفات البكري، كأحد الجغرافيين العرب الكبار، ما يلي:

1. معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع وأنه يعود الفضل للمؤلف في هذا الكتاب بالذات بإيراد أعلام الجغرافيا في شبه الجزيرة العربية على أيامه، كما يشير المؤرخون إلى أن هذا الكتاب كان أول معجم جغرافي عربي قد تم ترتيبه حسب الحروف الأبجدية، وقد اشتمل على أسماء المواقع الواردة في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، والواردة كذلك في أشعار العرب

وأخبار ومواقع الغزوات الأولى، وقد تم طبعه لأول مرة في قوتنجن Gottengen عام 1876، وقد تم طبعه أيضا في القاهرة سنة 1945.

2. للبكري أيضا كتاب في شرح الأمالي لأبي علي القالي.

3. كتاب المسالك والممالك، وهو موسوعة كبيرة، وقد اعتنى المؤرخون خاصة بالجزء الخاص بإفريقيا، وذلك لما احتوى عليه من معلومات تعرف لأول مرة عن مملكة غانا وبتفصيل مجز ومفيد.

أهم المراجع

- البكري أبو عبد الله – الماسلك والممالك (تحقيق دي سلان) – بغداد 1857.
- عبد القادر زبادية – الحضارة العربية والتأثير الأوروبي في أفريقيا الغربية جنوب الصحراء، دراسات ونصوص) – الجزائر 1989.
- Encyclopedia of Islam, Leiden 1973.

الفصل الخامس

ملحق بالخرائط والصوّر



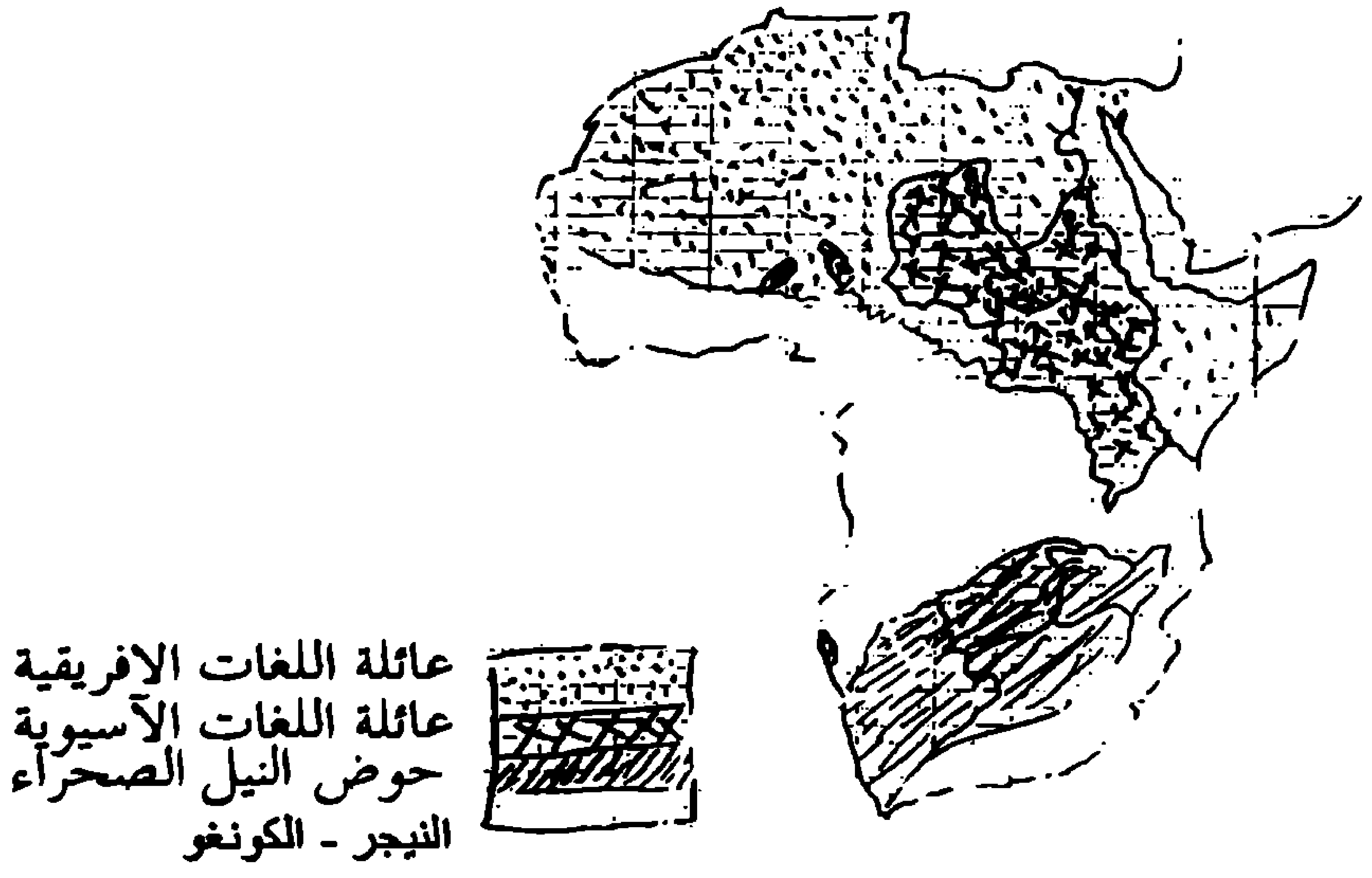
القارة الافريقية طبيعيا

اهم مناطق الانسان الاول



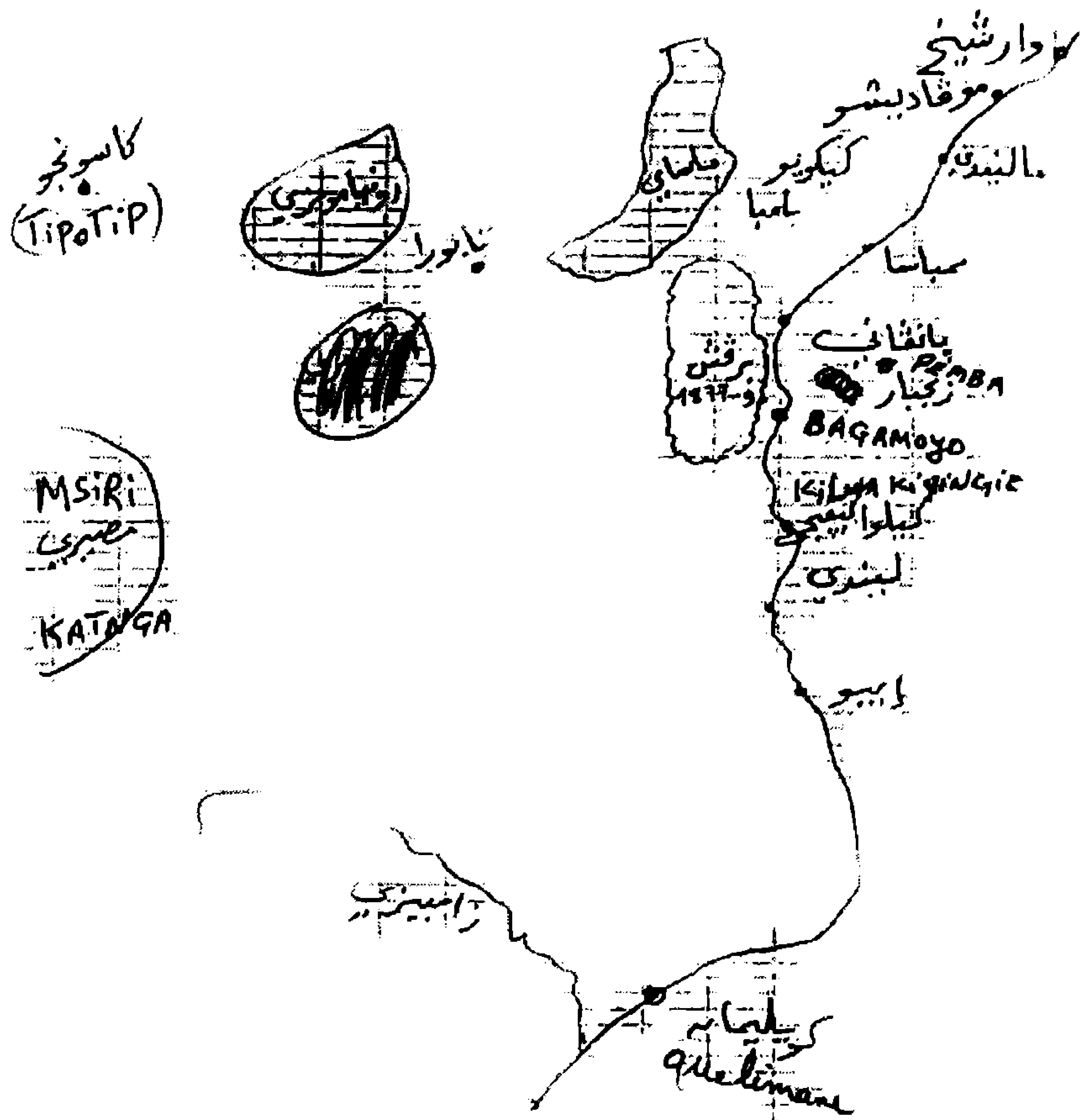


خط الاستواء
المحيط الأطلنطي
المحيط الهادي
مناطق صحراوية
مناطق جبلية

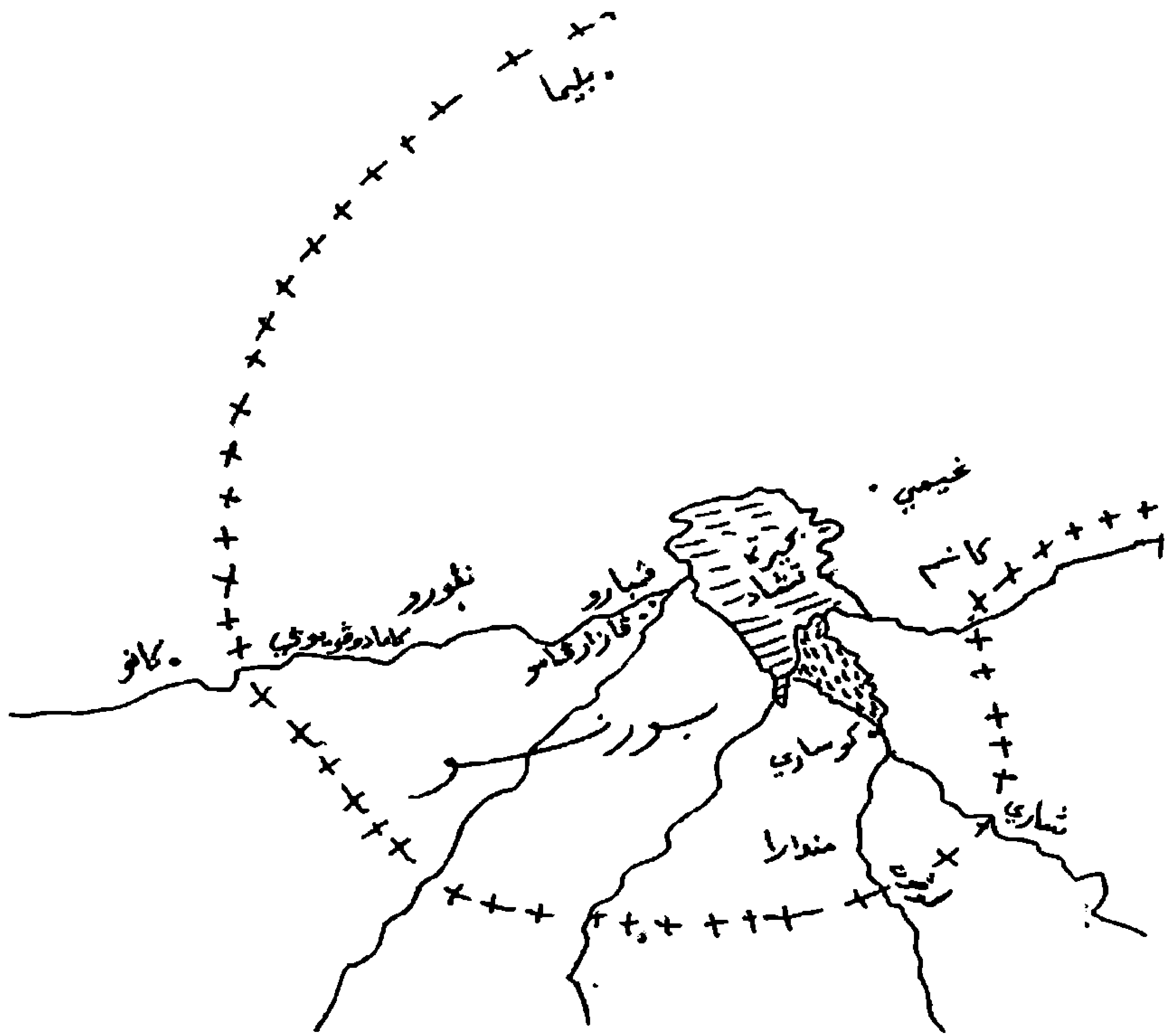


خريطة العائلات اللغوية

كما أثبتها الباحثون المختصون في هذا الميدان لحد الآن



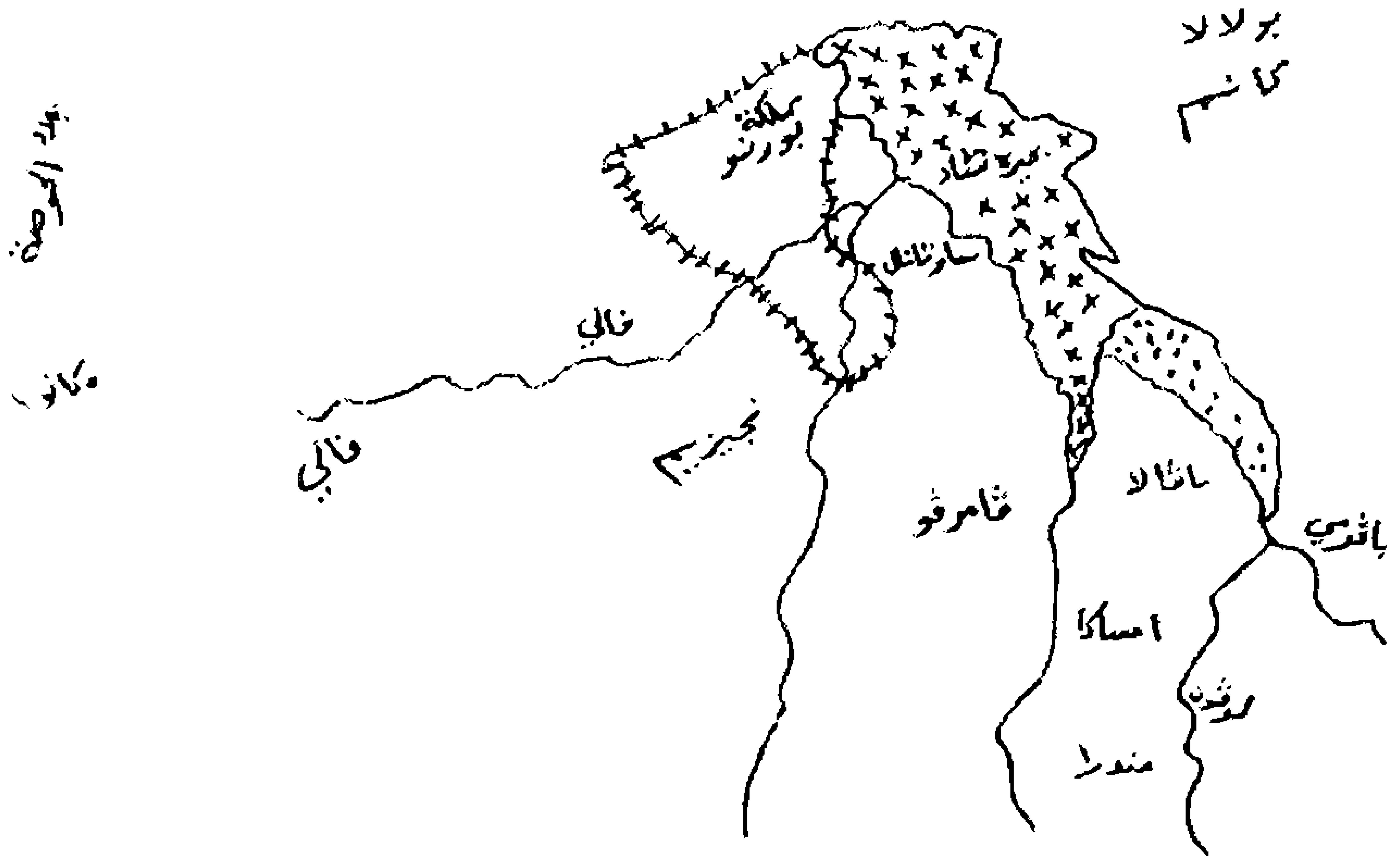
مناطق الشرق الإفريقي التي تواجدبها العرب



المناطق التي كانت تشملها سلطة ونفوذ مملكة الكانم – بورنو على أيام ادريس علومة، وذلك لما بلغت مملكته أوج اتساعها في عام 1596م

مملكة ساموري توري بعد احتلال الفرنسيين اجزاءها الغربية في عام 1886 م

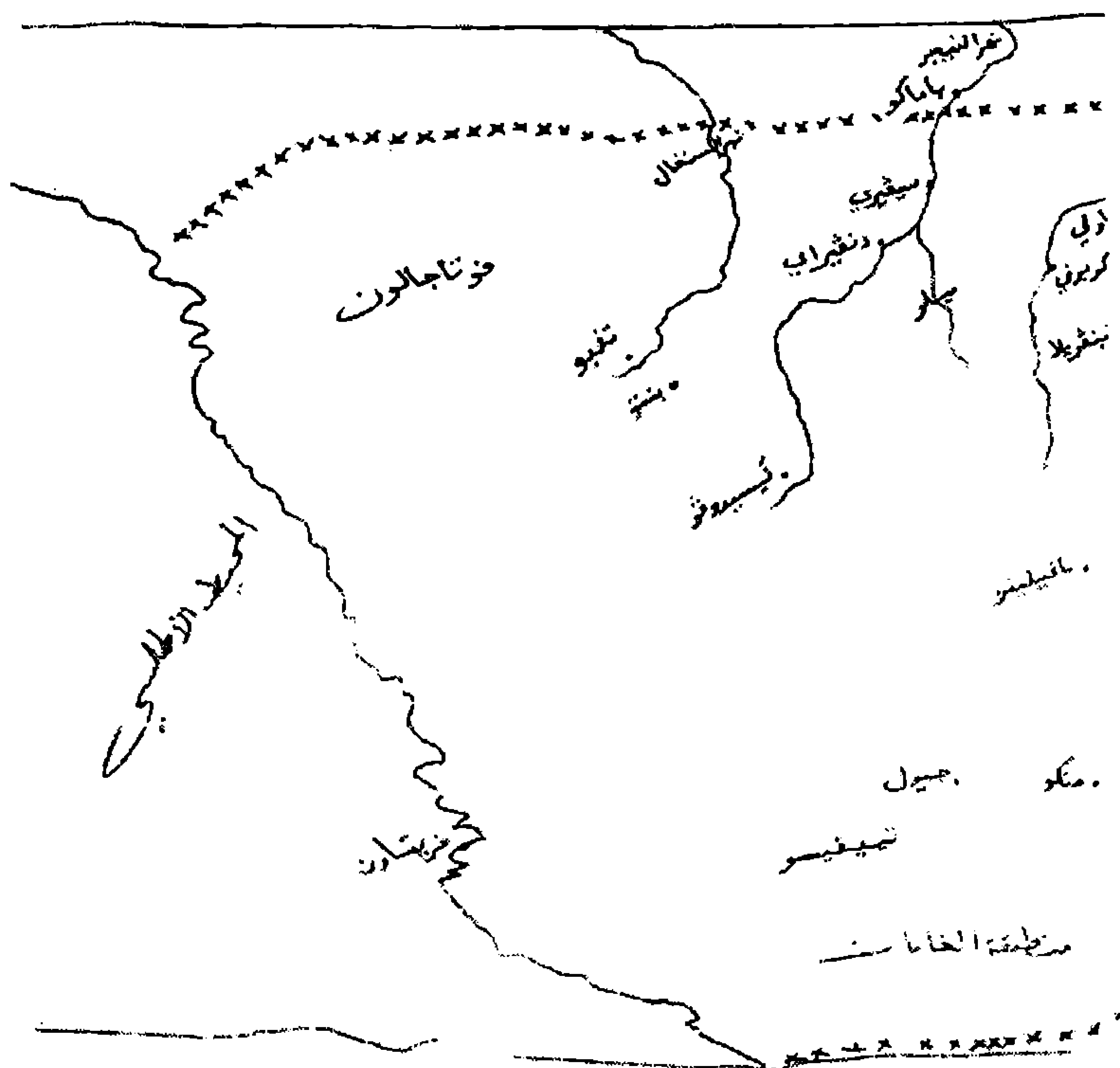




حدود مملكة البورنو ومناطق الشعوب المجاورة لها حين صعود إدريس علومة إلى الحكم، والتي سيشملها أو يمتد إليها نفوذ مملكة البورنو أثناء سنوات حكمه فيما بعد.



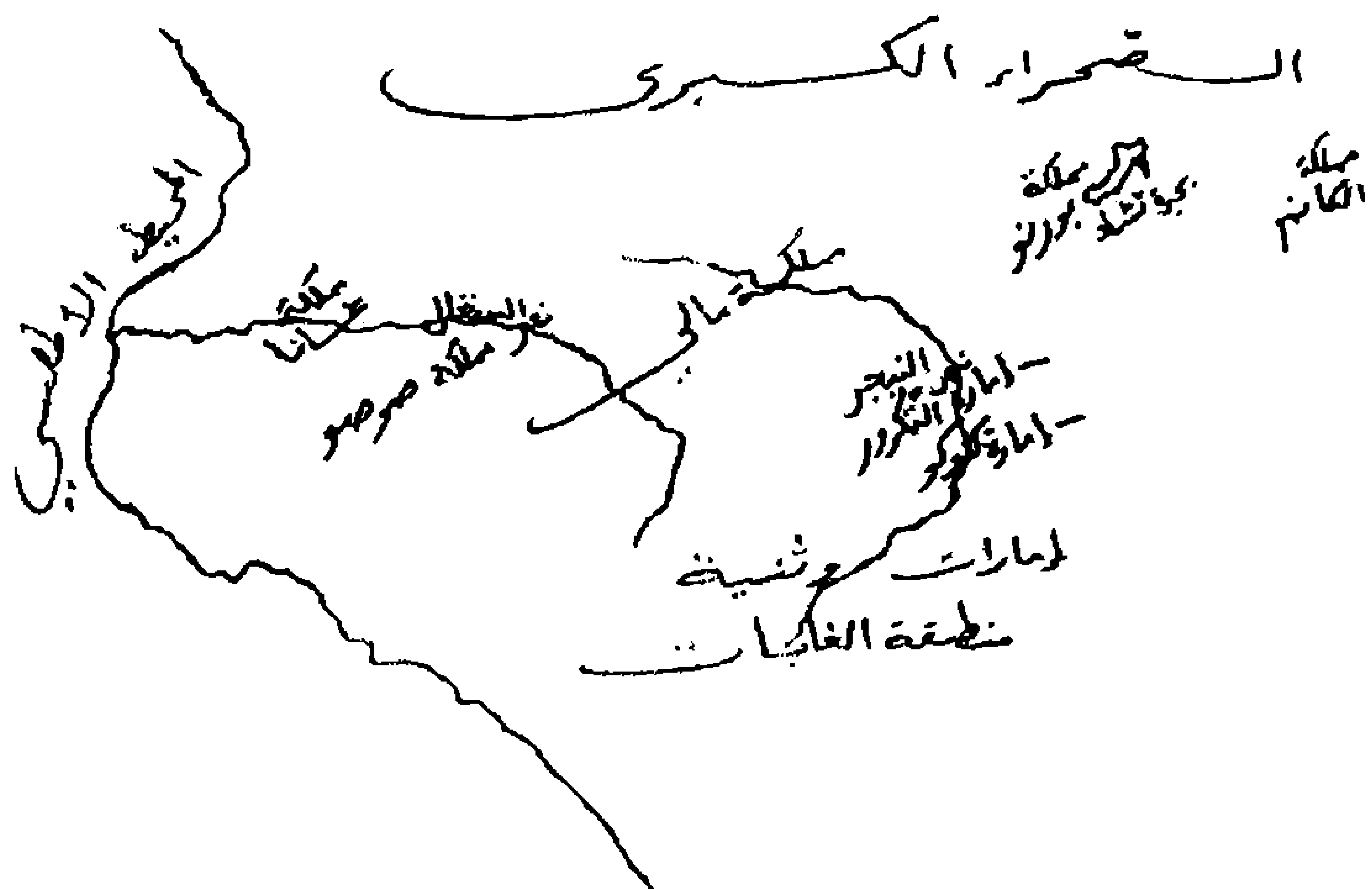
مرابع قبائل ماندينق – ديولا، تفرعاتها وانتشارها في منطقة الغرب الافريقي إلى الجنوب من الصحراء الكبرى – القرن التاسع عشر –



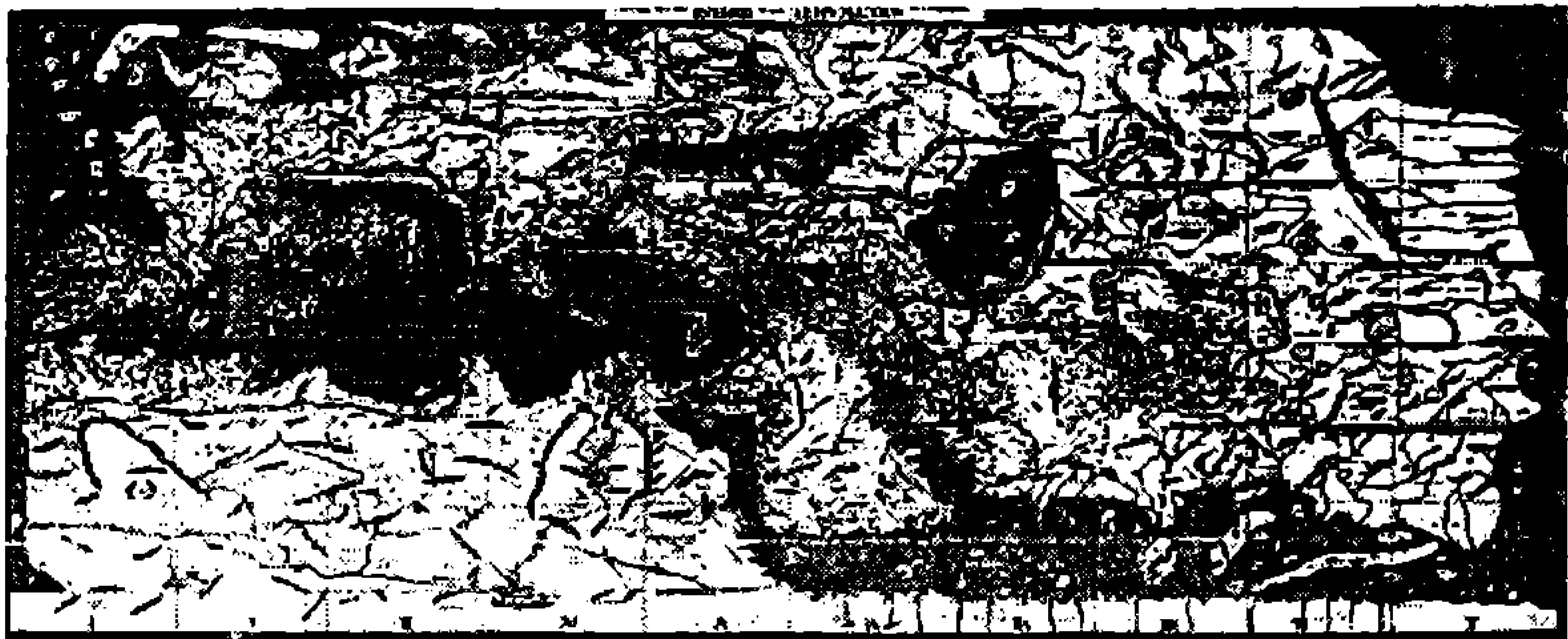
امبراطورية ساموري توري في أوج اتساعها (1879م)



مناطق نفوذ آل كنة الممتد إلى مناطق قبائل الطوارق وكذلك بقية القبائل حول أزواد (مركزهم الديني) وتمبكتو مركزهم السياسي الاجتماعي

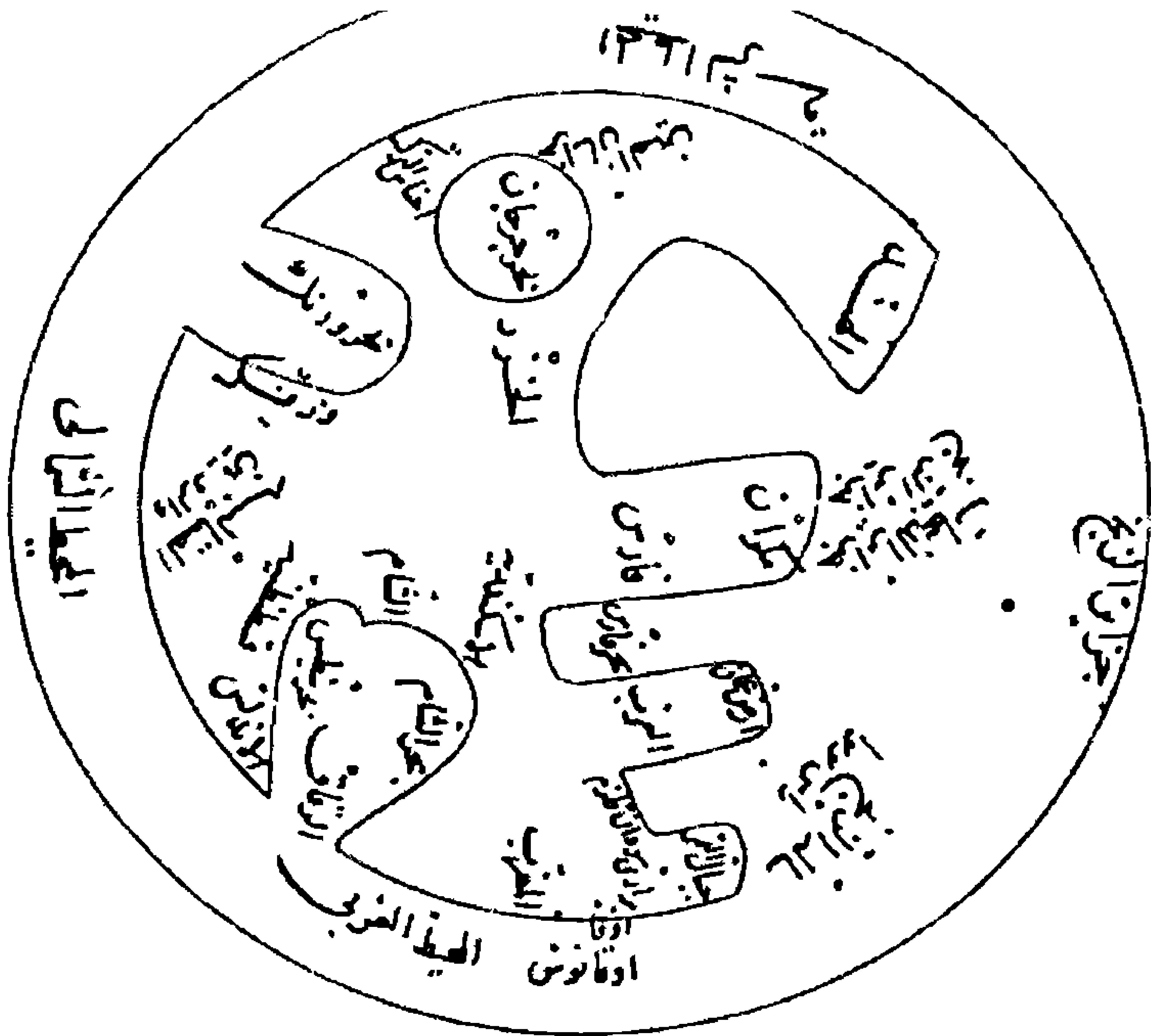


المالك الإسلامية في السودانيين الغربي والأوسط حسب
القلقشندي (القرن 15م)

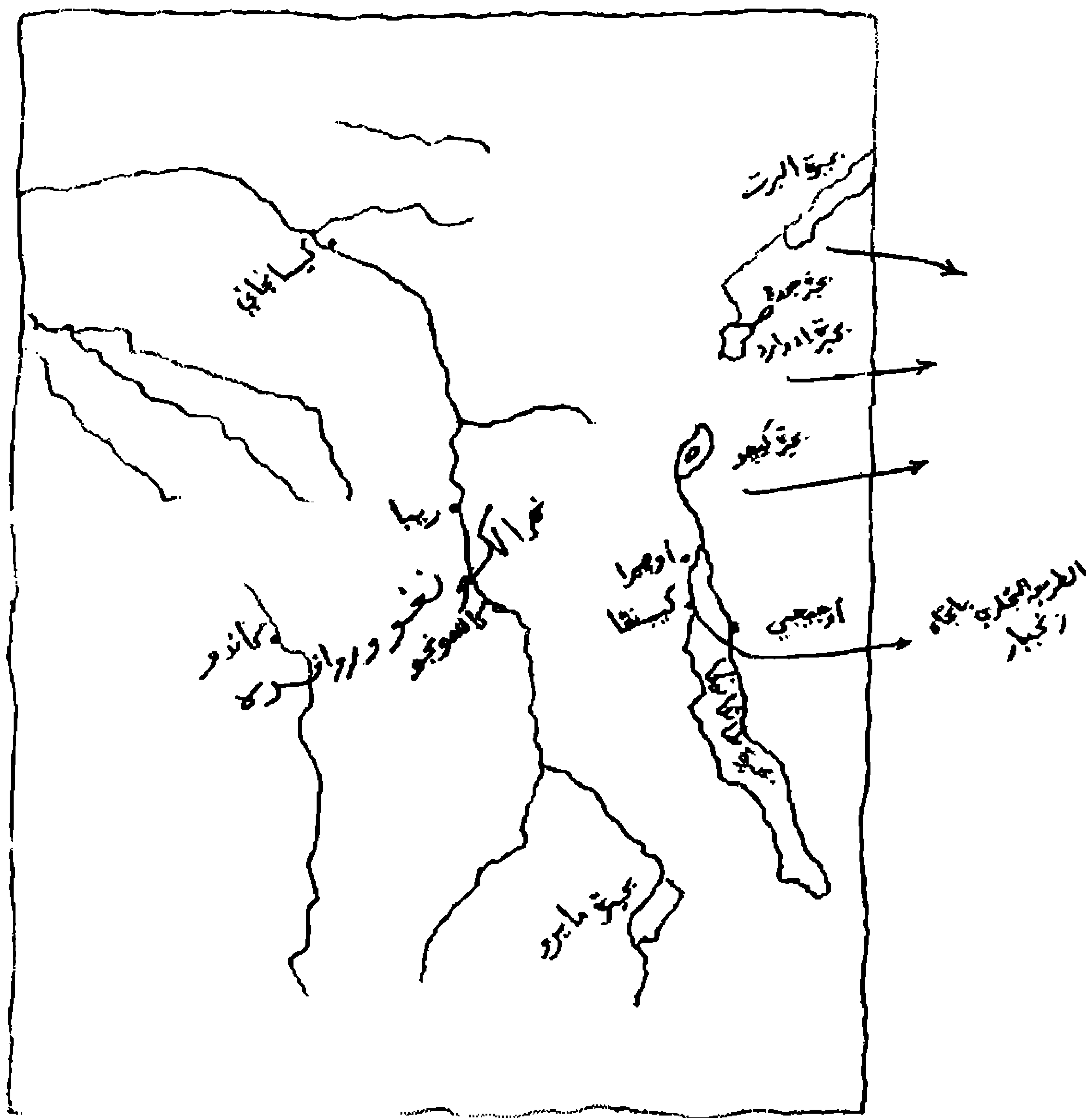


خريطة العالم جمعها كونراد ملر Konrad Miller (١٩٢٨م) من الخرائط الجزئية الموجودة في نزهة المشتاق (٧٠ رسم)

-وانظر كذلك فؤاد سزكين في مجلة الاكاديمية المغربية عدد28 نقلا على ميلر



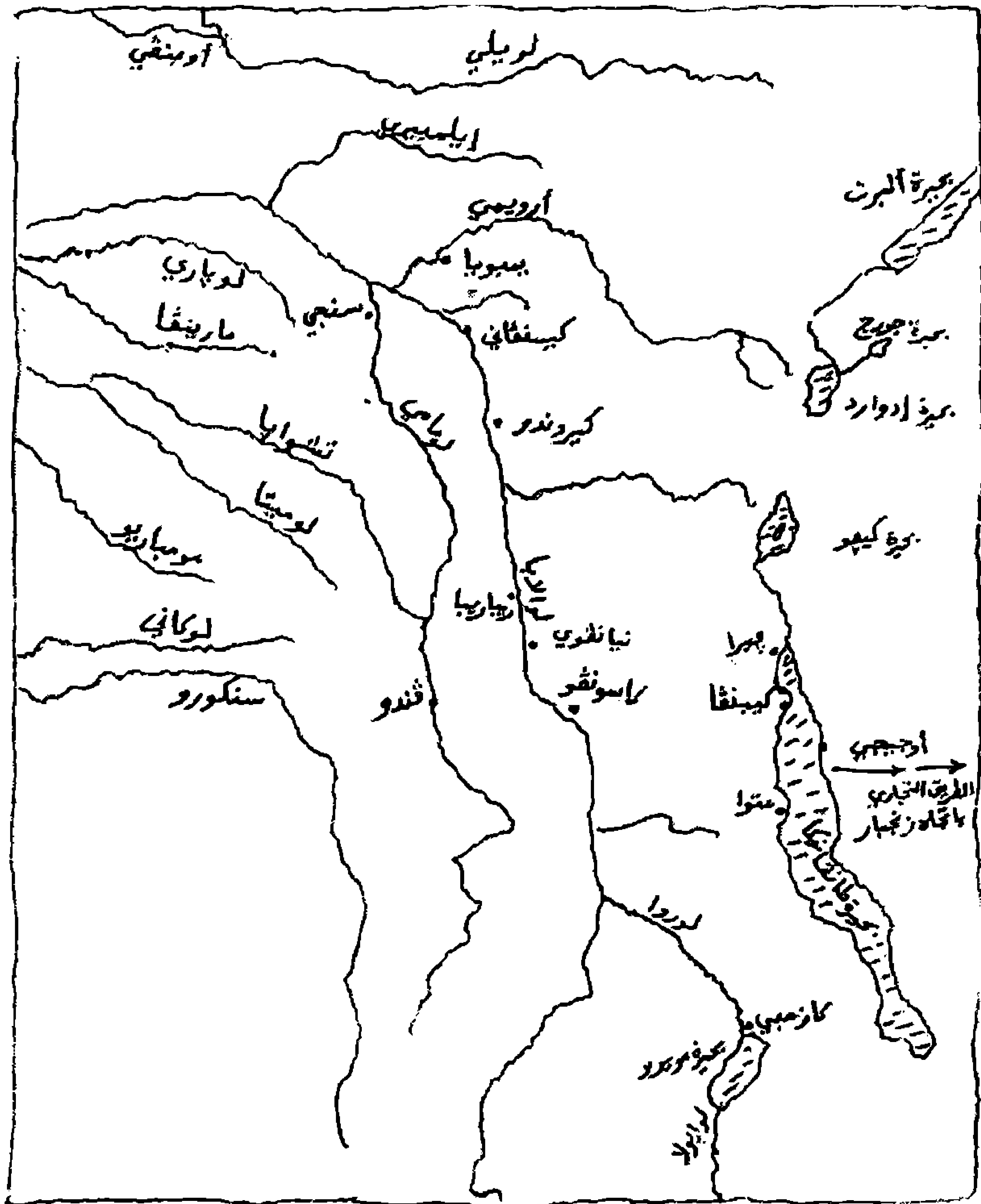
خارطة عموم البحار، كما رسمها البيروني في مؤلفه كتاب التفهيم لأوائل التنجيم وذلك عام 420هـ 1029م وهي مأخوذة عن النسخة الموجودة في مكتبة المتحف البريطاني



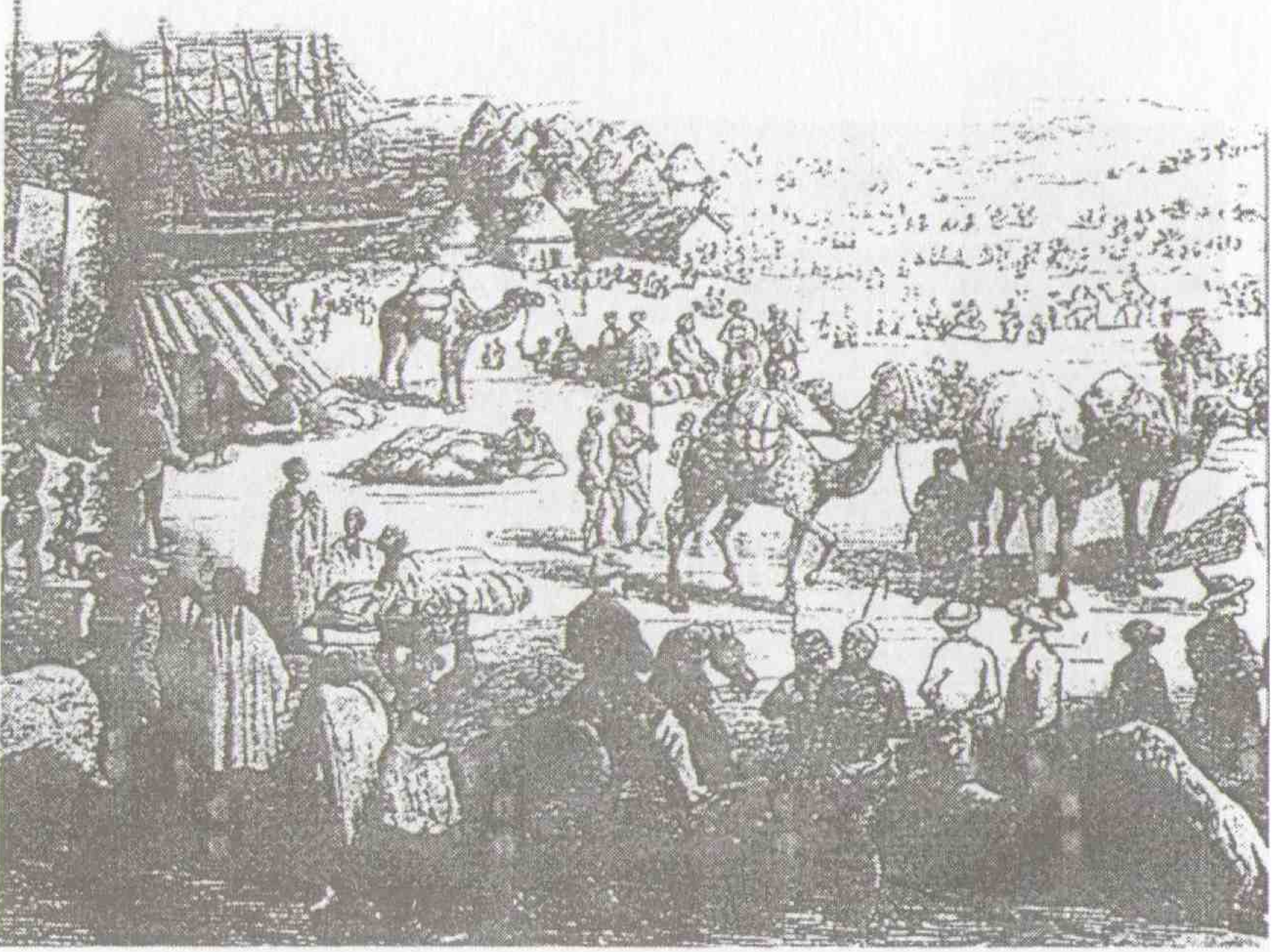
المناطق العربية إلى الشرق من نهر الكونغو قبل وصول الأوروبيين

- النصف الثاني من القرن التاسع عشر -

منطقة البابيكي ومنطقة كاتنقا اللتين كانتا بيد العرب



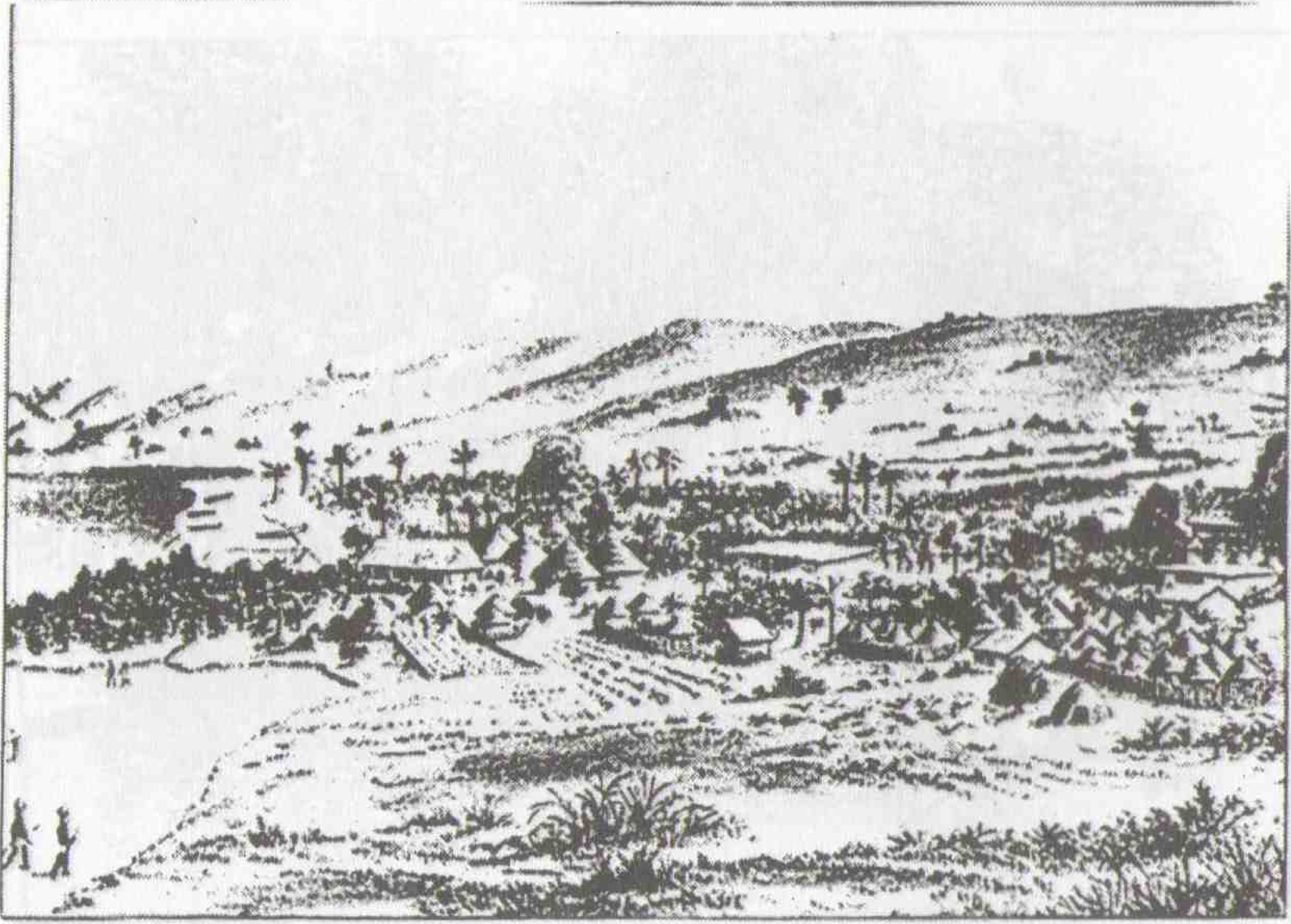
مناطق التواجد العربي والإسلامي السواحلي قبل الاحتلال البلجيكي في شرق الكونغ حتى نهاية القرن التاسع عشر.



وصول القوافل التجارية الى اعالي نهر السنغال 1853 -
كما كان قد رسمها الرحالة بارك



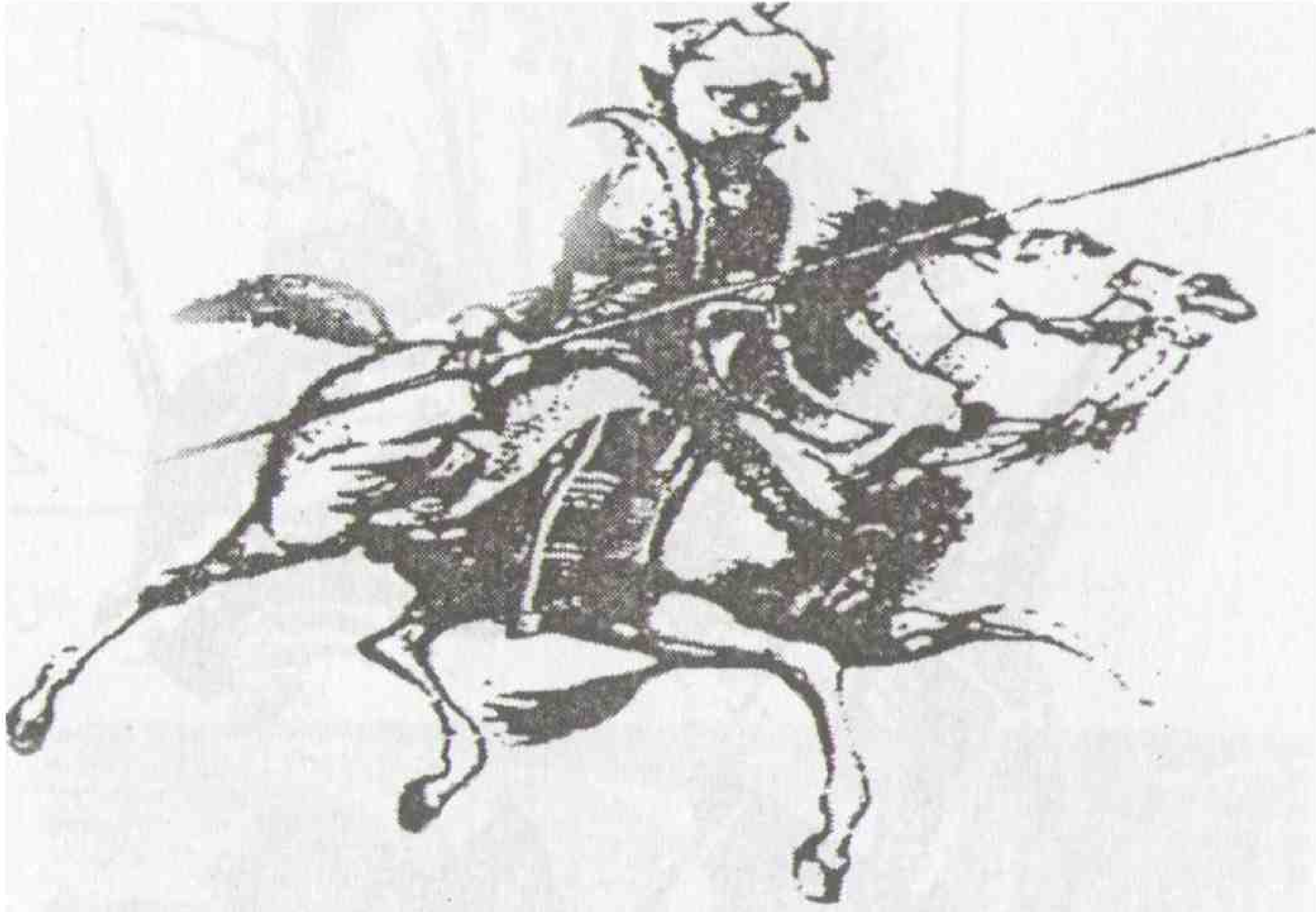
صورة لاجتياز مجرى النهر في مدينة سوكوتو كما رسمها بارث عام 1854



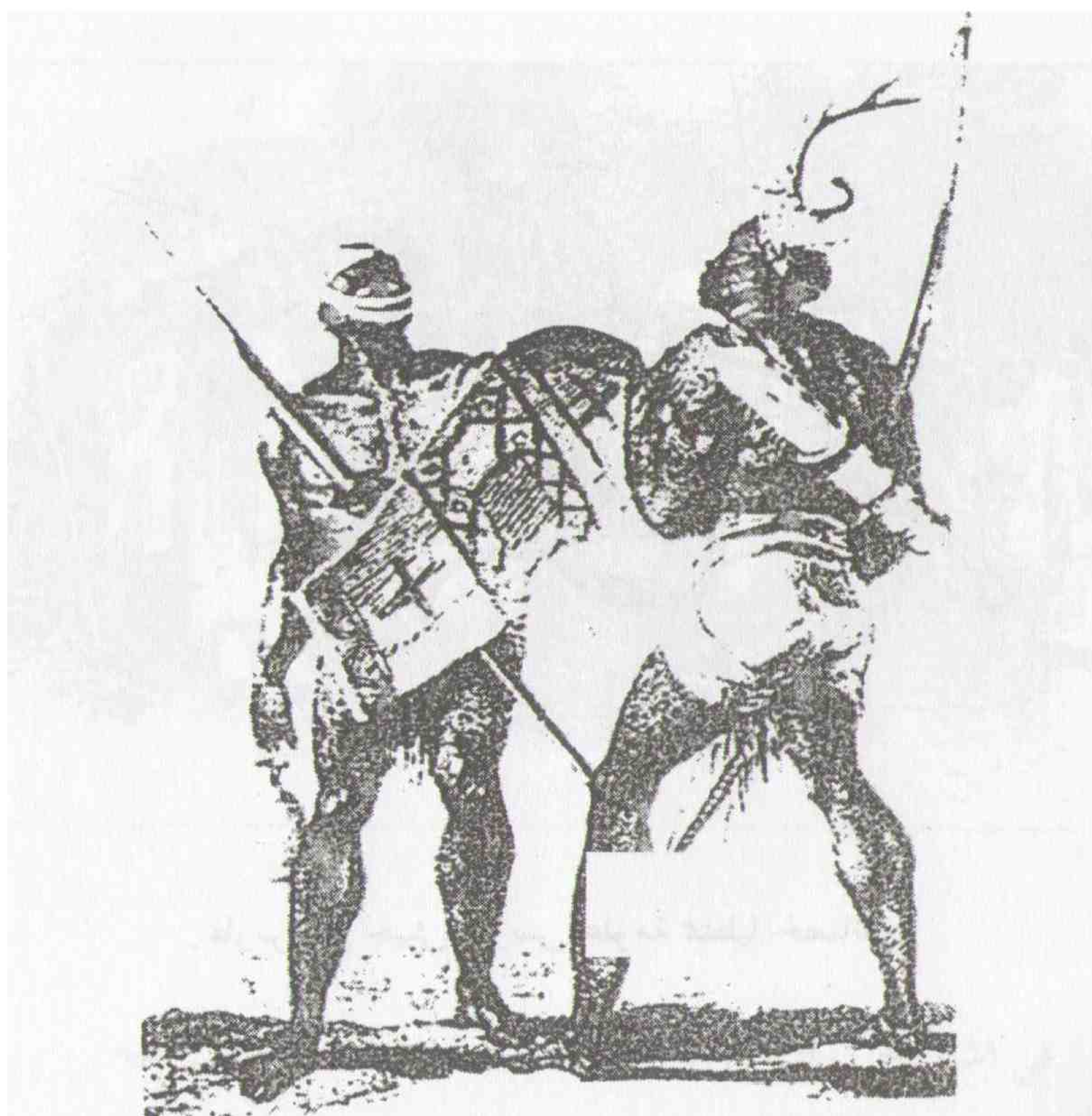
منظر عام لمدينة أوجيني، الواقعة على بحيرة تانجانيكا

- الصورة أخذت في عام - 1890

في اشد الحزن الإمام ساموري توري بعد القاء القبض عليه



فارس في جيش ادريس علومة ممتطيا لحصانه .



محاربان في جيش إدريس علومة كما رسمها أحد الهوات في ذلك الوقت



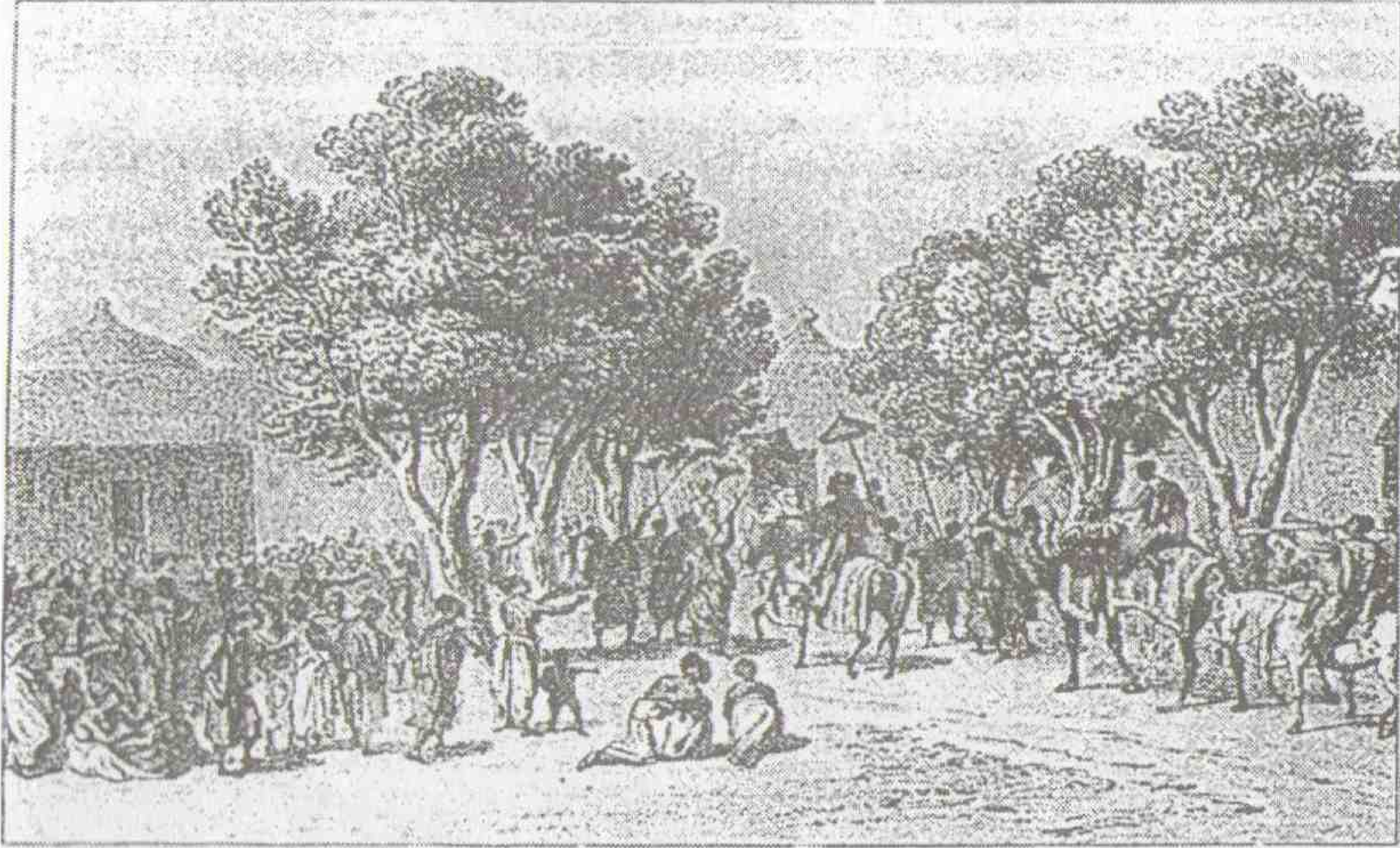
ساموري توري كما تخيله أحد الرسامين في ايام عزة



ساموري توري في جلسة تفاوض مع أحد الاجانب في قصره

في إحدى المقرات العسكرية للجيش الساموري
تدريب على القتال بمشاركة أبناء ساموري توري أيضا



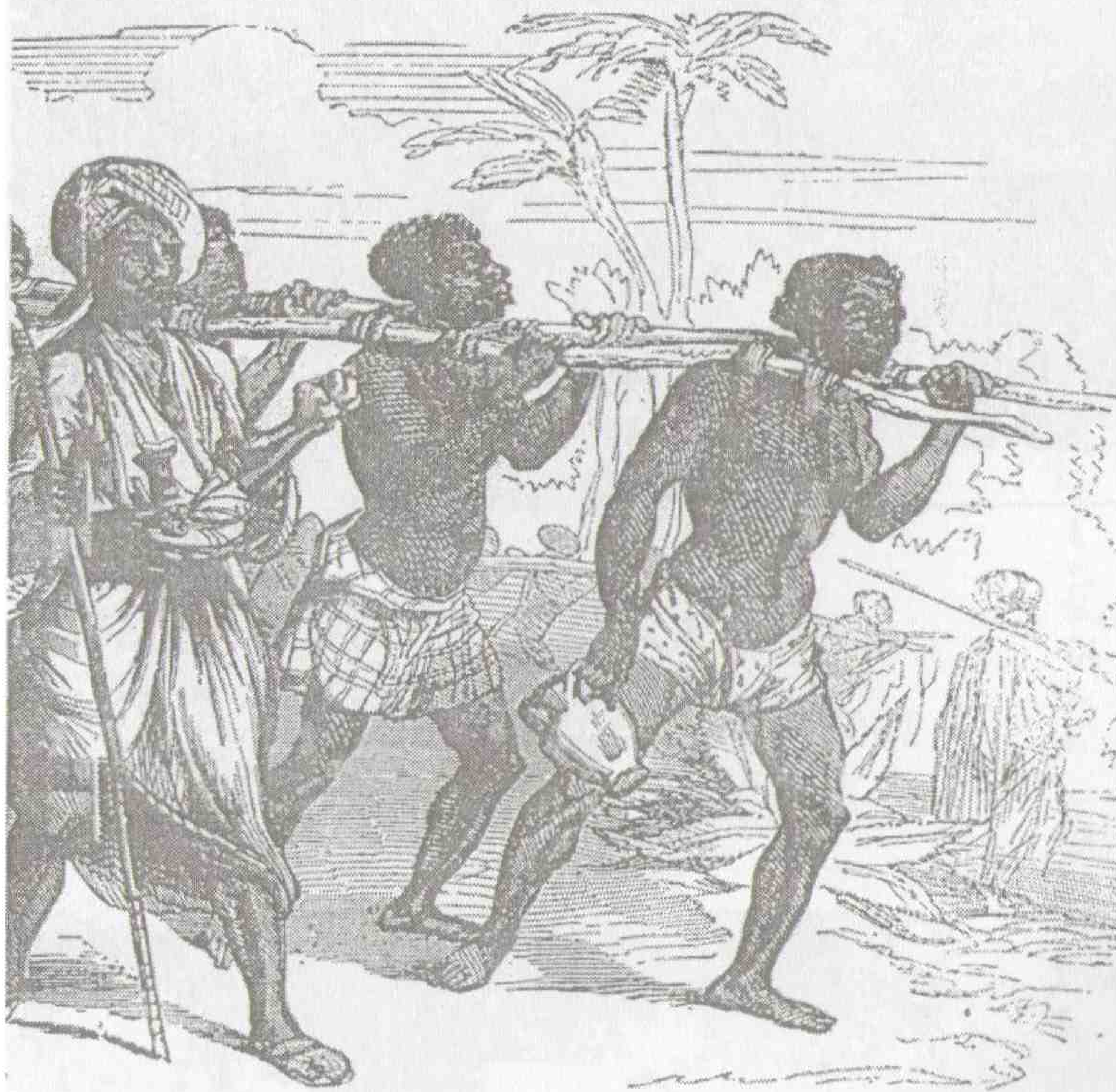


مرور مركب للسلطات في ماسينا، حوالي 1860

فصيل من العبيد يساقون، وهم مكبّلون بالأغلال في أعناقهم

صورة توضيحية، رسمت باليد في عام 1849 -

Caravane d'esclaves
Gravures de l'illustration 1849





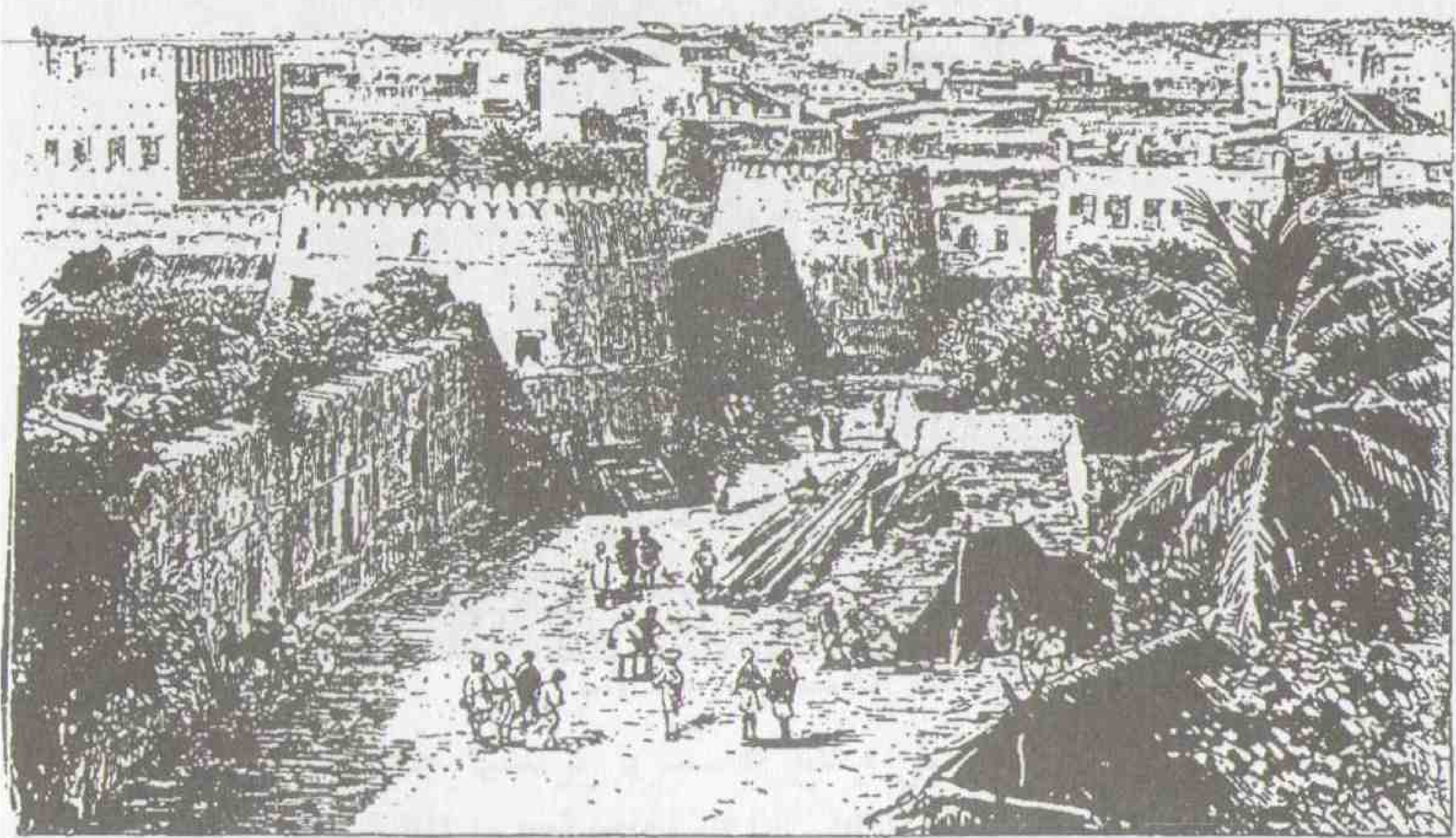
صورة الأرض كما رسمها الشريف الإدريسي بناء على طلب أمير النورمانديين في صقلية، ويشاهد عليها العديد من المناطق الإفريقية التي كان روادا في التواجد بها والاختلاط والتعامل مع سكانها.

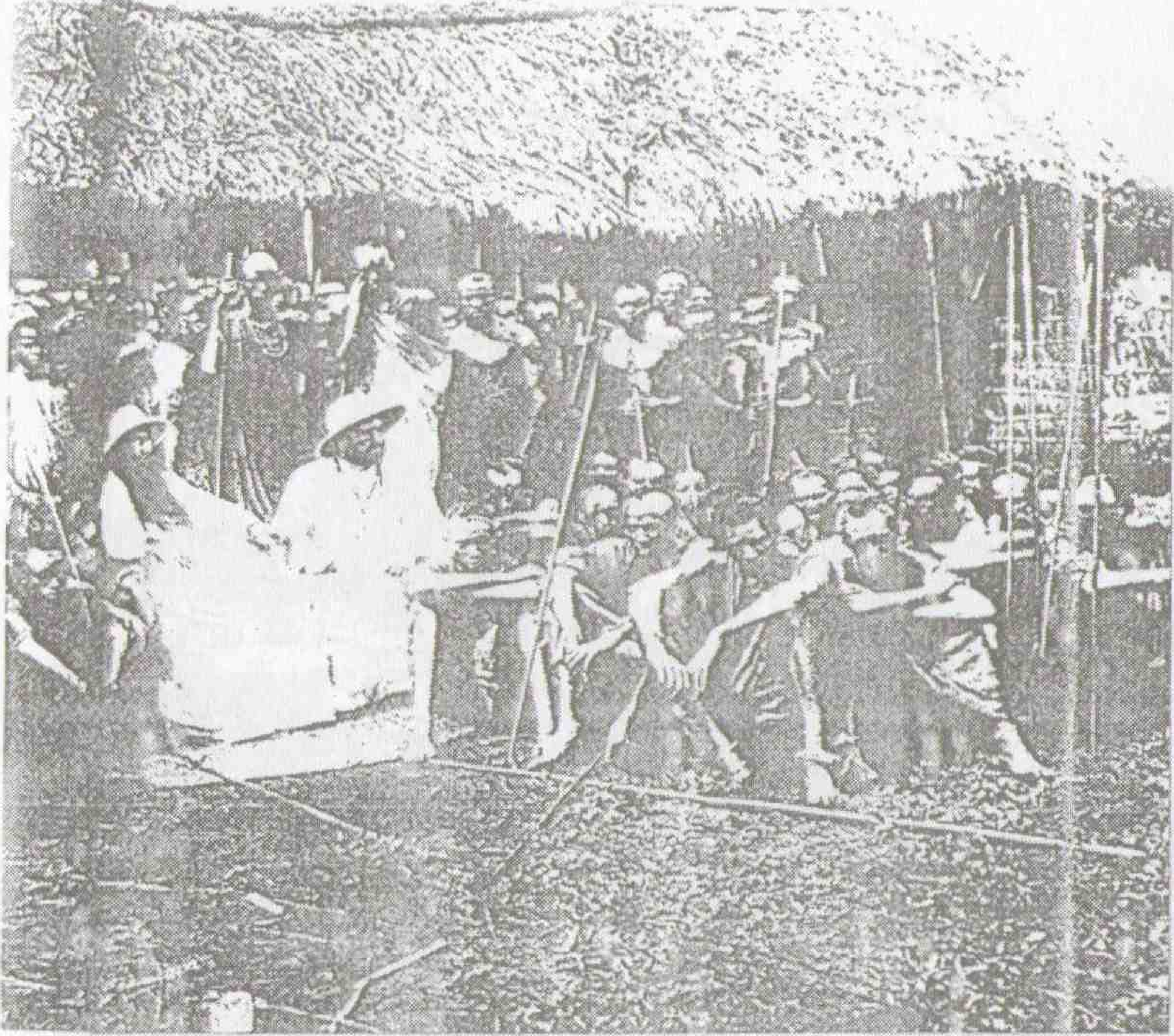
ويعود تاريخ هذه الخريطة إلى عام 549هـ الموافق لعام 1154م



صورة فريدة لمحمد بن خلفان المدعو – روماليزا –

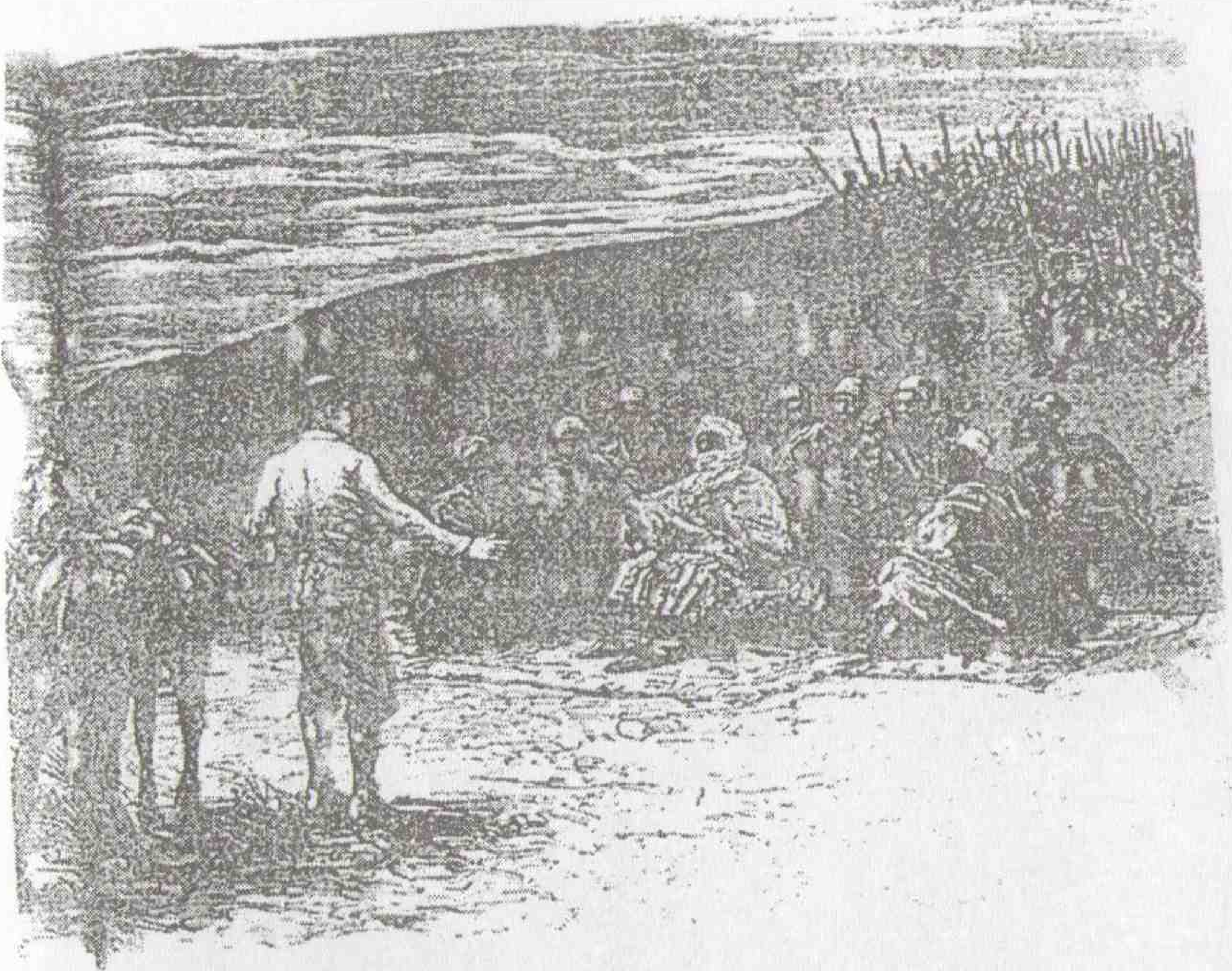
منظر لمدينة زنجبار في القرن التاسع عشر





الآباء البيض يبشرون في موجيرا mugéra (في بوروندي الحالية) وذلك قبل الاحتلال الأوروبي

– الصورة تعود إلى عام 1891 –



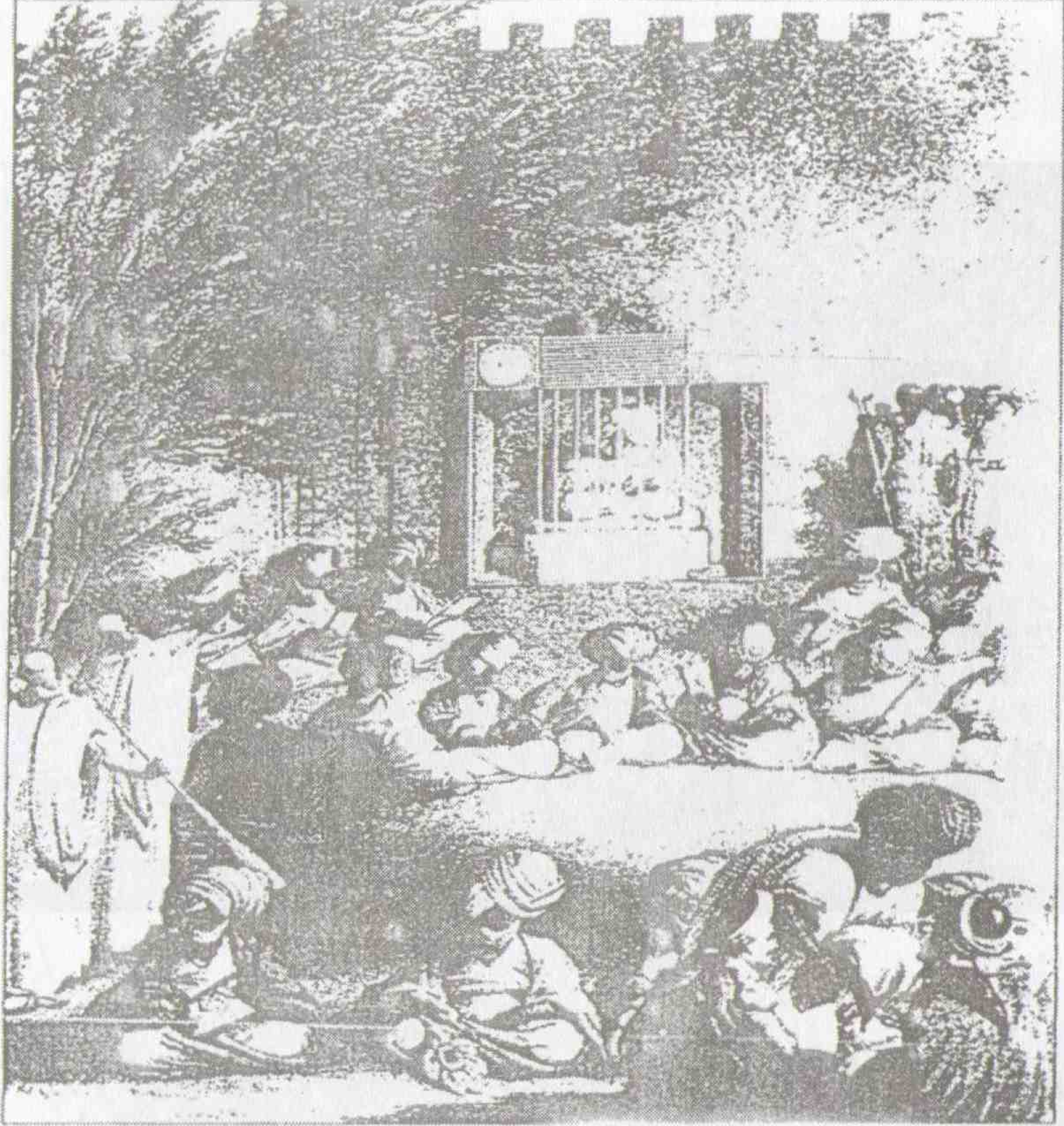
تحت حراسة إحدى الوحدات العسكرية السامورية:
الإمام ساموري توري يستقبل وفدا عسكريا فرنسيا جاء للتفاوض معه، بناء على طلب من الفرنسيين، ويدل ذلك على مدى عدم الثقة التي كانت لدى الإمام ساموري في التعامل مع الفرنسيين الذين كانوا يخرقون اتفاقياتهم معه كلما سنحت لهم الفرصة بذلك

احمادو، أمير سيقو – أخذت له هذه الصورة حوالي سنة 1870
وهو ابن الحاج عمر، وخليفته –





صورة عن عملية اصطياد العبيد،ويلاحظ مدى الرعب الذي لحق الناس بعد أن فاجأهم الغزاة على حين غرة



ادريس علومة في جلسة استقبال رسمي في قصره



عبيد يساقون ، بعد أن تم اصطيادهم

الفهرس

....

انجز طبعه على مطابع
ديوان المطبوعات الجامعية
الساحة المركزية - بن عكنون
الجزائر

عبد القادر زبادية أستاذ كرسي الدراسات الإفريقية بجامعة الجزائر، متحصل على دكتوراه دولة من جامعة لندن (تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر)، كما كان عضو اتحاد المؤرخين العرب و اتحاد المؤرخين الأفارقة، له العديد من الأبحاث والمؤلفات في ميدان اختصاصه.

هناك ما يناهز ثلاثة أرباع القارة الإفريقية في شرقها ووسطها وغربها، إلى الجنوب من الصحراء الكبرى،كان خلال العصر الوسيط، يتمتع بعلاقات اقتصادية ودينية ومعرفية واسعة مع العالم الإسلامي وقد كان لتلك العلاقات تواجد واسع ومتين في عديد المؤلفات للكتاب العرب والمسلمين من رحالة ومؤرخين وجغرافيين وعلماء دين ولغة، كما كان لها أيضا صداها الواسع في العديد من مبادرات وحركات الزعماء الأفارقة من علماء مفكرين ورجال دين وسياسيين كنتيجة لتأثرهم بالإسلام واحتكاكهم بما لدى المسلمين من تقاليد أخلاقية حضارية وإصلاحية على السواء.

وقد اشتملت هذه الدراسة على متابعة جادة ومتأنية لما كان لذلك الواقع التاريخي المجيد من انعكاسات وتسجيلات مثبتة وموجودة أمام الباحثين في مؤلفات العرب والمسلمين في هذا الشأن وهي جزء ثمين من التراث الثقافي - الحضاري الذي نعتز به على الدوام.

والأمل هو أن يجد في هذه الدراسة الباحثون وطالبو المعرفة في هذا الميدان الإفادة المرجوة أو بعضها على الأقل.

www.opu-dz.com

9 789961 013526

رقم النشر: 5113

410 دج